

دكتور محمد عيسى محمد الرصافي

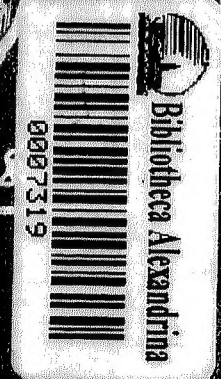
أستاذ أصول التربية المساعد
كلية التربية - جامعة طنطا

في التربية الإسلامية مبجوث ودراسات

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - ناسدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

إيمان
منهج

أخلاقاً حية



دكتور محمد علي محمد الرصفي

أستاذ أصول التربية المساعد
كلية التربية - جامعة طنطا

في التربية الإسلامية

بحوث ودراسات

الناشر: مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

جميع الحقوق محفوظة

طابع
دار التراث العربي
٩٣٦١٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولننذر أم القري
ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم
يحافظون » •

(صدق الله العظيم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مما لا شك فيه أن المجتمع الاسلامي يمر في الفترة الأخيرة ،
 بظروف حرجة على جميع المستويات السياسية والثقافية والاقتصادية
 والاجتماعية . ولما كانت التربية تحتل المقام الأول في مواجهة تلك
 الأزمات ، فقد قمنا وعلى مدار الأعوام القليلة السابقة بنشر دراسات
 وبحوث في عدد من الدوريات الثقافية العامة وأيضاً الدوريات العلمية
 المتخصصة ، بالإضافة الى نشر بحوث أخرى ضمن كتاب « من المبادئ
 التربوية في الاسلام » .

هذا وقد عالجت تلك البحوث والدراسات عدداً من قضايا الفكر
 التربوي في الاسلام ، واستندت في الكثير منها الى العديد من كتب
 التراث والفكر التربوي المعاصر ، بالإضافة الى الاستدلال الغزير من
 الكتاب والسنة المطهرة .

وقد جاء البحث الأول نظرة عامة حول التربية الاسلامية ، والمنشور
 بمجلة كلية التربية بمكة المكرمة ، جاء كمحاولة لفهم طبيعة التربية
 الاسلامية وما تمر به في ظروفنا الراهنة ، كما تقدم الدراسة نموذجاً
 تربوياً من القرآن الكريم .

أما الدراسة الثانية والمنشورة بمجلة كلية التربية بمكة المكرمة
 العدد العاشر فقد تحدثت عن : « قيم تربوية في القصص القرآني ،
 تحليل لمواقف من قصة يوسف عليه السلام » وقد استعرضت الدراسة
 الكثير من الأهداف التربوية في الفكر الحديث ، في إطار قصة يوسف
 عليه السلام .

وأما البحث الثالث فيتناول الحرية والتربية في الاسلام كما تناولت الدراسة الرابعة للعلاقات الانسانية والتربية ، وقد جاء هذان البعثن بالكنير من مبادئ التربية الاسلامية في ظل المصادر الأساسية وهي القرآن الكريم والسنة المطهرة • وقد وضحت تلك الدراسات الكثير من الحقائق ، حتى يتبين الفرد المسلم كيف يمكن أن يتفهم الآراء التربوية الحديثة من منظور اسلامي ، وحتى لا ينبهر بالفكر الغربي أو الثقافة الوافدة •

أما المقالات الخاصة بالغزو الثقافي للمجتمع الاسلامي ، فقد نسرت بمجلة التضامن الاسلامي ، التي تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة وأيضا مجلة « رسالة المسجد » التي تصدر عن الأمانة العامة للمجلس الأعلى للمساجد برابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، وقد جاءت هذه المقالات في وحدة وأنسجام ، حيث انها نتجت جميعا الى كشف النقاب عن الكثير من الأدوار التربوية التي تستطيع أن تقوم بها المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والأسرية في مواجهة الغزو الثقافي للمجتمع الاسلامي •

كما تناولت المقالات أيضا كيف يمكن أن تؤدي العبادة على شتى صورها وأشكالها دورها التربوي في العصر الحديث • والدراسات والبحوث والمقالات التي جاءت في هذا الكتاب تتسق جميعا في وحدة وأحدة وفي انسجام متناسق لتضيف الى مكتبة التربية الاسلامية في العالم العربي والاسلامي فكرا جديدا مستوحى من الكتاب والسنة والفكر الحديث •

والكتاب في عمومته محاولة جادة لخدمة الفرد المسلم والباحث المسلم ••• والله سبحانه وتعالى من وراء القصد •

القاهرة ٢٥ يناير سنة ١٩٨٦ • د محمد علي محمد الرصفي



الفصل الأول

نظرة عامة حول التربية الإسلامية

* تقديم :

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية ، على أن يستندوا على التربية في توجيه حياتهم • غير أن التربية بهذا الشكل كانت تقليدية محضة ، مما أكد من وجهة النظر الحديثة ، ضرورة جعل التربية تأخذ تسكلا آخر ، وجعلها طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية ، ومرتبطة بمشكلات الفرد والجماعة ، ومرآة يرى المجتمع فيها نفسه ، ويؤكد فيها ذاته •

والمجتمع الذي ينتظم جزء كبير من أفراده في مراحل التعليم المختلفة ، لأبد وأن يصبح التعليم قوة حاسمة في تحديد شكل هذا المجتمع • والتربية بهذا تؤدي دورها على مستوى الفرد والجماعة ، وتؤكد ارتباطها بمشكلات المجتمع ومقدراته •

والتربية الحقيقية هي التي تؤدي دورها في بناء المجتمع • ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ، تنطلق فيه طاقات الأفراد وتستثمر فيه قدراتهم ، ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد طبيعية الى طاقات تكون في خدمة الانسان المعاصر •

ومن هنا فان الأثر الذي تحدثه التربية في المجتمع هو المقياس الحقيقي لمدى فعالية النظام التعليمي ، داخل المجتمع بصرف النظر عن حجم هذا النظام • والتربية بهذا تهدف بالدرجة الأولى ، الى تنمية الفرد بشكل كامل عقليا وبدنيا وروحيا وعاطفيا وجماليا واجتماعيا. وأخلاقيا وثقافيا وسياسيا • الخ •

وإذا صح كل ما تقدم فلا تسك أن الجانب التطبيقي السلوكي يحتل
وسط تلك الاعراض المكان الأول ، وخصوصا أن السلوك هو المحك
الأساسي لقياس مدى استيعاب الفكر النظري ، وقدرة الفرد على التخلق
بما ثبت فيه من ركائز أصبحت سمة من سمات حياته ، وصفة مميزة في
تعامله مع أقرانه من بنى البشر ♦

وإذا كانت العلاقات بين الأفراد هي التي تكشف عن مضمون مدى
استيعاب الادراك الواعي لأغراض التربية ، بما تشتمل عليه من تطبيق
عملي لتلك الأغراض ، فما هي نظرة الاسلام الى تلك الجوانب السلوكية
وأهميتها في تربية الانسان المسلم ؟ وقبل ذلك ، ما هو الاطار النظري
العام للتربية الاسلامية ♦♦ ؟

هذا ما سوف نناقشه في هذا البحث آخذين في الاعتبار أننا سوف
نسوق الحديث عن واقع وحال التربية الاسلامية بشكل اجمالي ، كما
سنعطى نموذجا وحيدا ، من أساليب التربية في الاسلام ، تاركين
التفصيل الموسع ، والشرح المفصل لمناسبة أخرى ، وعسانا وقتها نكون
قد وفقنا الى كشف النقاب عن أسرار جديدة ، حول ما تعانيه التربية
الاسلامية سواء على أيدي كتاب في التربية مسلمين أو على أيدي غيرهم
من التربويين ممن لا يعتنقون الاسلام ، وقبل كل شيء وبعده ، فان النية
خالصة لله رب العالمين ، أن يكون هذا البحث مفتتحا وليس خاتمة ،
وبدءا وليس نهاية (فالمجال على حد علمي خلو من الكتابة المتخصصة
التي تعتمد على أصول من كتاب الله وسنة رسوله ♦ وتراعى في نفس
الوقت الحيلة في التفسير للكتاب الكريم ، والتحليل لمواقف الاسلام
من القضايا التربوية) ♦

وعموما فأول الغيث قطرة ، وعسى الله أن يأتي بالفتح ويهيئ مجال
التربية الاسلامية من يدفع عنها غائلة الدخلاء عليها ، المنبئين داخل
أفئتها ، من يحاولون أن يثروا ثراء أدبيا أو ماديا على حسابها ♦
وان غدا لناظره قريب ، وعسى ذلك أن يكون قريبا ♦

♦ التربية الاسلامية ♦♦ لماذا ؟

بادئ ذي بدء فلا غرابة ونحن على أبواب هذا البحث ، أن نقرر
أنه لا يوجد بين جميع النظم التربوية - قديمها وحديثها نظام تربوي

استطاع أن يولى اهتمامه للانسان من جميع جوانبه العقلية والروحية والبدنية ، سوى نظام واحد هو التربية الاسلامية .

وان كان المنطق والتفكير العلمي يجتمان بالضرورة بطرح المقدمات وتحليلها من أجل الوصول الى النتائج فاننا لن نجافي الحقيقة حينما نضع هذه النتيجة المسبقة قبل الخوض في حيز الدليل والبرهان .

ومن غريب الأمر أن يطراً حتى على السنة بعض المثقفين ، لا أقول التسكيك ولكن أقول لبس في الفهم أو خلط في التفكير ، فتراهم يقولون : لماذا التربية الاسلامية .؟ أو بشكل آخر : ما هي الاضافة التي سوف تضيفها بحوث صممت أو تصمم في مجال التربية الاسلامية .؟ والواقع أن نظرة حول النظم الفلسفية الأخرى سواء القديم منها أو الحديث ترينا أن تلك الأنظمة لم تفلح في وضع اطار عام تربوي فبعضها قد عالج الجانب المادي ، والبعض الآخر قد عالج الجانب الروحي فقط وسوف نسوق في هذا المجال بعض الأدلة على ذلك :

فأفلاطون استخدم الفلسفة كمبرر لحياة الترف في المجتمع كما استخدمها للدفاع عن القيم الأخلاقية والسياسية لطبقته الاجتماعية ، كما وجد أن قيم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة متأصلة فيما يسمى بالبناء أو التركيب الخالد للعالم وبذلك خول أفلاطون لنفسه تنحية هذه القيم عن تناول الفحص والنقد والنقاش . من جانب الفرد العادي في المجتمع وقصر البحث في تلك القضايا على الفلاسفة وعلى الذين يتمتعون بوقت الفراغ ، ومن هنا يمكن أن نستنبط تفسير كل فلسفة أفلاطون سواء في نظرية المعرفة في العالم ، في الكون ، في الأخلاق ، في السياسة التربوية .

ونخرج بنتلك النتيجة أن الفلسفة عند أفلاطون لم تكن حبا للحكمة كما أنها لم تبرز من التحيز بل انها تهدف منذ البداية الى خدمة وظيفة اجتماعية محددة^(١) .

وحينما نصل الى العصور الوسطى فاننا نلمح أن الفلاسفة المدرسين قاموا بتبرير المعتقدات التي أضفت عليها الكنيسة طابع القداسة وبالتالي فانهم أكدوا أولوية الايمان على التفكير وسمو الحقائق التي

(١) صادق سمعان . الفلسفة والتربية ، محاولة لتحديد مبدان فلسفة التربية ، دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٦٢ ص ١٥ .

تدور حول الدين على الحقائق العلمية ، ومن هنا أطلقوا ذلك المصطلح
ان « الفلسفة خادمة للدين » ♦♦

كما اننا أيضا نشاهد في العصور المسيحية التالية ، أن جزءا من
الفلسفة كان عبارة عن محاولات لوضع العلم في مكان محدد بحيث
لا يعطى على القيم الدينية ، وبالتالي لا يؤثر على وضع نفوذ رجال
الدين ♦

أما في القرن التاسع عشر ، فلقد وصل الاتجاه نحو التبرير الى
درجة كبيرة خصوصا على يد هيجل الذي برر باسم المثالية العقلية المذاهب
التي كادت أن تهددها بروز الروح العلمية وظهور الاتجاه الجديد نحو
الحكومة الشعبية^(٢) ♦

وفي أحضان الفلسفة الوجودية نرى أنها فلسفة ذاتية ميتافيزيقية
غير علمية وتأبى دائما من الاتجاه الاجتماعي ، وأكثر من ذلك فالقلق
والياس والفشل كل أولئك مظاهر الوجود في نظرهم ♦ والوجوديون
لا يعيرون اهتماما لمشكلات الحياة العلمية ، لأنها لا قيمة لها ، بالإضافة
الى أنها قد تصرف الانسان عن التفكير في الموت الذي هو في نظرهم
غاية تجذب الوجود كله تجاهها^(٣) ♦

ونظرة حول تلك الفلسفات ترىنا أن الاتجاه التقليدي للفلسفة
يهتم بالبحث عن طبيعة الحقيقة المطلقة النهائية ، والتأمل في طبيعة
الأشياء في ذاتها كما أننا نلاحظ أن التشكيك في قيمة الفلسفة نابع من
الفلاسفة أنفسهم هل يقتصرون فقط على مناقشة المسائل العقلية النظرية
أم يزاولون الاسهام في الجوانب العملية للمشكلات ♦

ومن عجيب الأمر أن نرى بعض الفلسفات مثل الوجودية تحمل بين
خطياتها مقومات فشلها وعجزها عن الانساق مع الحياة ، اذ كيف تفصل
تلك الفلسفة الانسان عن متطلبات الطبيعة الانسانية ، وكيف تتنكر لما
يصلح النفس البشرية ويضمن لها الحياة الكريمة ناهيك عن جعل تلك
الحياة وسيلة لحياة أخرى أرضية ♦

(٣) المرجع السابق ص ١٣

(٢) المرجع السابق ص ١٨

✽ نظرة الاسلام الى الفلسفة :

لما لم تخل الفلسفة من تركيزها على هدم نظريات علمية سابقة أو موازية لها ولما كان التشكيك يحتل جزءا كبيرا من منهج الفيلسوف ، ولما كانت القيم والعقائد يشوبها التشكيك عن طريق الفيلسوف المتحمس في غالب الأحيان لفلسفته الخاصة ، لذلك فقد يجد الشباب أنفسهم مضطرون الى اتباع فكر هذا الفيلسوف أو التفكير باستقلاليتهم في فلسفة أخرى خاصة تناسبهم • أقول : لما كان ذلك ، بات واضحا مدى أهمية التربية الاسلامية كطار نظرى وعملى صالح للفرد والمجتمع يمارس الفرد من خلاله ما يصلح شئون دينه ودنياه كما يرى المجتمع أنه بتبنيه نظرية التربية الاسلامية •• قد انصاع الى أعلى الفلسفات ، وأصدق المعتقدات •• وكيف لا !! وهى قد اشتقت من مصدرين كريمين : كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من تمسك بهما فقد هدى الى صراط مستقيم ومن تنحى عنهما ضل في متاهات الظلم والظلام « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » (٤) •

وقال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما ، لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى » •

ومن هنا نرى التوافق العجيب ، والتنسيق المبهر ، بين متطلبات الطبيعة الانسانية للفرد المسلم وسائر الحياة كلها بما ومن فيها • وكذلك نرى التوفيق بين مصالح المسلم في دنياه وفي أخراه فالاسلام اذ يرغب في عمل الصالحات من أجل الآخرة ، فإنه أيضا يفتح الباب في استثمار الحياة الدنيا استثمارا في الخير للإنسان وللجماعة ، ملاحظا أن يبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك » ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » (٥) •

وهكذا أقر الاسلام العمل فى الدنيا من أجل الآخرة ، كما يبدو جليا كيف أن الاسلام بنظامه التربوى غنى بأمور الفرد والمجتمع جميعا ،

يل وفتح باب الاجتهاد بالرأى ، فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ، وفيما لا يتعارض مع أصل العقيدة ، كما أننا نلمح أن الاسلام قد اختص قوما بالحكمة واختارهم الله سبحانه وتعالى من بين سائر خلقه « **يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** » (٦) . والحكمة هي « لباب كل خير ، بحيث ان الانحراف عنها ، أو التحريف فيها ، أو زخرفتها بشبهة من الرياء : خروج عن رحاب الجادة ، ودخول في مزالق الباطل » (٧) .

وبهذا المفهوم نجد انفراد الاسلام ، بالنظرة التكاملية للانسان ، بينما نرى كثيرا من الفلاسفة يقصرون نشاطهم على جوانب نظرية جدلية ، ويبتعدون عن ميادين الصراع في قضايا المجتمع . وبهذا يبدو أن البرج العاجي للفلسفة ، أو الانعزالية الفلسفية من دواعي التأكيد على عدم امكانية قيام الفلسفة أو وفائها بمتطلبات الكائن البشرى . في الوقت الذي نلمح فيه أن اختلاف الفلاسفة ، راجع الى اختلاف القيم والأهداف التي يؤمنون بها . « ويجب ألا نتوقع استبعاد هذا الخلاف في الفلسفة اللهم الا اذا اجتمع الفلاسفة على القيم والأهداف الاجتماعية وعلى أساليب وطرق النقد والتحليل الاجتماعي » (٨) .

وهذا مما يدعم بل يؤكد أن ثبات قيم الاسلام ومناهجه مع امكانية المرونة في اتخاذ الأساليب المعينة على التنفيذ مما يركى انفراد نظرية التربية الاسلامية عن سائر النظريات بالدوام والصلاحية ، لكل مجتمع في أي زمان أو مكان ، وأن تلك النظرية قد عالجت في الانسان الجانبين البدني والروحي .



* نظرة الاسلام الى العقل :

العقل بما أوتي من قدرة يستطيع أن ينسق المعلومات وينظمها ويضع العلاقة بينها ، كما يبحث عن الأسباب والمسببات حولها . والعقل في كل هذه العملية لا يصل الا الى نتائج ربما يرجع عنها مع التقدم

(٦) البقرة : ٢٦٩

(٧) ابن الخطيب . أوضح التفاسير ص ٥٧ (ب) .

(٨) صادق سمعان . مرجع سابق ص ٢٥

العلمى المستمر والعقل بهذا نظرا لاعتماده على الحواس التى كثيرا
ما تخدع ، لا يصل الى حقائق الأشياء ، بل يصل الى وصفها فقط ،
وما كان كذلك كان عاجزا عن وضع المنهج المتكامل للانسان .
واذا وصلنا الى هذه النقطة ، فاننا نشاهد أن هذا العقل منوط
بتلاثة أصناف من البشر : صنف متبادل الفكر ، متحجر الفهم يقف عند
حد النهم فهو انسان شره لا يلقى بالا الا للمطعم والمشرب وكفى .
وصنف آخر ربما يحظى بقدر من الذكاء غير أنه يستثمره فيما
يجر له نفعا ، ويجلب عليه عائدا ماديا ، ولا شك أن هذين الصنفين من
البشر لا خير فيهم ، ولا يملكون قدرة على افادة المجتمع ، فضلا عن
التقنيين ووضع الاطار الفكرى .

أما الصنف الثالث فهم العلماء ، ومهما تعددت تخصصاتهم .
وتفردت مذهبهم ، فاننا وبلا أدنى شك نضعهم فى المرتبة الأولى ،
وكيف لا ؟ وهم الصفة المختارة وأصحاب العقول المفكرة ونسأل :
هل فى مكنة هؤلاء العلماء والفلاسفة ، أن يقننوا للبشرية اطارا
ومنهجا دينيا يصلح لكل زمان ؟

والحقيقة التى تبقى هى أن قضايا الحب والاخاء والمساواة وتحقيق
القدر الكافى من الأمن للانسانية ، ما كانت لتقدر على تقنينه عقول
الفلاسفة أو العلماء أو المفكرين ، مهما أوتوا من علم ومهما وصلوا الى
حساب فى بعض القضايا العلمية ، ومن هنا فلا يوجد بين نظريات
الفلاسفة نظرية واحدة ، صلحت أن تكون دستوراً لمن عاصر هذا
الفيلسوف من الجماعة ، فضلا عما تلاه من عصور ، أو لحقه من أجيال ،
وربما بدا فى بعض العصور انبهار بعض المجتمعات وخصوصا فى قطاع
الشباب ، ببعض نظريات فلسفية لفيلسوف معين ، وقد تستمر تلك
النظرية تؤدى دورها فى قيادة المجتمع ، طالما أن هناك من يحاول
تلقينها للأفراد ، ولكن قد يحدث أنه بعد فترة زمنية محددة ينكشف
أمام المجتمع سلبيات تلك النظرية وعجزها عن تحقيق الأمن والعدل
والحب والاخاء والمساواة .

واذا ثبت بهذا أن العقل البشرى قد عجز فى المجال الدنيوى ،
وفى عالم المحسوسات ، فلا شك أنه يكون أشد عجزا فى مجال الجانب
الغيبى ، ولا شك أنه عاجز عن معرفة كنه ذاته ، وعن معرفة حقيقة
الروح التى هى قوام حركته كما هو عاجز عن إدراك ما وراء الموت

ومضير الانسان ، وبسائر القضايا الغيبية الأخرى من بعث وحساب وجنة ونار .. الخ .

وعلى هذا فلنا أن نقرر في اطمئنان كامل أن الدين الذي هو الركيزة الأساسية للتربية ليس من تصميم العقل ، وإنما هو من صنع الخالق المقادر ، من لدن حكيم عليم ، سميع بصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، يعلم السر وأخفى ..

ومن هنا فإن الدين يوقف الانسان على حقائق تعجز عنها القوانين الوضعية التي يخطئ من يعتقد أنها تأتي بسلوك سوى كامل متكامل ، أو أنها ترقى الى حقيقة الدين الذي هو من عند الله .

* * *

* التربية الاسلامية حقيقة :

وعلى هذا الأساس ، ومن هذا المنطلق ، فإنه لمن العبث كل العبث ومن الخطأ كل الخطأ أن نتأرجح بين فلسفات غربية أو شرقية ، لا هي اسلامية ولا هي قرآنية ، أقول : من العبث ، لأننا وقد ساهدنا عجز الانسان عن التقنين للبشرية بما يسعدها وما يرببها ، وما ينظم حياتها ، أخرى بنا أن ننظر في تراثنا ، نستمد منه مقومات حياتنا ، ونستعين به على فلسفة أمور مجتمعنا .

ومن هنا فلا نكون قد جانبنا الصواب اذا قررنا أن للاسلام نظرية تسمى التربية الاسلامية ، واذا كنا اليوم نبدو كما لو كنا نجافي هذه النظرية ، فهذا ليس راجعاً في حد ذاته الى عيب في النظرية التربوية الاسلامية — وحاشاها أن يصاحبها عيب أو يلزمها خلط — بقدر ما هو راجع الى عيب فينا نحن المسلمين ، وفي مدى استجابتنا لتلك النظرية ، ومن قدرتنا على التطبيق .

أبعد هذا يتطرق الشك — عند من يساورهم الشك — نحو تربية مصدرها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أيتطرق الشك نحو تربية استمدت وحى كل عناصر مقوماتها من السماء ؟

لا شك أن الخالق المبدع ، أقدر على وضع الأسس والمبادئ ، والقوانين التي تضمن للانسان سعادته .

وعلى هذا فإن الاسلام هو الدين العالمى الوحيد ، الذى انفراد الى السبق ، في تصميم اطار نظرى وعملى متكامل يصلح للتطبيق كما يستهدف الانسان كله ، روحه وجسده ظاهره وباطنه .

هذا في الوقت الذي نرى فيه أن التربية الوضعية ، قد تهتم بالجانب الحسي ، والذي يقوم على إهمال كل ما يعدو الحس ويفارق المحسوس ويؤمن إيماناً راسخاً بكل ما تراه العين وتحسه النفس ، فوضع من التربية وأساليبها ، كل ما ينظم الجوانب الحسية والحياتية من زراعة وصناعة وتعليم وتشبيد بصرف النظر عن أية جوانب أخرى تكون من متطلبات الطبيعة الانسانية والجماعات البشرية .

أما الاسلام فانه يربى الانسان كإنسان بصرف النظر عن البيئة التي ينتمي اليها ، وبصرف النظر عن الأسرة التي يستمد منها مقومات حياته ، وبهذا يكون الاسلام قد غص الطرف عن الأحساب والأنساب . والغنى والفقر ، ووضع مصلحة الانسان بالدرجة الأولى يربيه ، ويسعى في ذلك في مساواة كاملة وفي عدالة تامة .

ومما يدعم هذه الدلالة ، أننا نلمح في هذا القرن العشرين ، والذي ارتقت فيه الحياة المادية ، ووصلت إلى ذروتها من جراء الفكر المعاصر أن الانسانية لم تتعم بعد بثمرة هذا الرقى وذلك التقدم ، حيث أن التركيز كان بالدرجة الأولى ينحو للجانب المادي فقط ، مما ترتب عليه اختفاء القيم الأصلية والروابط الأسرية والاجتماعية وانتشار الأمراض النفسية .

كما أننا نلمح أيضاً الإحساس بالضياع بين القطاع الكبير من الشباب والفتيات على المستوى الدولي والعالمي . وكيف لا ؟

وتلك الاتجاهات المادية ، الماركسية منها والوجودية والبرجماتية لا تولي وجهها الا شطر التعامل مع الانسان كمادة . فلا تؤمن تلك المذاهب الا بها ، فالانسان في نظر الماركسية (ترس) في آلة كبيرة اسمها المجتمع .

كما لا يخفى ما للوجودية من أثر بغيض فهي التي أطلقت للانسان العنان باسم الحرية ، وتأكيد الذات ، ليتخبط في القلق وحيدا بلا وازع من ضمير أو خلق أو قوة عليا وتركته ليعتصره الصراع .

وان ننس أن ننسى البرجماتية ، التي تؤكد في غير ما حياء ولا خجل أن كل ما جر نفعا ماديا عاجلا أو آجلا فهو الحق ، وما عداه فهو الباطل . ولعل النتيجة القريية لتلك الاتجاهات ، ربما تنعكس في تحقيق هدف مادي دنيوى يتمثل في امتلاء المعدة بالطعام والشراب ، كما يتمثل في توفير السكن والملبس وسائر الكماليات .

غير أن الحقيقة تبقى مدوية ، ان هذه الاتجاهات تنتج حتما وبالضرورة نوعا من التخبط ، ونوعا من القلق والسقوط ، الذى أصبح من أهم سمات هذا العصر ، والذى كان نتيجة حتمية للتعامل مع الانسان كمادة .

والواقع أن الانسان مادة وروح ، وبينما الجزء المادى يشده الى الأرض فان الجزء الروحى يسمو به الى السماء .
أفبعد هذا يمكن للعقل البشرى أن يضع أطارا دينيا أو منهجيا يمكنه أن يحقق التوازن بين الجانبين ؟

الواقع وكما سبق أن ألمحنا أن العقل ، أثناء تعامله مع الكون يستمد المعلومات من المادة عن طريق الحواس ، السمع أو البصر أو الشم أو اللسان أو غيرها ، ولما كان لتلك المعلومات دلالة خاصة ، فان نقلها الى العقل عن طريق تلك الحواس يخضع لمؤثرات كثيرة ، تؤثر على صدق النقل مما يترتب عليه تزويد العقل بمعلومات يشوبها التسيؤنس ، ويسيطر عليها الخلط . واذا تركنا هذا جانبا لنرى أنظمة أخرى ، اتجهت تسطر الجانب الروحى الذى يقوم على العناية بالروح ، وترك كل شئ يتصل بالحس ، حينئذ ندرك ضرورة وأهمية التربية الاسلامية التى وضعت فى المقام الأول الانسان بكيانه كله ، جسمه وروحه وعقله ، واعتزفت أن الانسان مجموعة من هذه العوامل كلها ، وأنه كيان واحد مترابط الأجزاء .

وعلى هذا الأساس فان التربية الاسلامية حقيقة لا تحتاج الى دفاع وحق لا يقبل الجدل ، غير أننا أردنا فى هذا الجزء أن نطرح بعض الخيوط حول تلك النظرية لتكون بمثابة قاعدة قوية ننطلق من خلالها نحو اعطاء نموذج وحيد تطبيقى يكون بمثابة ضرب المثل ، لنماذج عملية أخرى فى المنهج الإسلامى ، نماذج تضمنت التشريعات الخاصة ببناء الأسرة ، سواء فيما يتعلق بالعلاقة الزوجية ، أو ما يتعلق بتربية الأبناء والبنات . كذلك تناولت تلك النماذج العلاقات الانسانية ، فيما يتصل بسياسات الدول ، والعلاقات على مستوى الأفراد والأسر والمجتمعات . وفى ظل نماذج التربية الاسلامية نلمح درجات عالية من سمو الجانب الأخلاقى سواء على مستوى الفرد ، أو على مستوى التعامل مع الجماعة ، حتى فى مجال المعاملات أعطى الاسلام نماذج عديدة لصيانة أفراد المجتمع من الفقر والتخلف وكانت فريضة الزكاة من أركان الاسلام التى ضمنت حفظ الحياة لقطاع كبير من أبناء الأمة من الفقراء

« والذين في أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم » (٩) ومنهج التربية الإسلامية بذلك الأسلوب يبنى المجتمع المسلم القائم على احترام العلاقات بين الأفراد ، « والمجتمع الإسلامي هو مجتمع إنساني : يدعو الى الروابط الانسانية بين الأفراد في الدرجة الأولى •• كما يدعو الى تبادل المصالح المادية ، ولكن في محيط العلاقات الانسانية » (١٠) •

وسوف نستعرض بالتحليل لموقف نموذجي من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم : كان فيه معلما ومربيا •

هذا الموقف هو : « مسرح الأحداث في حديث الافك » •

وتكمن مبررات اختيارنا لهذا النموذج في :

(ا) التعليم بالقدوة والذي يتركز في الجانب الأخلاقي للرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الأحداث « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (١١) •

(ب) السلوك الواجب اتباعه في مواجهة الشائعات المغرضة والأكاذيب المدعاة •

(ج) العلاقات الوالدية ، وكيف تستثمر لصالح الدين والدنيا •

(د) العلاقات الزوجية ، وكيف يمكن أن نؤمن صيانتها ونحافظ عليها بالرغم مما قد يبدو في الأفق من ضباب أو غيوم حول أحد الزوجين •

(هـ) التريث في اتخاذ القرارات خصوصا اذا كانت تتعلق بمصير انفراد الانسان •

✱ بين يدي حديث الافك :

بداية نهى الاسلام عن الغيبة ، وطلب من المسلم والمسلمة التحري في القول ، وعدم تصديقه الا بعد التأكد من صحته وحتى عند التأكد من صحته نهى الاسلام عن ترويجه أو التشهير به وعدم الخوض فيه ، جلبا للمصالح ودرءا للمفاسد ، وتجنبنا لأمر قد نتطور الى ارتكاب مخاطر كبيرة •

(٩) المعارج : ٢٤ ، ٢٥

(١٠) « منهج القرآن في تطوير المجمع » مكتبة وهبة ١٩٧٩ ط ٢

(١١) الأحزاب : ٢١

ولا شك أن هذا جانب رئيسي. في أخلاقيات الاسلام، يرتبط ارتباطا جوهريا بروح التربية الاسلامية التي تهدف الى بناء الانسان المسلم. والقرآن الكريم فيما يتعلق بحديث الافك، قد ذكر في عشر آيات منتاليات من سورة النور وقائع هذا الدرس التربوي، وما كان من خوض بعض المسلمين جريا وراء من روج للشائعات — في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها *

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة النور :

« ان الذين جاءوا بالافك عصابة منكهم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . ولولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم » (١٢) *

وفي هذا المقام يذكر الامام ابن كثير : « هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الافك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت ، والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله براءتها صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « ان الذين جاءوا بالافك عصابة منكهم » أي جماعة منكهم ، يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة — عبد الله بن سلول — رأس المنافقين ، فانه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين ،

فشكلوا به ، وجوزّه آخرون منهم وبقي ذلك الأمر قريبا من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة» (١٢) .

ولا شك أن هذه الواقعة فيها نهى ولفت للانتظار أن يتحرى المسلم الصدق في كل ما يقول أو يفعل .

والإسلام في هذا يهدف الى بناء العلاقات الانسانية على أسس تربوية سليمة ولا شك أن ما نشاهده في عالم اليوم ، من هدر للكرامة ، وتحقير للفرد الانسان ، كان نتيجة حتمية للتطرف الأخلاقي وعدم الالتزام بالسلوك السوي .

والقرآن الكريم ، في أكثر من موضع يشير الى أن الفتنة أكبر وأشد من القتل «والفتنة أكبر من القتل» (١٤) .

يفسر المفسرون الفتنة في الآية بأنها الكفر والشرك . والكفر يكون باللسان كما يكون بالأفعال المخالفة لشرع الله .

وحينما نعيش أحداث هذه الواقعة فاننا نجد أنفسنا أمام درس تربوي .

— المعلم فيه هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأسلوبه مع زوجته عائشة وأسلوبه مع أصحابه ، ثم منهجه الذي اتبعه في علاج أخطر ما يمكن أن يصاب به المرء في أهله ، وأيضا حسن الصنيع مع أبي بكر وهو مع ما له من منزلة وقدم صدق في الاسلام .

— والمتعلم من هذه الواقعة ، هم المسلمون والمسلمات جميعا في شخص من عايش هذه الواقعة من الصحابة وخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيضا أم المؤمنين عائشة وكيف واجهت في صبر وقوة تحمل هذا الأمر الجلل ، وكيف صمدت أمام هذا البهتان صمود الصادقات الصابرات الخاشعات القانتات .

— والمنهج المستخدم في هذا الدرس التربوي هو الاستقرائي التحليلي ، حيث لم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمور تسير جريا وراء الهوى ولكن في ثبات الصادقين وفي عزم النبيين جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلومات من أصحابه وخدامه ، حتى أنزل الله عليه قرآنا يتلى فكان مسك الختام ، لأعظم اختبار للنبي .

(١٣) محمد علي الصابوني « مختصر تفسير ابن كثير » المجلد الثاني

(١٤) البقرة: ٢١٧

صلى الله عليه وسلم في أهله وصدق الله العظيم حيث يقول : « الله أعلم
حيث يجعل رسالته » (١٥) .

وقد كانت أم المؤمنين عائشة ضمن من خرج في غزوة غزاها النبي
صلى الله عليه وسلم بعد أن خرج سهمها في قرعه أجراها رسول الله
صلى الله عليه وسلم بين أهله فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم
من غزوته ، خرجت عائشة رضى الله عنها من خبائها تفتش عن عقدها
الذى انقطع من صدرها ، ولما عادت إلى مكانها وجدتهم قد رحلوا
ظانين أنها في هودجها ، ومن ثم مكثت في مكانها فنامت .

تقول عائشة : وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد
عرس (١٦) من وراء الجيتس ، فأدلىج (١٧) فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد
انسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رأيته ، وقد كان رأي قبل الحجاب ،
فاستيقظت باسترجاعه (١٨) حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ، والله
ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ،
فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش
بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني (١٩) وكان
الذى تولى كبره « عبد الله بن أبي سلول » (٢٠) .

وهذا الدرس التربوي في بيت النبوة ، في حد ذاته يحمل بين
طياته عوامل تربية أم المؤمنين مما لصق بها ، اذ كيف يتصور عاقل ،
أن يرتكب مسلم ومسلمة الفاحشة ثم يستعرضان راكبين أو راجلين ،
أو أحدهما راكباً والآخر مرتجلاً أمام الناس ، وكأن لسان حالهما يطلبان
كتف ما انستر وظهور ما أبهم ، وبالرغم من ذلك فلقد انغمس البعض
في الحديث وتورطوا فيما نهى عنه الاسلام .

والواقع أننا نوجز الحديث في هذا الأمر لأن امثال هذه المواقف
الحكم الفصل فيها هو رب العالمين ، ولذلك فالتبرئة تتم في هذا
النموذج العملي من قبل رب العباد ، السميع ، اللطيف ، الخبير الذى
يعلم السر وأخفى .

(١٥) الانعام : ١٢٤

(١٦) عرس من التعريس وهو الاقامة ليلا .

(١٧) فأدلىج : سار ليلاً .

(١٨) باسترجاعه : ردد دعاء في مقام الاستغراب مما رآه .

(١٩) فهلك من هلك في شأني : قالوا ما به استحقوا الهلاك .

(٢٠) مخنصر ابن كثير ، مرجع سابق ص ٥٨٧

ومن عجيب الأمر أن عائشة رضى الله عنها ، تمكث شهرا لا تجدى عن حديث الأفك شيئا ، غير أنها تلمح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقدم لها اللطف الذى كانت تراه منه خصوصا عندما يعتل بدنها أو تشتكى ، وهذا هو الذى كان يريها •

وإذا كان الإسلام يدعو الى التأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم والذى كان خلقه القرآن ، فان لنا في صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، لأعظم درس تربوى من خير رسول •

للمعلم الأول : محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يشأ أن يفجأ أو يفاجئ زوجته عائشة بالواقعة رغم علمه بما يتساقطه البعض في سأنها . ولكنه يضبط نفسه انتظارا لما تسفر عنه الاستقراءات والتحليلات وهذا يتم بنمط تربوى سليم •

وعندما علمت عائشة بحديث الأفك ، ما كان الا أن استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذهب لأبويها •

تقول عائشة : « فقلت له : أتأذن لى أن أتى أبوى ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أثيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمتاه •• ماذا يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بنية •• هونى عليك غوا الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها •• قالت فقلت : سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى » (٢١) •

✽ المنهج الاستقرائى فى المعالجة :

رأينا كيف تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صبر ورباطة جأش لمدة شهر أو يزيد ما كان من حديث الأفك ، لم يغير فى سلوكه مع زوجته ، ولم يفعل ولم يصبه ما يمكن أن يصيب غيره فى مثل هذا الموقف ، وخصوصا اذا كان فى موقف القائد ، كما أنه لم يلق باللوم على أحد بعينه ولكنه استخدم منهج الاستقراء وهو تتبع الواقعة وأبعادها كما رويت عن أصحابه صلوات الله وتسليماته عليه •

(٢١) مختصر ابن كثير ، المرجع السابق ص ٥٨٨

تقول عائشة : « فعدا رسول الله صلى الله عليه وسلم » على ابن أبي طالب « و (أسامة بن زيد) حين استلبث الوحي ، يسألها ويستشيرهما في فراق أهله قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال أسامة : يا رسول الله .. أهلك ولا نعلم الا خيرا ، وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله .. لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وان تسأل الجارية تصدقك الخبر ، قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : « أي بريرة .. هل رأيت من شيء يريك من عائشة » ؟ فقالت له بريرة : والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأثي الداجن فتأكله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول ، فقالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين .. من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ، وما كان يدخل على أهلي الا معي » ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذك منه يا رسول الله ، ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، قالت : فقام سعد بن عباد وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتلمته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباد : كذبت لعمر الله لنقتله ، فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتناور الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢٢) .

كل هذا والمعاناة تشتد بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وتبكي بكاء يفلق الأكياد وتستأذن عليها وهي على تلك الحال امرأة من الأنصار فتأذن لها عائشة فتبكي المرأة لبكاء عائشة رضي الله عنها ، وبينما هي كذلك دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت :

ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل وقد لبث تبهرا لا يوحى اليه في شأنى
 نىء *

قالت : ففتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثم
 قال : « أما بتعد ، يا عائشة •• فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فان كنت
 بريئة فسيرئك الله وان كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ،
 فان العبد اذا اعترف بذنبه وثاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص ذمعى حتى ما أحس منه
 قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمنى :
 أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : والله ما أدري ما أقول
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن
 لا أقرأ كثيرا من القرآن : والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث
 حتى استقرر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلو أنى بريرة والله
 يعلم أنى بريرة ، لا تصدقوننى ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه
 بريرة لتصدقنى ، هو الله ما أجد لى ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف :
 « فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » (٢٣) قالت : ثم تحولت
 فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريرة وأن
 الله تعالى مبرئى (٢٤) ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى
 وحى يئلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يئلى ،
 ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا
 يبرئنى الله بها • قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم
 مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه
 فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (٢٥) عند الوحى حتى انه لينحدر منه
 مثل الجمان (٢٦) من العرق وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل

(٢٣) يوسف : ١٨

(٢٤) مبرئى ، تعنى أن الله سوف يبرئها وعائشة بهذا ترددات تقتتها
 ربها ، غير أنها رغم تعجلها فى طلب البراءة فانها لم تكن لتتوقع أن ينزل
 فى شأنها قرآن يئلى ، فمبرئى هنا توقع عائشة أن يبرئها الله •

(٢٥) البرحاء : الشدة •

(٢٦) الجمان : الفضة ، أى أن العرق تصبب منه فى لون الفضة

أو الدر •

عليه قالت : فُسرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشرى يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك » (٢٧) .

وهكذا يسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج الاستقراء فيتبع الخبر من الجارية ثم يتبع الوسيلة المناسبة للعقاب من الصحابة ، ولا يهمل صاحبة الشأن . * فيطيب خاطرها بل ويفتح لها مجال التوبة ، وأيضا موقف عائشة من صبرها وتحملها وعدم تبرمها حينما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته الأولى وموقفها حينما حاولت أن تستنطق أبويها لعلهما يردان عنها غائلة الافك ، وفي تواضع الصفوة المختارة من المسلمين الصادقين وأصحاب قدم الصدق في الاسلام يجيبان بما ينذر أن نجده من أبوين في مثل ظروفهما : والله ما نجد ما نقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . *

ولذا فلقد بدا واضحا أن المعلم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد الحق فيسلك المنهج التتبعي من أجله وأن عائشة تصمد في أدب وتواضع الزوجة الصالحة الرشيدة المؤمنة المستوثقة . * فلم تصرخ ولم تنهيج وإنما تواضعت تواضع التلميذ من أستاذه . * وأبو بكر وزوجه حريصان أن يراقبا الدرس العملي في إيمان الصادقين المستوثقين في الله وفي رسوله والحريصين على محبة معلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . *

والجميع ينشد الحق ، والحق الذي لا مرأ فيه ولا جدال حوله . * والجميع يترقب وعلى الله قصد السبيل طالما صدقت النية وخلصت لله رب العالمين واستكمالا لهذا الدرس العملي فاننا نلمح أن الطبيعة الانسانية بما ركب فيها من دوافع نفسية ونوازع فيها جانب شيطاني قد يكون أحيانا كامنا في النفس البشرية غير أنه يبدو على السطح في الوقت المناسب أقول : نلمح أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه يعثره نوع من روح الانتقام الأدبي والمادى ممن تسبب في الترويع لحديث الافك وهو مسطح بن أثانة بعد أن نزل قرآن يتلى يبرىء عائشة رضي الله عنها مما التصق بها . *

تقول عائشة رضي الله عنها : « فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرابته منه وفقره :

والله لا أنفق عليه شيئاً بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى :
 « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين
 والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله
 لكم ، والله غفور رحيم » (٢٨) .

فقال أبو بكر : بلى والله انى لأحب أن يغفر الله لى . فرجع الى
 مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً » (٢٩) .

ونلمح فى هذا السلوك القدوة الصالحة المتمثلة فى مسلك أبى بكر
 الصديق رضى الله عنه تجاه مسطح بن أثاثة كما نلمح العفو والمسامحة
 وعدم اللجوء الى الانتقام من الظالم خصوصا اذا كان الانسان فى موقف
 أقوى يتيسر فيه منهجية العفو « الذين ينفقون فى السراء والضراء
 والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (٣٠) .

بهذا العرض لنموذج عملى فى مجال التربية الاسلامية الرتييده
 يمكننا أن نستنتج السمات السلوكية الصحيحة التى يجب أن يتخلق
 بها الانسان المسلم :

- ١ — الالتزام بالصدق فى القول والوفاء بالعمل .
- ٢ — الحذر والحيطه فى تقبل المعلومات .
- ٣ — البعد عن مظان الشبهات .
- ٤ — عدم السرعة فى اصدار الأحكام .
- ٥ — استخدام منهج الاستقراء فى علاج المشكلات .
- ٦ — التلقى الى أبعد مدى فى سبيل الوصول الى الصواب .
- ٧ — التسليح بالصبر فى الأمور المعضلة .
- ٨ — استبطان الأمور بالشكل العلمى السليم .

* * *

(٢٨) النور : ٢٢

(٢٩) مختصر ابن كثير ، مرجع سابق ص ٥٨٩

(٣٠) آل عمران : ١٣٤ .

الفصل الثاني

قِيمُ تَرْبَوِيَّةٍ فِي الْقَصَصِ الْقُرْآنِي

تجليل لمواقف من قصة يوسف عليه السلام

✽ مقدمة حول موضوع البحث وأهميته :

الحاجة ماسة في الآونة الأخيرة الى النظر في القرآن الكريم ، بمنظور تربوي ، نتحرى فيه عمق التأثير ، وننهج فيه استنباط القيم التربوية من نصوص قرآنية ، بما يبرز حاجة البشر الى تلك القيم متفقتة مع حاجات البشر ، ومتناسقة مع أهدافهم الحياتية .

ولعل من مبررات هذا الاتجاه لهذا النوع من الأبحاث ، ما استشرى في العصر الحاضر ، من بعض كتابات وبحوث عن التربية الإسلامية ، من منطلق تاريخي عن التعليم الإسلامي ، الذي يتعرض للمدرسة في الاسلام ، وتاريخ الكتاب ، ومعلم الكتاب . الخ ، دون التعمق في الفكر التربوي من منظور الكتاب والسنة ، اللهم فيما عدا النزر اليسير الذي يأتي باستشهاد إجمالي ، دون التعمق والفحص واستخراج ما بداخل تلك النصوص من فكر تربوي إسلامي .

ومع أهمية هذه الكتابات بهذا الشكل ، ومع تأثيرها كفكر وتراث تاريخي لا غنى عنه ، الا أن التركيز على هذا اللون فقط من الكتابة مما يبرز قضايا تربوية على النحو التالي :

- (أ) عدم وضوح فكر تربوي من منظور إسلامي متكامل .
- (ب) يبدو الفكر التربوي الغربي وقد احتل مكانا في بعض النفوس ، مما قد يوحي بأنه هو الجدير بالبحث ، لأنه يتمشى مع متطلبات العصر ، وتقدم الأمم والشعوب .
- (ج) قلة اهتمام بعض مفكري التربية باستنباط بعض القيم الكامنة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

(د) توفير المجال الخصب والأرض الرجبة ، أمام الغزو الفكري ، حتى يتمكن من بث ونشر اتجاهاته وآرائه ، معتمداً في هذا على التشكيك في قدرة التربية الإسلامية على مواكبة الحياة المعاصرة من جهة ، ومن جهة أخرى على جذب الشباب إلى الفكر التربوي المشوه ، والذي امتزج فيه السم بالعسل ، من أجل تحويل المجتمعات الإسلامية عن النظر في قرآنها ، أو التشكيك في قدرة هذا الكتاب على التناسق مع العصر والتوافق مع متطلباته وأهدافه .

هذا ولا أدعى أن بحثاً كهذا ، سوف يزيل هذه السحب القائمة . ويمحو هذا الضباب من وجه الفكر التربوي الإسلامي ، لأن هذا المجال أعنى التربية الإسلامية من القرآن الكريم ، ليس بالأمر الهين ، أو اليسير ، لأنه يحتاج إلى دقة ، وإلى روية ، وبعد نظر . وعلى كل حال فهي يدايه ، نرجو الله لها التوفيق ، في مسارها الرحب الطويل .

ونحن يحدونا الأمل ويستلهمنا الرجاء ، أن نقتطف ذرات من قطرات من قيم تربوية ، يحتويها الكتاب المبين ، ويضمها القرآن الكريم .

وكم وقفنا متأملين وناظرين ، بل ومنتظرين ، لعل القدر يقذف إلينا بعضاً مما نرجوه حول كتابة من هذا النوع قد تتسع النهم ، وتشفى الغليل وتريح الضمير .

وهذا يلقي علينا تبعة الاعتراف بالفضل ، لاجتهاد المجتهدين في هذا الميدان — جزاهم الله عن الإسلام خيراً — هذا الاجتهاد الذي جاء — من وجهة نظرنا — من منظور إسلامي بحث أحيانا أو من منظور تربوي أحيانا أخرى ، بينما بدا فيه المزج مبعثراً ، بعيداً عن الدقة والترابط مع أهداف الجماعة وقيمها التربوية ، كما بدت حاجة الكائن البشري ، والمجتمع الانساني غير واضحة في تلك الكتابات .

وعسافاً نجد — ان شاء الله — من يسهمون في احياء هذا الفكر التربوي ويضيفون إلى هذا الميدان شيئاً يعتز به الإسلام والمسلمون ويكون قذاث في وجه أعداء الإسلام من تربويين وغيرهم « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (١) .

* * *

(١) الصف: ٨٠

✽ التعرف العام بالسورة :

تجول هذه السورة بنا في عالم الانسان ، وتهتم وتركز على الحياة الانسانية بحوادثها ودقائقها ، بكل ما فيها من عواطف وأفكار وعقائد ومشاعر ، وبهذا لا تتعرض السورة لعالم الكون الخارجى (٢) .

ان الله تعالى يقص فيها حياة الانسان أحسن القصص انها قطعه من الحياة بعروقتها النابضة ومشاعرها المتأججة ونوازع الخير والشر فيها . اننا نرى فيها أنفسنا ، ولكن نرى مع ذلك يد القدر ونحس أثرها فينا وفي أعمالنا ، اننا نراها تخط في الحوادث مصيرنا وتبلغ بنا الغايات المقدرة منفضة لمقضاء الله منسجمة مع غايات قدره التى هى الخير المحض ، فتجتمع بذلك بين الطاعة والارادة والعمل والتفائل بالمستقبل . ذلك هو السبب الذى يجعل لسورة يوسف هوى في نفوسنا (٣) .

من هذا المنطلق كانت سورة يوسف درسا في التربية ، كل التربية بما فيها من اتجاهات نظرية وأفكار فلسفية ، بل ومواقف عملية يمكن لو أحسن استثمارها أن تكون مثالا يحتذى ونموذجا يقتفى .

هذا وبالرغم من أن جو الفترة التى نزلت فيها السورة ، كان حرجا وموحشا ، ويوحى بالشدّة والحزن ، وبالرغم كذلك من أن بها مواقف . تبدو لأول وهلة أنها محزنة ، أقول : بالرغم من ذلك كله ، فقد انتهت بالفرج والتيسير ، وكأننا بهذه السورة ، وقد جاءت لتعيد الأمل ولتحبى صيحة الحق ، واليقين ، التى استمرت عالية حتى كتب الله النصر لهذا الدين ، غارتفعت رايته خفاقة على ربوع الدنيا كلها (٤) .

وكاننا في سورة يوسف عليه السلام ، نترسم خطى نماذج تربوية ، كقدوة تحتذى ، ومثل يمكن أن نترسم خطاه ونسير على نهجه .

ومن هنا جاء اختيارنا لتلك القصة ، كنموذج في غاية الدقة ، وتطبيق منهج الاسلام في غير ما تباه أو غطرسه .



(٢) محمد المبارك ، دراسة أدبية لنصوص القرآن . دار الفكر ط ٤

١٩٧٣ ، ص ٨٠

(٣) المرجع السابق .

(٤) سيد قطب . في ظلال القرآن . المجلد الرابع . الجزء الثانى عشر

مطبعة دار الشروق . ط ١ ، ١٤٠١ / ١٩٨١ ، ص ١٩٤٩

✳ بين السمات الفنية للقصة عموما والسمات الفنية للقصص القرآنى :

قبل الحديث عن بعض خصائص الأسلوب القصصى فى القرآن ،
يجدر بنا أن نعرف مفهوم القصة عموما ، ثم أقسامها من ناحية القالب
والمظهر والشكل •

والقصة — أى قصة — هى طريقة تعبر عن الحياة أو بعض منها ،
وذلك بتناول واقعة واحدة أو عدد من الوقائع ، يكون بينها ترابط ،
على أن يكون للقصة بداية ونهاية •

أما أقسامها فأربعة :

(أ) الأقصوة :

وتتضمن علجا لأانب معين من حياة ، بحيث تقتصر على سرد
حادثة ، أو مجموعة من حوادث ، تشكل موضوعا منفردا بأفراد
ومقوماته ، بيد أنه يجب أن يكون الموضوع — مع قصره — كامل النضج
من حيث التحليل والعلاج • وهذا يتطلب مهارة معينة عند الكاتب ،
لأن المجال محدد وضيق ويحتاج الى براعة تامة •

(ب) القصة :

وفىها يعالج الكاتب مجموعة من المواقف والحوادث ، تكون أرحب
مما يعالج فى الأولى ، والقصة وسط بين الأقصوة والرواية ، وعليه
فلا مندوحة أن يطول زمن القصة وتمتد حوادثها •

(ج) الرواية :

وفىه يتاح للمؤلف أن يعالج موضوعا كاملا أو أكثر ، على أن يكون
مملوءا بحياة تامة ، بحيث يفرغ القارئ من الرواية ، وقد أحاط علما
بحياة أبطالها أو أبطالها فى مراحلها المختلفة •

(د) الحكاية :

عبارة عن سرد لواقعة أو عدد من الوقائع الحقيقية أو الخيالية
لا يلتزم فيها الحاكي بممارسة قواعد الفن الدقيقة ، ويمكنه أن يرسل
الكلام بما ينسجم مع طبعه •
ويفترض العلماء ثلاثة عناصر أساسية فى القصة الفنية بمعناها
المطلق : الموضوع — الشخصيات — الحوار •

ويجتمون تتوفر شروط معينة لكل من تلك العناصر ، ويبرزون جوانب
الحل التي تحيل القصة الى نموط غير غنى .

ومن أهم تلك الأسس :

- (أ) أن تتوفر للقصة وحدة فنية .
- (ب) أن تتوفر في عرضها أسلوب التلميح ما أمكن .
- (ج) أن يبرز الكاتب شخصيات القصة بعناية تامة .
- (د) وضوح الهدف والغرض من القصة .
- (هـ) ألا تتضح الحكمة والموعظة بها بشكل مباشر وظاهر .
- (و) ألا تخلو من عناصر التشويق .
- (ز) أن يكون أسلوبها وسطا ، لا هو بالسهولة ، ولا بالبالغ الصعوبة (٥) .

أما القصة في القرآن الكريم فانها « ليست عملا غنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه . كما هو الشأن في القصة الفنية الجرة التي ترمى الى عرض غنى طليق ، انما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة الى أغراضه الدينية ، والقرآن كتاب دعوة دينية . قبل كل شيء ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها . وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها ، وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية ، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها ، ولا سيما خصائص القرآن الكبرى في التعبير وهي التصوير » (٦) . هذا ومع الأخذ في الاعتبار أن خصائص القرآن الكبرى لا تنحصر فقط في التصوير ، بل هنالك السطح والعمق والصدور والتنويع الابداعي . الى غير ذلك .

والقصص القرآني يرتبط أحيانا بالأنبياء ، فيتناول دعوتهم الى قومهم ، وتأبيدهم بالمعجزات من الله سبحانه وتعالى . وذلك كما جاء في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى ومحمد وغيرهم من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تكون القصة عابرة تتعلق بحوادث وأشخاص ، لم تثبت نبوتهم كما جاء عن الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

(٥) عبد الله شحاته . علوم القرآن والتفسير . دار الاعتصام . القاهرة ١٩٨٠ ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٦) المرجع السابق ص ١٩٧ .

وطالوت وجالوت وابنى آدم وأهل الكهف وأصحاب الأخدود ... الخ *
وقد تكون القصة متعلقة بحوادث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
كغزوة بدر وأحد وحنين وتبوك ... الخ *

ولكن مع هذا التنوع في أشخاص القصة في القرآن الكريم الا أن
جميعها متفق حول تحقيق الأغراض الدينية البحتة ، ومنها توحيد
الدين المنزل من عند الله وإثبات وحدانية الله رب العالمين ، وإثبات
الوحي والرسالة ، وكذلك إثبات عواقب الصبر والجزع والشكر
والبطر ... الخ (٧) *

ويأتى مظاهر التنسيق الفني في القصة القرآنية من حيث كونها
لا تخضع للقواعد الفنية للقصص الحديثة ، وقد تتوافق معها في بعض
الأحيان » وقد تنفرد بإبداعها الفني في بعض الأحيان لكنها مع الاتفاق
والاختلاف تبقى دائما قصة قرآنية لها سماتها ولها خصائصها ومميزاتها
الخاصة دون أن تكون عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه
وإدارة حوادثه ، ويبقى هدفها الأول والأخير هو هدف القرآن ذاته « (٨)
قال تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا
القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » (٩) *

* السمات الفنية في قصة يوسف عليه السلام :

لقد امتزجت في هذه القصة — التي نحن بصددتها — التوجيهات
الدينية والتربوية ، ، وظهر ذلك في سياق القصة وقبلها وبعدها ، وقد
بدئت السورة بقوله تعالى : « الر ، تلك آيات الكتاب المبين » (١٠)
ومعناه عند الطبري : « وهذه آيات الكتاب المبين ، لن تله وتدبر
ما فيه ، من حلاله وجرامه ونهيه ، وسائر ما حواه من صنوف معانيه ،
لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه مبين ، ولم يخص أبانته عن بعض ما فيه
دون جميعه ، فذلك على جميعه ، إذ كان جميعه مبينا عما فيه » *

« أنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (١١) يقول تعالى ذكره :

(٧) المرجع السابق ص ١٩٧ ، ١٩٨

(٨) المرجع السابق ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

(٩) يوسف : ٣

(١٠) يوسف : ١

(١١) يوسف : ٢

انا أنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ، ليعقلوه ، ويفقهوا منه ، وذلك قوله عز وجل : « **لعلكم تعقلون** » (١٢) .

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (١٣) .

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « نحن نقص عليك يا محمد أحسن القصص ، بوحينا إليك هذا القرآن فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية وأنباء الأمم السابقة والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية ، وان كنت من قبله لمن الغافلين عن ذلك ، لا تعلمها ، ولا نسيئاً منه » (١٤) .

وعلى هذا يكون القول ان بداية سورة يوسف جاءت كرد على المشركين ، الذين ادعوا أن القرآن كان يعلمه أعجمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أن في قوله تعالى : « **وان كنت من قبله لمن الغافلين** » (١٥) إشارة الى أن القرآن وحى من عند الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته (١٦) .

واذا كانت تلك بداية القصة. اتضح فيها التوجيه نحو تثبيت الدعوة الاسلامية وأن القرآن كلام الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فاننا نجد تعقيباً دينياً تربوياً في نهاية القصة ، لا يقل أهمية عن بدايتها لأن هذا التعقيب يناسب الغرض الرئيسى من عرض القصة ، والعبرة الأساسية من ذكرها في القرآن الكريم والايحاء بها الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، كما جاء التعقيب مؤكداً لما جاء في مفتتح السورة بقول الله تعالى : « **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** » (١٧) .

يقول تعالى ذكره : « **لقد كان في قصص يوسف واخته عبرة**

(١٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن . الجزء الثانى عشر ، ط ٢ ، ١٣٧٣ / ١٩٥٤ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ، ص ١٤٩

(١٤) المرجع السابق ص ١٥٠

(١٣) يوسف : ٣

(١٥) يوسف : ٣

(١٦) سبب قطب . في ظلال القرآن ، مرجع سابق ص ١٩٤٩

(١٧) يوسف : ١١١

لأهل الحجا والعقول فيعتبرون بها ، وموعظه يتعظون بها ، وذلك لأن الله جل ثناؤه بعد أن ألقى يوسف في الجب ليهلك ، ثم بيع ببيع العبيد . بالخسيس من الثمن ، وبعد الأسار والحبس الطويل — ملكه مصر ، ومكن له في الأرض ، وأعلاه على من بغاه سوءا من أخوته ، وجمع بينه وبين والديه وأخوته بقدرته ، بعد المدة الطويلة ، وجاء بهم إليه من الشقة النائية البعيدة ، فقال جل ثناؤه للمشركين من قريش ، من قوم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لقد كان لكم أيها القوم في قصصهم عبرة لو اعتبرتم به ، أن الذي فعل ذلك بيوسف وأخوته لا يتعذر عليه أن يفعل مثله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ويمكن له في البلاد ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب ، وأن مرت به شدائد ، وأنت دونه الأيام والمليالي والدهور والأزمان » (١٨) .

« ما كان حديثا يفترى » (١٩) يقول تعالى ذكره : ما كان هذا القول حديثا يخالق ويتكذب ويتخرس • • « ولكن تصديق الذي بين يديه » (٢٠) يقول : ولكن تصديق الذي بين يديه ، من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه ، كالطوراة والانجيل والزيبور ، ويصدق ذلك كله ، ويشهد له ، أن جميعه حق من عند الله (٢١) .

« وتفصيل كل شيء » (٢٢) يقول تعالى ذكره : وهو أيضا تفصيل كل ما للعباد إليه حاجة من بيان أمر الله ونهيه ، وحلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وقوله : « وهدي رحمة لقوم يؤمنون » (٢٣) يقول تعالى ذكره : وهو بيان أمره ورشاده من جهل سبيل الحق ، فعمى عنه ، إذا تبعه فاهتدى به من ضلالتة ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه ، ينقذه من سخط الله ، وأليم عذابه ، ويورثه في الآخرة جناته ، والخلود في النعيم المقيم • « لقوم يؤمنون » يقول : لقوم يصدقون بالقرآن وبما فيه من وعد الله ووعيده وأمره ونهيه فيعملون بما فيه من أمره وينتفون عما فيه من نهيه (٢٤) • وبهذا تحتل قضية الإيمان بالله وحده والاقتران له بالعبودية مفتتح السورة وختامها بنمط يعز على الوصف ويربو عن الخيال •

(١٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ج ١٣ مرجع سابق ص ٩٠

(٢٠) المرجع السابق ص ٩٠

(١٩) يوسف : ١١١

(٢١) المرجع السابق ص ٩١

هذا ولقد كانت هذه القصة رائعة خصبة غنية تمثل الحياة بما فيها من وقائع وحوادث متسلسلة مترابطة ومؤامرات ومصادفات ومفاجآت وعواطف ودوافع وآراء بشرية وأقدار الهية وهى أطول قصة فى كتاب الله تضمنت مشاهد كثيرة متواليه^(١١) *

كما أن هذه القصة قد استملت على الكثير من صور الحياة الواقعية بما فيها من دوافع الخير ونوازع الشر . ومن عاطفة الحنين والشفقة أحيانا والكيد والتنازع أحيانا أخرى *

كما أنها استملت على الضمير الرادع والشهوة الجامحة والإيمان القوى بالله والثقة به والتفاؤل العميق *

وبالجملة فلقد جمعت القصة صورا من الصراع بين الغريزة والواجب الخلقى والهوى والإيمان^(٢٣) . واتسمت بأنها تحول الأنظار من السماء الى الأرض فتأخذ الإنسان ليعيش الحياة وليشاهد الطبيعة الانسانية بكل مقوماتها واتجاهاتها ، سواء فيما يتعلق بالحب أو الكره ، البغض والحسد ، المكر والخديعة ، فهى آية فى الكشف عن عاقبة الصبر والصدق والاخلاص والشكر لله رب العالمين *

* * *

* الأهداف التربوية فى قصة يوسف عليه السلام :

لا شك أن الغرض الدينى التربوى ، قد احتل مكانا موسعا فى قصة يوسف عليه السلام ، وإذا كانت القصة فى ذاتها بها مواقف تربوية ، ظهرت من خلالها فإن اتحاد الغرض الدينى والتربوى قبل القصة ، وبعدها يعتبر الملمح الرئيسى فى تلك القصة ، والذى جاء كإطار عام وهدف أساسى لأنه يدور حول وحدة الدين ووحدة الألوهية *

وبهذا يمكننا أن نميز نمطين من الأهداف التربوية فى تلك القصة :

(أ) الهدف التربوى العام *

(ب) الأهداف التربوية الخاصة *

وسوف نتحدث عن كل تلك الأهداف بالتفصيل ، آخذين فى الاعتبار أن كلا منهما مكمل للآخر ، فهما يلتقيان سعيا فى سبيل بناء الفرد المسلم والشخصية الإسلامية الموحدة *

(٢٢) محمد المبارك : دراسة أدبية لنصوص القرآن . مرجع سابق ،

ص ٨٢ ، ٨٣

(٢٣) المرجع السابق ص ٨٨ ، ٨٩

أولا — الهدف التزوي العام : توحيد الله وعبادته والدعوة اليه :

تجىء وحدة الدين ووحدة الألوهية ، واتحاد الأنبياء والمرسلين حول الدعوة الى الله ، ونصرة دينه ، هدفا رئيسيا عاما في تلك القصة ، حيث يمكن استنباط العبرة والعظة من قصص الأنبياء والمرسلين ، واستخلاص المواقف المتشابهة ، لادراك مدى الاعجاز الباهر والاتحاد الملتحم بين الأنبياء والمرسلين مع الاختلاف في الأزمنة والأمكنة ونوعية البشر .

وبهذا يأتى في النهاية أن تدعيم مسار الدعوة الى الاسلام هدف رئيسى ومطلب ملح ، لجميع الأنبياء والمرسلين ، مع اختلاف في المواقف والأحداث مع قومهم .

واذا كان هذا يصدق على جميع الرسل والأنبياء ، كما قال تعالى مخاطبا النبي محمد صلى الله عليه وسلم : «**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب**» (٢٤) .

أقول : اذا كان ذلك ، كذلك ، فإنه ينطبق على يوسف عليه السلام ، لأن قصته جاءت متماسكة في وحدة كاملة مع دين الاسلام ، ومع مسار دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ولذلك جاءت بداية القصة — كما سبق أن ذكرنا — خطابا موجها للنبي صلى الله عليه وسلم ، كايُناس له فيما يعاينيه وما سوف يعاينيه من قومه في سبيل دعوته ، وما يقاسيه من أجلها ، فتبكر القصة لتؤكد أن القرآن كتاب الله أنزل لهداية الناس وارشادهم ، من أجل اصلاح حالهم ، وتقويم سلوكهم واستقامتهم على الطريق الصحيح لعلمهم يثوبون الى رشدهم ، ويعقلون ما آتاهم به النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي القصة لفت للأنظار الى أن الهدف الأسمى من الحياة هو تحقيق العبودية لله رب العالمين فمع تمكين الله ليوسف في الأرض ، وتبوءه خزانة الدولة ، ومع تمكين الله تعالى له بالعلم ، ومع تمكين الله له من تعبير للرؤيا ، لم يرج يوسف بعد هذا كله الا أن يتوفاه الله مسلما وأن يلحقه بالصالحين .

وهذا هدف تتفق فيه الديانات كلها ، وعلى رأسها خاتمة الديانات ،
وصدق الله اذ يقول : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد
منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة
المتين » (٢٥) •

ويحقق يوسف عليه السلام الهدف الرئيسي للحياة بعد تلك المحن
وتلك المواقف من الابتلاء والصبر في الضراء والشكر في السراء ، ويلتقى
مع القرآن الكريم ، روحا كما يلتقى مع الاسلام عملا •
وهكذا يتحقق بقصة يوسف الهدف الأكبر ، وهو تمحيص المؤمنين
بالاسلام في بداية السنوات الأولى من الدعوة •

وقد كان الفقراء من المؤمنين بالاسلام في حاجة الى نموذج عملي
تربوي ، فكانت قصة يوسف عليه السلام بنصها ، وأحوالها وما فيها
من مواقف محزنة وأليمة ، وما فيها من مكر وخداع وتدبير انتهت
بنصر الله ينصر من يشاء ، وهو وحده المتكفل بعباده الأوابين الصالحين •
وفي العام الذي نزلت فيه سورة يوسف ، اشتد البلاء بالمسلمين.
وكانوا في حاجة ماسة الى من يسرى عنهم ، فلقد ماتت خديجة أم المؤمنين.
ومات عم النبي صلى الله عليه وسلم أبو طالب ، سنده الوحيد ، ومن
ذوى المكائنة والجاه في مكة واشتد الكرب بالمسلمين فكانت هذه القصة
مثابة مائدة نزلت من السماء تهون على المسلمين ما هم فيه لذلك فلا
غربة ، والموقف هكذا أن يخرج المسلمون من ديارهم فيهاجروا ولا غربة
أن يحبك المشركون المؤامرات لرسول الله ، ولا غربة أن تقع المعارك ،
وينتصر فيها المسلمون ، ويستشهد منهم العديد ، لا غربة في ذلك غفي.
قصة يوسف شيء من هذا ولكن النهاية هي الأساس ، ففيها الاطمئنان
وفيها السلوى ، وصدق الله العظيم اذ يقول في ختام سورة يوسف :
« حتى اذا استناب الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى
من غمهم ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » (٢٦) •

وهكذا تظهر عواقب الصبر في تلك القصة ، حيث فيها الدعوة الى
الاعتبار بمواقفها التربوية ، وما آلت اليه القصة من معنى عميق من
معاني الحياة ، وهو أن الله يخلق من العسر يسرا ومن الضيق فرجا
ومخرجا ، وأن تصرفات الانسان وأعماله تأتئ نتائجها وفقا لقدر الله

وارادته ، والمؤمن الصحيح الايمان هو من لا ييأس ولا ييئس من روح الله ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .
ومن هنا فعليه أن يتحمل ويصبر ، في ساعات الشدة ، ولا ينحدر مع الهوى أو الشهوة ، بل يترقب ساعة الانتظار والظفر ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه في أشد الحاجة الى هذا المعنى ، خصوصا وقد اشتدت بهم الخطوب وأحاطت بهم كل أساليب الاضطهاد من خصوم عنيديين أقوياء .

ولذلك جاء الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (٢٧) حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » . وجاء هذا الخطاب داعيا النبي عليه الصلاة والسلام ألا ييأس لقلة المؤمنين المستجيبين لدعوة الاسلام (٢٨) « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (٢٩) .
وحول نفس المعنى يذكر الامام الطبري في تفسير تلك الآيات « ذلك من أنباء الغيب » يقول تعالى ذكره : هذا الخبر الذي أخبرتك به من خبر يوسف ووالده يعقوب وأخوته وسائر ما في هذه السورة « من أنباء الغيب » يقول : من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعاینه ، ولكنا « نوحيه إليك » ونعرفك ، لنثبت به فؤادك ونشجع به قلبك ، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله ، وتعلم أن من قبلك رسل الله إذ صبروا على ما نالهم فيه ، وأخذوا بالعفو ، وأمروا بالعرف ، وأعرضوا عن الجاهلين ، فازوا بالظفر ، وأيدوا بالنصر ومكنوا في البلاد وغلبوا على من قصدوا من أعدائهم وأعداء دين الله ، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : هبهم يا محمد فتأسي وآثارهم فقص (٣٠) .

وفيما يتعلق بحرص النبي صلى الله عليه وسلم على ايمان قومه « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . يقول الله عز وجل : هناك

(٢٧) يوسف : ١٠٢

(٢٨) محمد المبارك . دراسات أدبية . مرجع سابق ص ٨٨

(٢٩) يوسف : ١٠٣

(٣٠) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . جامع البيان عن تفسير آي

القرآن . مرجع سابق ج ١٣ ص ٧٥

كثير من قومك يا محمد لا يؤمنون بك ولا يصدقونك ولا يتبعون ما جئتهم به بالرغم من حرصك على إيمانهم . وبالرغم من أنك لم تطلب على دعوتك لهم أجرا من ثواب وجزاء منهم ، إنما ثوابك وأجر عملك على الله ، لأنك لو قلت لهم أو طلبت منهم ذلك فأنهم سوف يقولون لك : إنما تريد بدعائك إيانا اتباعك في سبيل اقتطاع جزء من أموالنا . وإذا كان الحال والشأن كذلك فكان جديرا بهم وحقا عليهم أن يوقفوا أن دعوتك لهم اتباع منك لأمر ربك^(٣١) . ونصيحة منك لهم في سبيل ما فيه مصلحتهم وقوام حياتهم وانقاذهم مما هم فيه من شرك ومن ضلال .

واستمرارا مع مناقشة الهدف الأسمى من السورة وهو وحدة الدين ووحدة الألوهية ، يخبر المولى عز وجل أنه بالرغم من وجود آيات الله في الكون في سمائه وأرضه من شمس وقمر ونجوم وكواكب وجبال وأتجار ونبات ، وهي ترى بالعين ، ويعاينها هؤلاء الذين يدعواهم الرسول للإيمان ، غير أنهم يعرضون عنها ، ولا يتعظون بها ولا يفكرون فيها ، « وفيما دلت عليه من توحيد ربها ، وأن الألوهية لا تنبغي إلا للواحد القهار ، الذي خلقها وخلق كل شيء فديبرها »^(٣٢) .
« وكأين من آية في السموات والأرض يملكون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »^(٣٣) .

وهنا يظهر أن هؤلاء الذين كانت صفتهم الاعراض عن آيات الله في الكون والدالة على وحدانيته إنما يشركون في عبادتهم مع الله الأوثان والأصنام ويتخذونها أربابا فيزعمون أن لله ولدا ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا^(٣٤) .

« أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون »^(٣٥) .

يقول جل ثناؤه : أفأمن هؤلاء الذين لا يقررون بأن الله ربهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره ، **« أن تأتيهم غاشية من عذاب الله »** تغشاهم من عقوبة الله وعذابه ، على شركهم بالله أو تأتيهم القيامة

(٣١) المرجع السابق ص ٧٦ (٣٢) المرجع السابق ص ٧٦

(٣٣) يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦

(٣٤) أبو جعفر بن جرير الطبري . مرجع سابق ص ٧٧

(٣٥) يوسف : ١٠٧

فجأة ، وهم مقيمون على شركهم وكفرهم ببربهم فيخلدهم الله عز وجل في ناره ، وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها^(٣٦) . « قل هذه سبيلي أدعوا الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

وبهذه الآية يحسم الأمر ، وأن طريق النبي صلى الله عليه وسلم هو الدعاء الى توحيد الله وإخلاص العبادة له من دون الآلهة والأوثان . وهذه الدعوة هي طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أنها أيضا طريق لمن آمن بالله سبحانه ، يقول تعالى ذكره : « وقل تنزيها لله وتعظيما له ، من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه ، « وما أنا من المشركين » يقول : وأنا برىء من أهل الشرك به ، لست منهم ولا هم مني^(٣٧) .

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون »^(٣٨) .

أفلم يسر هؤلاء المشركون الذين يكذبونك يا محمد ويجحدون نبوتك وينكرون ما جئتهم به من توحيد الله ، وإخلاص الطاعة والعبادة له في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم اذ كذبوا رسلنا ألم نحل بهم عقوبتنا فنهلكهم وننج منها رسلنا وأتباعنا ، ففكروا في ذلك ويعتبروا^(٣٩) .

ومجمل القول أن الآيات العشر الأخيرة من سورة يوسف يخاطب المولى عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم : « قل هذه سبيلي . أدعوا الى الله +++ » قل يا محمد هذه دعوتي وتلك طريقتي وهي إخلاص العبادة لله دون الآلهة والأوثان . وتأتى الآية الأخيرة من السورة لتكمل العقد الذى بدأته والهدف الذى رسمته من العبرة والعظة والتوحيد . « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »^(٤٠) .

(٣٦) أبو جعفر بن جرير الطبرى . مرجع سابق ص ٧٩

(٣٧) المرجع السابق ج ١٣ ص ٨٠ - والآية من سورة يوسف : ١٠٨

(٣٨) يوسف : ١٠٩ (٣٩) المرجع السابق ج ١٣ ص ٨١

(٤٠) يوسف : ١١١

بهذا العرض يتضح أن الهدف التربوي العام في تلك القصة هو الدعوة الى الله الواحد وافراده سبحانه بالعبادة * والعبادة مفهوم يتسع لما هو أعم من أداء التعائر لينسمل أعمال الانسان كلها . طالما يبتغى بها وجه الله تعالى .

وهذا في حد ذاته يعد تنفيذا للوظيفة الرئيسية التي من أجلها خلق الانسان . قال تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة** » (٤١) والخلافه عمل ونشاط وعمارة للأرض وتعرف على طاقاتها وقواها ومكوناتها وتنميتها وترقية الحياة بها » .

وعلى أن هذا يتم وفقا لشريعة الله وتحقيقا للمنهج الالهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني للعالم (٤٢) .
ومن هذا المنطلق كانت تلك الأنشطة كلها عبادة ، العبادة بمفهومها الواسع وفقا لحدود النشاط المطلوب من الانسان والذي يتفق مع قوله تعالى : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » (٤٣) .

وهذا بلا شك يتناسق مع أعلى درجات التربية الخلقية وهي احدى الأهداف التي تسعى التربية — أي تربية — لتحقيقها .
والتربية الخلقية حين تستند على الدين فلا شك أنها تحقق هدفها الأسمى في صفاء الضمير وتحقيق العدل والخير والجمال للانسان .

* * *

ثانياً — الأهداف التربوية الخاصة :

معلوم أن الغاية من خلق الانسان الابتلاء ، وأن المطلوب من هذا الابتلاء هو عبادة الله رب العالمين وطاعته .
ومن هنا تدور أو يجب أن تدور الأهداف العامة للمجتمع — أي مجتمع مسلم — فيما يتعلق بالأنظمة والسياسات والفلسفات (الأيديولوجيات) سواء ما كان منها في الشرق أم في الغرب ، طالما أن هناك تسليما بأن الاسلام هو الدين الخالص « **الا لله المدين الخالص** » (٤٤) .

(٤١) البقرة : ٣٠

(٤٢) سيد قطب . في ظلال القرآن ، ج ٢٧ مرجع سابق ص ٣٣٨٧

(٤٤) الزمر : ٣

(٤٣) الذاريات : ٥٦

كما أن الأهداف الخاصة حول سياسات التعليم ونظمه وإدارته ومؤسساتها وما يدور في فلكها من برامج ولوائح وقوانين .. الخ ، كل هذه يجب أن يكون محورها الأساسي ، تحقيق العبودية لله ، وأن يكون هدفها النهائي إخلاص العبادة لله رب العالمين .

في هذا الإطار ومن هذا المنطلق نلمح أن يوسف عليه السلام أمام صوف المحن وأنواع الابتلاء المختلفة ، قد صبر ، وزاول دعوته إلى الاسلام وهو في أحلك صنوف الابتلاء أثناء سجنه « وخرج منها كلها متجردا خالصا ، وآخر توجهاته ، وآخر اهتماماته ، في لحظة الانتصار على المحن جميعا ، وفي لحظة لقاء أبويه ولم نسله ، وفي لحظة تأويل رؤياه وتحقيقها كما رآها .. » (٥٥) « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » آخر توجهاته وآخر اهتماماته في هذه اللحظة هي التوجه المخلص المتجرد المنيب إلى ربه ، منخلعا من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم : « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه .. » — « .. رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » (٥٦) « وهكذا كانت طلبته الأخيرة .. بعد ذلك كله وهو في غمرة السلطان والرخاء ولله الشمل .. أن يتوفاه ربه مسلما ، وأن يلحقه بالصالحين .. وذلك بعد الابتلاء والمحنة ، والصبر الطويل والانتصار الكبير » (٥٧) . وإذا كان منهج الاسلام يحتم استثمار مواقف الانسان المسلم ، أعنى جميع الخبرات والمواقف العملية في حياته كلها ، بحيث تصبح خالصة لوجه الله رب العالمين فان يوسف عليه السلام كان النموذج الأعظم لتلك المنهجية الاسلامية الخالصة ، ذلك أن ما ابتلى به يوسف عليه السلام متنوع ومتعدد سواء في طبيعته أو اتجاهاته ابتلاء بالشدة وابتلاء بالرخاء ، وابتلاء بفتنة الشهوة وفتنة السلطان ، ابتلاء بانفعالات المشاعر أمام مختلف المواقف ومختلف الشخصيات . والنتيجة الباهرة أمام تلك الاختبارات ، هي الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى اتجاه العبد المنيب الذي يرجو رحمة الله ويخشى عذابه (٥٨) .

(٥٥) يوسف : ٩٩ — ١٠١

(٥٦) سيد قطب . في ظلال القرآن ج ١٢ ، مرجع سابق ص ٦٩٥٠

(٥٧) المرجع السابق ص ١٩٥٢

بهذه الأساليب نستطيع أن نضع عناصر الأهداف التربوية الخاصة
لقصته يوسف عليه السلام ، واضعين في الاعتبار أننا في هذا البحث
سنستشهد بآيات من القصة تدعم القيمة التربوية التي نحن بصددھا .
ومن هنا — ولضيق المقام — فلن نتعرض بالتفصيل لكل آيات
السورة سوى أننا نضع بين يدي القارئ الأهداف التربوية مقرونة
بالآيات الدالة علیھا ، شارحين للبعض منها لتأييد القيم التربوية موضع
البحث .

وبهذا نتجنب الاطالة نظرا لما تتطلبه طبيعة هذا البحث وأيضا
نتيح لمن يريد المزيد من التعرف على التفاصيل أن يرجع إليها في كتب
التفسير ، وفقا لما سنلمح إليه من الآيات الدالة على كل موقف
تربوي .

وتتبع قصة يوسف وحدها في ثمان وتسعين آية ، بالإضافة الى
المثلاث الآيات الأولى ، والعشر الآيات الأخيرة من السورة هذا ولقد
تضمنت السورة مشاهد ومواقف كثيرة نذكرها فيما يلي توطئة لذكر أهم
الأهداف التربوية الخاصة .

* * *

* مشاهد القصة :

١ — رؤيا يوسف وتقع في الآيات (٤ — ٧) وتتضمن تلك الآيات
نمطا في الطبيعة الانسانية ممثلا في حرص يعقوب عليه السلام على
يوسف ونصحه بعدم حكاية رؤياه لآخوته كما تتضمن الآيات التفاوض
للمستقبل مشرق ينتظر يوسف عليه السلام .

٢ — مؤامرة وضع يوسف في الحب ، وتنفيذها ، وبيعه بيع
العبيد . ويقع هذا المشهد في الآيات (٨ — ٢٠) وتتضمن الآيات
الايمان بالله والثقة به ممثلا في اسناد الأمر لله رب العالمين في كشف
تلك المؤامرة « قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله
الاستعان على ما تصفون » (٤٨) .

٣ — يوسف في مصر وفي بيت العزيز ، ومؤامرة تدبر لها زوجة
العزيز ومشهد نسائي من نساء القصر ، ثم تمكين ليوسف ، وعلم
وحكمة يؤيد الله سبحانه وتعالى بها يوسف لأنه هو الذي قد رباه وأحسن

مثواه وتتفع تلك المشاهد في الآيات (٢١ - ٣٤) وتتضمن الصدق مع الله والاخلاص في درء نزغات الشيطان .

٤ - يوسف في السجن يدعو الى الله على بصيرة ، فيكون محل بقة ويصبح من المحسنين ، يلجأ اليه الملك ليفسر له ما رآه في منامه . ويصبح الايمان بالله دعوة ابراهيم واسحاق ويعقوب منهجا ليوسف وتتفع تلك المشاهد في الآيات (٣٥ - ٥٣) وتتضمن يقظة الضمير حين اعترفت زوجة العزيز ببراءة يوسف مما سبق أن نسب اليه : **« قالت امرأة العزيز الآن حصح الحق أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين »** (٤٩) .

٥ - يوسف الذي مكن له فتولى خزائن الدولة فيصير برحمة الله من المحسنين الصادقين المخلصين **« ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون »** (٥٠) . ونرى هذا في الآيات (٥٤ - ٥٧) .

٦ - يوسف مع اخوته ، وذهابهم من أجل الحصول على الأطعمة ، بعد أن أحاط القحط بالعباد والبلاد ، ويوسف لا يكشف عن شخصيته ويحيط ذلك بسرية كاملة . وما كان من ابقاء يوسف لأخيه ثم ما كان من تفاؤل يعقوب عليه السلام وطلبه من بنيهِ ألا ييأسوا ولا يركنوا للتكاسل في طلب يوسف وأخيه ونلمح تلك المشاهد في الآيات (٥٨ - ٨٨) .

٧ - أما الآيات (٨٩ - ١٠١) فقد جاءت خاتمة المطاف واشتملت على التقاء يوسف وأخيه بأبوية واخوته ، والصفح عنهم وطلب المغفرة لهم . وجاء دعاء يوسف بعد أن أنعم الله عليه نعمة التقائه بأبويه وأخوته خاتمة في منتهى الصدق والاخلاص للدعوة الى الله : **« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما وألحقني بالصالحين »** (٥١) .

ومن خلال هذه المشاهد سوف نتخير بعض القيم التربوية من خلال مواقف في قصة يوسف عليه السلام على الشكل الآتي :

أولا : الاسلام دين الفطرة .

ثانيا : الايمان بالله والثقة به .

ثالثا : يقظة الضمير .

(٥٠) يوسف : ٥٧

(٤٩) يوسف : ٥١

(٥١) يوسف : ١٠١

- رابعا : الدعوة الى الخير
 - خامسا : التفاؤل المقرون بالعمل
 - سادسا : الصدق والاخلاص
- وستتحدث عن كل من تلك القيم مدعين ذلك ببعض التفاسير الصحيحة في هذا المقام :
- أولا - الاسلام دين الفطرة :**

ليس غريبا على التهج القرآني في أسلوب القصة ذلك التدعيم الكامل والاعتراف الصريح بمنطق الفطرة السليمة ، ممثلا في شخصيات هذه القصة مع تعدد أفرادها ، واختلافهم بين كبير مسن يعقوب عليه السلام ، النبي المطمئن الموصول ، وبين ملك عزيز مهيب له من الجلال والسلطان - والسلطان لله رب العالمين - بالإضافة الى أخوة يوسف الذين احتشدت قلوبهم غيرة وحسدا وحقدا ومؤامرة ومناورة وقد ضعفت نفوسهم أمام مواجهة آثار الجريمة • بيد أن أحدهم قد اتسم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة •

ففي البداية يقول لآخوته بعد أن اعتزموا قتل يوسف : « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » (٥٢) ، وقوله لهم حين انصرفوا من موقفهم أمام يوسف بعد رفضه الكيل لهم واحتجازه لأخيه يقول لهم : « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين » (٥٣) •

وهذه امرأة العزيز ، بما اتسمت به من جنوح الغريزة الأنثوية المتأثرة بالبيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك التي جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها ووضوح انطباعات البيئة ، وموقف النفسوة المتجلى في خديثهن عن امرأة العزيز وقتلها واغرائهن ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعا وتجو ذلك مما يجزى وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها •

بين هذه الشخصيات المتفاوتة في تفكيرها وأهدافها ، والمتباينة في طبيعتها وتنوعيتها ، يتجلى القصص القرآني ومنه قصة يوسف في أسلوب متناسق ومتناغم ، لا خلل فيه ولا أعوجاج ، غيبا في معترفا بالصفة البشرية للكائن الحي فلا لبس ولا غموض في أي من تلك المواقف ،

ولا تحيز لأحد على حساب الآخر ، لأن هذا هو منهج الاسلام الكامل في الأداء التربوي من خلال القصص القرآني ، هذا الأداء الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة ، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستقعا من الوحل يسميه « الواقعية » كالمستنقع الذي أنشأته « الواقعية » العربية الجاهلية (٥٤) !

وهذا المنهج قد استكمل التصوير النفسي للبشر بواقعية كاملة ، دون أن يغفل أية لحظة حقيقية من لحظات النفس الإنسانية . ولعلنا بهذا نلمح الترفع في هذا الأداء التربوي عن مستوى الاسفاف المقرز للفطرة السليمة ، أو ما يطلق عليه في هذا العصر « الواقعية » أو « الطبيعية » (٥٥) .

وبهذا العرض يمكن القول أن الأداء التربوي في قصة يوسف عليه السلام قد استخدم النمط الكامل المتكامل في البناء التربوي لأن الاعتراف بالطبيعة الإنسانية واضح فيها ، وزيادة على ذلك فالاسلام مع اعترافه بالطبيعة الإنسانية إلا أنه يوجهها ويعدل من سلوكها ، بما يحقق للانسان الخير في نفسه وفي مجتمعه وبما يحقق له الخير في دينه ودنياه .

ثانياً - الايمان بالله والثقة به :

ان المواقف التي تبينها قصة يوسف توحى الى موجبات الدعوة الى الله وما يستلزمه ذلك من صبر ورباطة جأش . ولقد صاحب هذا المغزى التربوي مواقف كثيرة في القصة نذكر منها ما يلي :

(١) يوسف ملقى في الحبس ، وفي أزمنة هذه الشديدة ، وابتلائه بعد الكيد له والمكر به ، ومع ذلك فهو المؤمن بربه الواثق بنصره ، قال تعالى : « وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » (٥٦) على خلاف بين المفسرين حول زمن الايحاء . يقول الامام الطبري حول هذا : « وأوحينا الى يوسف لتخبرن اخوته بأمرهم هذا ، يقول : بفعلهم هذا الذي فعلوه بك » وهم لا يشعرون » يقول : وهم لا يعلمون ولا يدرون . ثم اختلف أهل التأويل في المعنى الذي غناه الله عز وجل بقوله : « وهم لا يشعرون » فقال بعضهم : عني بذلك أن الله أوحى الى يوسف أن يوسف : سينبئ اخوته بفعلهم به ما فعلوه من القائه

(٥٤) في ظلال القرآن . مرجع سابق ص ١٩٥٢

(٥٥) يوسف : ١٥

(٥٥) المرجع السابق .

في الحب وسائر ما صنعوا به من ضنيعهم ، وأخوته لا يتسعون بوحى الله اليه بذلك (٥٧) .

(ب) يوسف في السجن ، بين ظلماته ومكابدة المتاعب والمصاعب بداخله ، وقد طال به السجن بعد أن نسي أحد الفتيتين الناجي من السجن أن يذكر يوسف عند الملك ، وقد كان طريق السجن مثل يوسف ونجا منه ثم عاد الى القصر وكان ما كان من أمر رؤيا الملك وذهاب الفتى الناجي ليوسف في السجن واستطاعة يوسف تفسير رؤيا الملك الذي أمر بإحضار يوسف لديه فيما بعد . وسجين هذا حاله ، ينتظر منه ، أن يستجيب لفوره للخروج من السجن والذهاب الى الملك والتخلص من تلك القيود ، والعيش في كنف القصور .

ومع ذلك فإن إيماننا بالله وثقة به ، يحركان يوسف عليه السلام ، ويحثانه على التريث والتأني ، وعدم الاستجابة الفورية في سرعة تلبية أمر الملك ، حتى تنجلي الظلمة وتنقشع سحب التهمة الموجهة اليه من غير دليل والتي راح بسببها في غيابات السجن لسنوات ، وينطق يوسف عليه السلام منطق الحق قائلاً لرسول الملك : « فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، ان ربي يكيدهن عليم » (٥٨) . يقول الامام الطبري في تفسير هذه الآية : يقول تعالى ذكره فلما رجع الرسول الذي أرسلوه الى يوسف ، الذي قال : « أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » (٥٩) فأخبره بتأويل رؤيا الملك عن يوسف ، علم الملك حقيقة ما أفئاه به من تأويل رؤياه وصحة ذلك ، وقال الملك : أثبتوني بالذي عبر برؤياي هذه (٦٠) .

وقوله : « ان ربي يكيدهن عليم » يقول : ان الله تعالى ذكره ذو علم بصنعمن وأفعالهن التي فعلن بى ويفعلن بغيرى من الناس لا يخفى ذلك كله ، وهو من وراء جزائهن على ذلك (٦١) . راجع في هذا الآيات (٣٥ - ٥٣) .

(ج) موقف يوسف من أخوته ، بعد أن تبوأ مكانته كوزير يسوس الأمور فيما يتعلق بأقوات الناس ، ويدبر ذلك في قبرة تامة وفي حصافة

(٥٧) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، مرجع سابق . ج. ١٢ ص ١٦١

(٥٩) يوسف : ٥٠

(٥٨) يوسف : ٥٠

(٦١) المرجع السابق ص ٢٣٦

(٦٠) المرجع السابق ص ٢٣٤

وحكمة أقدرته أن ينقذ البلاد ، وبعض ما جاورها من غوط ما ألم بها من السبع السنين العجاف ، ومن تلك التهلكة التي كادت أن توقع الناس الحرج الشديد من ضيق العيش وخوف التهلكة . ويوسف في تلك المكانة وقد ضم إليه أخاه ، يقول له أخوته بعد أن اكتشفوا أمره من كلامه : « **أنتك لأنت يوسف** » (٦٢) قال : « **أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين** » (٦٣) .

ويذكر الشهيد سيد قطب في معنى هذه الآية : قالوا : « **أنتك لأنت يوسف** » ؟ « **أنتك لأنت** ؟ ! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وأذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير » قال **أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين** » (٦٣) مفاجأة ! مفاجأة عجيبة . يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في أجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة . ولا يزيد . سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى ، والصبر وعدل الله في الجزاء . أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسنا « **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين** » (٦٤) . ولكن التقوى والصبر والثقة في الله حتمت على يوسف أن يقول لأخوته وهو في مركز القوة ولكنها قوة الايمان وفي موقف المنتصر ولكنه العزيز بالله يقول لأخوته : « **لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين** » (٦٤) . راجع في هذا الآيات (٥٨ — ٩٢) .

وليس يعد ذلك من حديث لتجدد عن السماحة والعفو وكرم الخلق وبذر السلوك الصحيح لدى الانسيبان في نمط عملي نموذجي تجريبي ، ينطق الانسان ويجعله يشهد بالفضل ويفخر بالفضيحة مما حدا بأخوة يوسف أن يقولوا له بعد أن تكشف لهم هذا الدرس التربوي « **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين** » (٦٥) . وفي هذا اعتراف سببه الثقة والايمان بالله الذي نفذه يوسف عليه السلام في اخلاص وصدق ويقين .

(٦٢) يوسف : ٩٠

(٦٣) في ظلال القرآن ، مرجع سابق ج ١٣ ص ٢٠٢٧

(٦٤) يوسف : ٩١

(٦٥) يوسف : ٩٢

ثالثا - يقظة الضمير :

بعد أن ألقى المقادير بيوسف عليه السلام في السجن ، وتعرف على اثنين من السجناء الفتيان ، وبعد أن قصا عليه ما رآياه في منامهما ، سم ما كان من يوسف عليه السلام من تفسير لما رآياه ، مما زاد من تعلقهما به وثقتهم به .

فلما استأنس يوسف فيهما اليقظة واستشعر منهما الهمة ، التي مهد هو لها استطاع يوسف عليه السلام أن ينفذ الى قلوبهما ، ليستقبلا ما يقوله يوسف عليه السلام من أمر التوحيد والدعوة الى الله ، واستنفر يوسف من نفسه الهمة والعزم وصيحة الضمير وقام يدعو الى الله وهو في السجن .

قال تعالى : « واتبعه ملة آباءى ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٦٦) .

وهذه الآيات تكشف أن التوحيد الخالص لله ، أمر مقرر في جميع رسالات المرسل ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه ، وبهذا المدخل اللطيف يخطو يوسف عليه السلام خطوة خطوة في خذل ولين ، ليستهوذ على قلبى الرجلين وليوقظ الضمير فيهما ، فيكشف لهما عن فساد اعتقادهما ، وفساد ذلك الواقع النكد الذى يعيشون فيه . بعد ذلك التمهيد التربوى الطويل . « أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » . ثم يتخذ يوسف عليه السلام منهما صاحبين ويتحبب اليهما بهذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل الى صلب الدعوة وجسم العقيدة ، وهو لا يدعوهما اليها دعوة مباشرة ، انما يعرضها قضية موضوعية (١٧) .

ثم يكتف يوسف عليه السلام النقاب عن الفطرة البشرية ، التي لا تعرف سوى اله واحد ففيم اذن تعدد الأرباب ؟ لا شك أن الذى ينبغى أن يطاع شرعه وينفذ سلطانه هو الله الواحد القهار ، وهو فى

(٦٦) يوسف : ٣٨ - ٤٠

(٦٧) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، ج ١٢ ص ١٩٨٩

غنى عن العالمين « فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل وفق منهجه . فبعد لهم هذا كله عبادة ، وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريد بها إصلاح قلوبهم ومتاعهم ، لإصلاح حياتهم وواقعهم . . . ففرق بين الدينونة لله الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيد (٦٨) .

« **إن الحكم إلا لله** . . . » فالحكم مقصور عليه وحده ، والحاكمة من خصائص الألوهية « من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته » (٦٩) .

وهكذا يرسم التعبير الفنى في تلك الآيات خفقات الشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقة رفيقا تضيفا (٧٠) .

وبهذا العرض يظهر لنا طريقة القرآن الكريم في نقد الفساد الذى يستنسى في المجتمع ويسلك القرآن وجهات فنية تعتمد على القصص وخرب الأمثال ، كما يستخدم المناقشة والحوار وعرض نماذج بشرية في معرض النقد وينتقى القرآن في القصة أبرز حوادثها وأشدها صلة بالعبارة المقصودة مغفلا التفاصيل الزائدة ومركزا على تلقين الأفكار التى لا تفضل الواقع الانسانى بل ترتفع به الى المثل الأعلى (٧١) . وهذا ما نلاحظه واضحا فيما تعرضنا له من موقف يوسف من الفتنة في المنجن ودعوتهم الى الله واغزاده سبحانه بالعبادة ، ودعوة قومهم الذين هم على دينهم من خلال دعوتهم ، مستخدما في ذلك منطق التخليية بعد التخليية فهو يجاهد في سبيل تخليهم عن الاشراك بالله ، ثم يفسح المجال لاقناعهم بعبادة الله وايقاظ ضميرهم .

رابعا — الدعوة الى الخير :

ويتمثل ذلك في شخصية يعقوب عليه السلام الأب الرحيم ، الشفيق الحذر ، الصابر المتفائل بالنصر ، والفرج ، ويوسف عليه السلام المظلوم الذى ابتلى فصبر على بلائه وانتظر رحمة ربه ، شاكرا نعمته ، يغلب ايمانه على هواه وعلى شهوته ، مخلص لا يخسر الا الخير ، وأبناء يعقوب الجاهلون المقامرون (٧٢) .

(٦٨) المرجع السابق ص ١٩٨٩ ، ١٩٩٠

(٦٩) المرجع السابق . (٧٠) المرجع السابق ص ١٩٩٦

(٧١) محمد المبارك ، دراسة أدبية ص ١٠١

(٧٢) محمد المبارك ، دراسة أدبية . مرجع سابق ص ٨٧

هذه الشخصيات تجمعها مواقف ، يتضح فيها الدعوة الى الخير ، والصفح والعفو والسامحة عنوانا لتلك الشخصيات المثالية التي هي الأمثلة الحية النابضة بالحب والخير ، فيوسف يقول لاختوته وهو في أوج الانتصار والرفعة : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » (٧٣) • ويعقوب عليه السلام يقول لبننيه بعد أن استرحمهم طالبين منه المغفرة والعفو ، أنه سوف يستغفر لهم • « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا أنا كنا خاطئين • قال سوف أستغفر لكم ربى ، أنه هو الغفور الرحيم » (٧٤) •

وكأنى يعقوب عليه السلام وقد عاش هذه المحن العصيبة ، يرى بنفسه ويدرك بحسه نتيجة ما سبق أن رآه ببصيرته واستشعره بقلبه ، أن وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لهذا الغلام • لم يفصح هو عنه ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك • ولا تظهر بوادره بين حلقتين منها • أما تمامه فلا يظهر الا في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب • ولهذا نصحه بالألا يقص رؤياه على اخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير — غير الشقيق — فيجد الشيطان من هذا شجرة في نفوسهم فتتملىء نفوسهم بالحقده ، فيدبروا له أمرا يسوءه (٧٥) • ومن هنا فان يعقوب عليه السلام كان يتنبأ بالخير ليوسف وكان يعالج نزعات الشيطان بين بنيه بأسلوب النبى الموصول الراغب في وضع الثواب لمستحقه في الوقت المناسب والزمان حتى ينتزع الشر من القلوب ويبيذ مكانه الخير والحب والوفاء •

خامسا — التفاضل المقرون بالعمل :

لقد برز التفاضل في هذه القصة في عدد من المواقف :

١- ترجين أجاب يعقوب بنيه الذين كذبوا عليه في شأن يوسف وأخفوا عليه أمر وضعه في الجب ، قال لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » (٧٦) •

— حين طلب أخوة يوسف من يعقوب عليه السلام أن يصطحبوا

(٧٤) يوسف : ٩٧ ، ٩٨

(٧٣) يوسف : ٩٢

(٧٥) سبذ قطلب ، في ظلال القرآن ، مرجع سابق ص ١٩٧١

(٧٦) يوسف : ١٨

معهم أخوا لهم من أبيهم (هو شقيق ليوسف وأسمه بنيامين) كطلب يوسف منهم حتى يمكنهم من الكيل والحصول على الصقعة التي خرجوا من أجلها ليرفغوا عن قومهم غائلة الجوع والفاقة في سنوات القحط • قال لهم أيوهم في إيمان النبي الموصول المتفائل بنصر الله المعتصم المتين قال : « لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتني به الا أن يحاط بكم ، فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » (٧٧) • — أما في الآيات (٨٣ — ٨٧) ففيها التفاؤل المصوب بالعمل والاجتهاد في سبيل الهدف وذلك بعد أن شق على بنيه أن يخلصوا آخاهم بنيامين من يوسف عليه السلام الذي ضمه اليه في سبيل أن تنتم فصول القصة ويلتئم ما حدث فيها من جراح • أخبر أخوة يوسف أباهم ما كان من شأن أخيه واثامهم بالسرقة قال لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ، انه هو العليم الحكيم » (٧٨) الى أن قال لهم : « يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » (٧٩) •

« أما فلسفة القصة العميقة فتتجلى في الايمان العميق بالله الذي ينصر الحق على الباطل ولو طال أمده ، والثقة بهذا الانتصار ، ومواجهة أزمات الحياة بصبر ونيات وإيمان • والتفاؤل حتى في الشدة وترقب الفرج من الله في الأزمات ، والايمان أن نية الخير والعزم عليه لا يولد في النهاية الا خيرا فلا يأس ولا قنوط في الحياة والايمان صبر وجهاد وثقة وتفاؤل » (٨٠) •

سادسا — الاخلاص والصدق :

أما سمة الاخلاص والصدق فلقد احتلت مساحات في القصة نذكر منها دعوة يوسف الى بلاط الملك ، بعد أن قام يوسف عليه السلام بتأويل رؤيا رآها الملك ، وقد أحله الملك مقاما عليا ، ومكنه على خزائن الدولة ، وكان المخلص الصادق الذي استطاع أن ينقذ البلاد في سنين القحط والمجاعة •

(٧٨) يوسف : ٨٣

(٧٧) يوسف : ٦٦

(٧٩) يوسف : ٨٧

(٨٠) محمد المبارك . دراسة أدبية ، مرجع سابق ص ٨٥ ، ٨٦

وكانت عاقبة الاحسان رحمة وعاقبة الصدق مكانة في الدنيا والآخرة . والآيات (٥٤ — ٥٧) يتضح فيها هذا الهدف في جلاء كامل :
 « وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الارض ، انى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ، يتبوا منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من ثمناء ، ولا نضيق أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » (٨١) .

يقول الامام الطبرى في تفسير قوله تعالى : « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » ، يقول تعالى ذكره : « ولثواب الله فى الآخرة خير للذين آمنوا يقول : للذين صدقوا الله ورسوله مما أعطى يوسف فى الدنيا من تمكينه له فى أرض مصر » (وكانوا يتقون » يقول : وكانوا يتقون الله فيخافون عقابه فى خلاف أمره واستغلال محارمه فيطيعونه فى أمره ونهيه » (٨٢) .

ويقول سيد قطب فى تفسير تلك الآية : « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . فلا ينقص منه المتاع فى الدنيا وان كان خيرا من متاع الدنيا ، متى آمن الانسان واتقى ، فاطمأن بايمانه الى ربه وراقبه بتقواه وسره وجهه . وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة . تلك المكانة فى الأرض وهذه البشرى فى الآخرة جزاء وفاقا على الايمان والصبر والاحسان » (٨٣) .

* * *

* نتائج البحث :

أولا : ضرورة النظر فى القرآن الكريم ، واستخراج ما به من فكر تيمهى . يكون للمتعلمين ثروة دينية ، علمية ، وتربوية . مما يدعم تحقيق الهدف الأكبر من الخلق وهو العبادة — بمفهومها الواسع — لله رب العالمين . العبادة التى تشمل جميع أنشطة الحياة فى غير معصية

(٨١) يوسف : ٥٤ — ٥٧

(٨٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل

آى القرآن ، مرجع سابق ج ١٣ ص ٧

(٨٣) فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ج ١٣ ص ٢٠١٤

الله تعالى ، أداء للواجبات التي تأتي نتيجتها وفقا لاتقانها « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (٨٤) .

ثانيا : لا ولن يتأتى للإنسانية عقيدة ، سواء أكانت قديمة أم حديثة أجدر للإنسان وأوفق من عقيدة القرآن « وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والإمتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، تملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون يوم خذلت كل قوة يعتصم بها الناس ... وأن القرن العشرين ينتهى بما استحدثت من مبادئ ومذاهب و « أيديولوجيات » ولا ينتهى بما تعلمه أهل القرآن من القرآن » (٨٥) .

ثالثا : غرس الدين بنمط ميسور للأطفال في المدارس ، عن طريق القصة المبسطة ، مما يسهل تقبل الأطفال للقيم التربوية والمبادئ الإنسانية « والدين يفقد صفة الحياة متى قصر أهله في التثبير به والدعوة اليه ، ويفقد أيضا هذه القصة اذا لم يهتم بالتربية ، فليس أخصب من نفوس الصغار مجالا لنشر الدعوة الدينية واعتناقها » (٨٦) .

رابعا : الحاجة ماسة الى استثمار القصة القرآنية في بناء الأخلاق ، خصوصا وقد استشرت في الآونة الأخيرة قصص رخيصة (غرامية - بوليسية - اجتماعية أو ثقافية) ولكنها في مجموعها بشيع فيها التثليل والتشويش على عقول الأطفال والشباب ، مما يهون عليهم أساليب الحق والجريمة ويهون عليهم ارتكاب كل محرم في سبيل تحقيق الهدف . وحين نريد بناء الأخلاق والفضائل السلوكية عند الأطفال بحيث تصبح عندهم عادة يمارسونها في شبابهم وفي حياتهم المستقبلية فعليا أن نركز على القصص الدينية خصوصا في المراحل المبكرة من حياة الأطفال « ومما لا شك فيه ولا جدال معه أن الفضائل الخلقية والسلوكية

(٨٤) الكهف : ٣٠

(٨٥) عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن الكريم . دار الهلال ،

بدون تاريخ ص ٨

(٨٦) جيمس س. دوس ، الأسس العامة لنظريات التربية . ترجمة صالح عبد العزيز وآخرون ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ، بدون تاريخ ،

ص ٧

والوجدانية هي ثمرة من ثمرات الايمان الراسخ ، والتنشئة الدينية الصحيحة » (٨٧) *

خامساً : تضمنت قصة يوسف مجموعة من المبادئ الانسانية ، والقيم الاخلاقية تمثلت في « أنواع العواطف الخيرة والشريرة ، الواقعية والمثالية ، من الحسد والمكر ، والتأمر والاجرام ، والعطف الأبوي والحذر والحزن والحنين والشوق ، والغريزة الجنسية والترفع المثالي والاباء .. تتنوع المشاهد والبيئات من البداوة الى الحضارة ومن السجن الى قصر الملك ، وأعظم من ذلك كله ما فيها من فلسفة القدرة والايمان العميق بنصر الله للحق ولو طال أمد الباطل » (٨٨) *

سادساً : في استثمارنا للقصة القرآنية ، تحقيق للشخصية الانسانية المثالية ، والتي حال دون تحقيقها قصور في فهم القصة القرآنية ، والاكتفاء بالمرور عليها مرور الكرام ، دون اتقان لفكرة تربوية من ذلك التراث المملوء والمزاهر بالكثير . فنحن لم ننعم النظر بعد في قرآنا وخصوصا الجانب القصصي الذي قد يؤتي ثمرة طيبة لدى الشباب والأطفال مما جعل الفجوة سحيقة بين ما يعيشه أطفالنا واقعا ملموسا من معاشية كاملة أو شبه كاملة لثقافة مختلطة عبر أجهزة الاعلام ومنها (التلفزيون ، والسينما ... الخ) وبين فكر تربوي قرآني تركناه وراء ظهورنا دون صيحة من الآباء أو المعلمين أو أولى الفكر وذوى العلم وأهل الرأي اللهم فيما عدا النزر اليسير الذي لم يف بسد هذا الصدع وعلاج هذا الداء . *

سابعاً : في استثمارنا لقصة يوسف نلمح بناء للشخصية المعتدلة ، التي لا تنتسم بالطرسة أو الغرور بالنفس أو العجب أو الكبرياء . وما أوجبنا في الآونة الأخيرة التي ترسم هذا المنهج والسير على خطاه . والله أسأل أن يمنحنا توفيقه وهداه ، وأن يهبنا فضل التربية على مائدة القرآن الكريم . *

* * *

(٨٧) عبد الله تاصح علوان ، تربية الأولاد في الاسلام . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب . ط ٣ ج ١ ص ١٦٧
(٨٨) محمد المبارك . دراسة ادبية . مرجع سابق ص ١٠٦

الفصل الثالث

الحرية والتربية في الإسلام

« وجهة نظر »

* تقديم :

الحرية احدى القيم التى يؤمن بها كل فرد على وجه التقريب ، وهى كالعدل والحق ، كما أنها هدف تربوى يدعو الى التقدير • والموضوع الجوهرى ، هو كيف يتمكن من يؤمن بالحرية بالعمل على تقدمها ورفقيها •

وهذا بدوره يتوقف على التحديد الدقيق لمفهوم الحرية ، ووفقا لهذا المفهوم يتحرك من يعتنقه بتبنى تقدم الحرية ورفقيها • فطالما استطاع الفرد وتمكن أن يحقق أفضل الأهداف ، حينئذ يكون حرا بشكل تام وحقيقى^(١) •

وأفضل الأهداف عند الفرد ، يعتمد أساسا على النظام القيمى الذى تعتنقه الجماعة ، حينئذ يتحرك الفرد بما لديه من قدرات ، ليسهم مع أفراد المجتمع الآخرين المتوافقين معه لتحقيق مصالح الجماعة ، وأثناء جوانب حياتها المتعددة •

يهد أن هذه هى سمة الجماعة والأفراد المتكاملين ، الذين ينخرطون فى مجتمع متكامل متعاون ، لتحقيق المثل الأعلى من الحق والعدل •

« ... وقد يقال أحيانا ان أعلى مرحلة من الحرية « الحرية التامة » وهى التى تتحقق بالارتباط بالله الذى هو الحق النهائى ، الذى خلق الطبيعة وأدامها ، وخلق الأفراد وأحسن خلقهم ، ... والذى نحتاج الى مساعدته لتحقيق أى هدف •

(١) فيليب هـ. مينكس . فلسفة التربية . ترجمة محمد إبيب النجبحى . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٤١٣

يعتقد ادن أن أسمى مرتبة للحرية هي التي تعمل على أن تصبح الأهداف العلوية المقدسة أهدافاً للفرد نفسه ، وأن تستمد القوة من المصادر المقدسة اللانهائية لتحقيق هذه الأهداف ، بطريقة مباشرة أو عن طريق الوكالات المادية أو الاجتماعية ، فالحرية التامة ليست استقلالاً إنسانياً ، ولكنها اعتماد واثق على الله وإرادة الطاعة لإرادته » (٢) .

وكان الحرية بهذا ، تسيير وفق محددات وأنظمة وقيم ، تضمن لها تحقيق الرقى داخل الجماعة الإنسانية . ولما كانت التربية وسيلة لتعميق مفهوم الحرية لدى الفرد والجماعة ، كانت التبعية كبيرة وضخمة على النظام التربوي المتبع داخل الجماعة .

ونظرة في النظام التربوي ، والمنهج الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم في أعداد الرعيل الأول من المسلمين ، ترينا قمة التطبيق الأسمى لبناء مسلم حر ، في نفسه ، في ماله ، في إرادته ، في عمله ، في تفكيره ، في شعوره ، ووجدانه . وبالجملية حر في شخصيته كلها ، في إطار النظام والتشريع الإسلامي ، والذي يقوم على مبدأ « لا ضرر ولا ضرار » .

بهذا استطاع المسلمون أن يقيموا دولة ، وأن يشيدوا صرح أمة من أعظم الأمم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣) .

والإسلام الذي حرر العبيد وأطلق سراحهم ، وسوى بين الناس جميعاً عزز قيمة الحرية ، وأكد على تدعيمها في كل مسلم ، فلا عدالة بدون حرية ، قال تعالى : « أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (٤) .

وبناء على هذا ، جاء دور التربية بمناهجها وطرق التدريس فيها ، لتؤدي دورها في تحقيق هذا الهدف ، وهذا ما سيحاول البحث أن يجيب عليه ، مع التركيز بشكل خاص على التربية الإسلامية .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٦ ، ٤٣٧

(٤) النحل : ٩٠

(٣) آل عمران : ١١٠

* تساؤلات البحث :

سيحاول البحث أن يجيب على الأسئلة التالية :

- (أ) ما هي مفاهيم الحرية وأبعادها ؟
 (ب) ما هو الدور التربوي في بناء الحرية من وجهة النظر الفلسفية ؟
 (ج) ما هي نظرة الاسلام الى الحرية ؟ وكيف تبني في المنهج التربوي الاسلامي ؟

أولاً - مسميات ومفاهيم حول الحرية :

حتى يمكن تحديد نوع الحرية الدقيق ، الذي يوافق الاسلام ، جوهرها ومضمونها ، لا بد من التعرض للمسميات والمفاهيم التي تتردد كثيراً في هذا المجال وكل مسمى هو في حقيقته تعبير عن اتجاه نابع من الفلسفة العامة التي يتبنّاها هذا الاتجاه .
 وفي هذا الصدد سنتعرض لمفهوم الحرية على الاطلاق ، ومفهوم الحرية في الاسلام .

(١) مفهوم الحرية على الاطلاق :

يذكر الشيخ محمد رضا في معجم هتن اللغة ص ١٧٦ أن المصطلح اللغوي للحرية أنها : « الأرض الرملية * وحرية اللقوم : أشرفهم وخالصتهم ، والحر : الكريمة من النساء ضد الأمة (وهي جمع) حرائر ، ومن صفحة العنق : موضع مجال القرط ، ومن ليالى الشهر : أولها ، ومن السحاب : الكثيرة المطر » (٥) .

وفي محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني ص ٣٧١ يذكر أن « العبد بحر حراراً أعنتق ، وتحرير الكتاب يعنى تقويمه وتحسينه ، وتحرير الوزن يعنى ضبطه بالتقويم ، وهي *** الخروج عن رق الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار ولها مراتب ، وهي حرية العامة من رق الشهوات وحرية الخاصة من رق الرسوم والآثار *** والمحور من غلب على مزاجه حرارة غريبة فأطرحته عن طريق الاعتدال » (٦) .

أما المصطلح اللغوي للحرية في اللغة الفرنسية فيعنى : « حرية أخلاقية أولاً ، وتعتبر الحرية بمثابة وجهة النظر الأخلاقية التي

(٥) جميل م . منبنة . مشكلة الحرية في الاسلام ، المشكلة الفلسفية ، دار الكتاب اللبناني . بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ م ، ص ١٨
 (٦) المرجع السابق ، ص ١٨

تدعمها كشرط أساسى الحرية الطبيعية ، وهى حرية الفكر التى تتحدد على أنها غياب أى اهتمام (خارجى) يعوق الارادة أو الذكاء * وهى حرية سياسية وتتحدد على أنها وضع شعب لا يتلقى أية سيطرة اجنبية » (٧) *

والحرية بمفهومها العام نوعان : داخلية وخارجية :
فالحرية الداخلية : تعنى حرية الاختيار والارادة بين أمرين متضادين ، وهى تكون أعلى عند الانسان البالغ منها عند الطفل ، كما تكون عند العاقل والسليم أعلى منها عند المجنون والمريض ، والخارجية : تعنى حرية طبيعية وحرية مدنية وسياسية وحرية دينية وفكرية ، وحرية صناعية وتجارية ، وحرية عمل ، وحرية نقابات *
وتتجمع تلك الحريات تحت ما يسمى فى العصر الحاضر « بالحرريات العامة » وهى : جميع الحقوق المعترف بها للأفراد والجماعات تجاه الدولة وسلطانها (٨) *

وأما مفهوم الحرية فى المصطلح الفلسفى ، فيختلف باختلاف المدارس الفلسفية ، وهى : « ارادة سبقتها روية مع تمييز * وأما فى علم النفس فالحرية قد تعنى القدرة على تحقيق فعل أو امتناع عن تحقيق فعل دون الخضوع لأى ضغط خارجى : وهذا ما يقابل مفهوم الضرورة والجبرية * أما حرية الاختيار أو القدرية فهى قدرة الانسان على اختيار أفعاله * وهناك حرية الاستواء أو عدم الاكتراث ، وكان المدرسيون والديكارتيون يطلقون هذا الاصطلاح على تساوى الامكان فى الفعل وعدم الفعل » (٩) * « والحرية هى حالة الكائن الانسانى الذى يحقق فى أفعاله طبيعته الحقيقية ، المعتبرة أساسا ، مجسدة فى العقل والخلق * وبهذا المعنى فان كلمة حرية هى مصطلح معيارى محض يميز حالة مثالية ، حيث تكون الطبيعة الانسانية محكومة بشكل نهائى بما ينطوى فيها من عنصر متسام كما يذهب الى ذلك « اسبينوزا » و « المدرسة الرواقية » (١٠) *

وكل فرد هو على الاطلاق يريد ويفكر ويرجو ويعمل ، ولكن يستحيل أن يستقل عما يحيط به ، فالارادة الأولية الوقتية ، تكون فى

(٧) المرجع السابق ، ص ١٨ ، ١٩

(٨) المرجع السابق ، ص ١٩ (٩) المرجع السابق ، ص ٢٠

(١٠) المرجع السابق ، ص ٢٣

بدايتها على شكل خاطر ، وهى تختلف عن الارادة الحقيقية التى يهذبها التفكير والنقد وظروف المجتمع . فكل رغبة يريد المرء تحقيقها ، لا يلبث أن ينقدها بفكره ، حين ينظر فى النتائج التى ستترتب على تلك الرغبة ، وحين يدرك ما سيعترض سبيله من رغبات الغير وآمالهم ومجهوداتهم وحينئذ يحدث تعديل فى الرغبات بالاتفاق الضمنى أو الارادة المشتركة . « فإذا بحثنا فى الحرية ، فلا يصح أن نتصور فردا مجردا عن طبيعة الاجتماع كان له يوما ما وجود غير اجتماعى وأن هذا الاجتماع طرأ عليه فانتقص من حريته ، وانما يجب اعتبار الحياة الاجتماعية فى الانسان بوجوده الفردى ، وأن هذه الحياة كائن ينمو ويتطور ليلبغ ما فى طبيعة الانسان من رقى . اذن تعديل الرغبة التى تكون فى شكل خاطر لدى أول سنوحها ليس فى الحقيقة تقييدا ، وانما هو فى الواقع تطور ورقى بها وتحويلها من طريق ارادة الفرد الى ملتقى الارادات أو ارادة الجماعة باعتبارها كلا غير قابل للتجزئة » (١١) .

والحرية كما يراها أحد أساتذة الاجتماع ، أن يكون المرء نفسه ، ولكن كيف يكون المرء نفسه ؟ لن يكون كذلك الا اذا تمكن فعلا من الوصول الى ما يريد حقيقة لا ما يظن أنه رغبته . والفرد وحده لا يمكنه أن يدرك حاجته الحققة أو رغبته الا بوسيلة الائتلاف بالجماعة فيكون من مجموع الارادات ، ارادة عامة تدرك مصلحة الجماعة ورغبتها الحققة . « والكل (مجموع الأجزاء) يكون أقوى وأقدر على تحقيق الرغبة العامة اذا كانت الارادات الجزئية قوية وهذه تكون أقوى ما يمكن اذا كانت القوى القائمة بعملية تعديل الارادات الجزئية أقل ما يمكن ، ولن يكون هذا الا بالنهوض بالتربية واتساع الصدر للنقد ورقية » (١٢) .

(ب) مفهوم الحرية فى الاسلام :

كفل الاسلام للفرد المسلم الحرية فى كل الجوانب ، التى من شأنها ضمان الاتساق والتكامل فى شخصيته ، بحيث يتحقق للطبيعة الانسانية كل متطلباتها البدنية والروحية والعقلية والعاطفية والاجتماعية والجمالية

(١١) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٨
(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٩

والثقافية . وسنتناول بالتفصيل فيما يأتى مفهوم الحرية فى العقيدة .
فى التفكير ، فى الرأى ، فى العمل ، فى نظم الحكم ، وفى الوجدان .

١ — حرية العقيدة : الحرية فى العقيدة والحرية الدينية . هما جناحا الحرية الفردية ، ولقد تكفل الاسلام بحرية العقيدة ، بل وجعلها فى الدرجة الاولى . قال تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١٣) كما جاءت الحرية الدينية فى الدرجة الثانية ، قال تعالى : « لا اكراه فى الدين » (١٤) فاذا التزم الفرد بحريته فى الاعتقاد مطبقا حريته الدينية كانت التكاليف جميعها هى المعبر الحقيقى عن حريته الاجتماعية (١٥) .

بهذا أتاح الاسلام للفرد حرية العقيدة ، وهو فى دار الاسلام ، وتحت حكمه ، طالما أن هذا الفرد قد بينت له دعائم الاسلام ودعى اليه . فاذا فضل الاسلام واختاره ، فقد سعد ونجا ، وان اختار الاستمرار على دينه وعقيدته فقد فضل الشقاء والكفر والعذاب والضلال والنار ، وقامت عليه الحجة ، وسقط عذره أمام الله عز وجل .

وحيت قد مارس هذا الفرد حريته واختار العقيدة التى يرغبها ، عليه أن يلتزم بدفع الجزية ، على شرط أن لا يتعرض للإسلام والمسلمين . بنوع ما من الضرر ، وفى نفس الوقت فهو يخضع لأحكام الدولة الاسلامية .

وأما من أسلم ثم ارتد ورجع فى اسلامه ، فقد استوجب القتل ، لأنه رجع عن الحق الذى تبينه وعرفه ، وأقر به ، الا أن يتوب ويعود الى الاسلام (١٦) . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم » (١٧) .

وفى معنى محبة الله لعباده الواردة فى الآية يذكر الامام البيضاوى :

(١٤) البقرة : ٢٥٦

(١٣) الكهف : ٢٩

(١٥) جميل م . منيمة . مشكلة الحرية فى الاسلام ، المشكلة الاجتماعية . دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ م ، ص ٥

(١٦) عبد الرحمن بن حماد آل عمر ، دين الحق ، الرياض ، مطابع الرياض ، ١٣٩٥ هـ ، ص ٦٦ ، ٦٧ (١٧) المائدة : ٥٤

« فسوف يأتي الله بقوم مكانهم ، ومحبة الله تعالى للعباد ارادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة ، ومحبة العباد له ارادة جماعته والتحرز عن معاصيه » (١٨) .

وإذا كان الاسلام قد تشدد في شأن المرتد ، فقد أباح لغيره من غير المسلمين من أهل الكتاب ، حرية الزواج والطلاق والنفقة وفقاً لعقيدته . يتصرف فيها كما يشاء دون قيد أو حد . كما ضمن الاسلام نسون كرامته ، وحفظ حقوقه ، واقراره على المناقشة والجدال في حدود العقل والمنطق . والتزام الآداب والبعد عن الخسونة والعنف . كما أن المرأة اليهودية أو النصرانية تحت زوج مسلم ، أقرها أن تمارس شعائرها الدينية دون أن يمنعها زوجها (١٩) .

والاسلام بهذا المنهج وفر لغير أهله حريات كثيرة بجوار حرية الاعتقاد ، كحرية التملك وحرية التعليم .

ولكن ثمة قاعدة أساسية ، ومدارا جوهريا ترنكز عليهما حرية العقيدة ، حتى لا تنتفضي الفوضى ويفسد النظام ، وتعم الهمجية ، لا في مجال الواقع فحسب ، بل في مجال القانون كذلك ، هذه القاعدة هي الالتزام ، الذي يعد بمثابة العنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي ، والذي قد يؤدي ففقه الى سحق الحكمة العملية ، ذلك أنه اذا لم يكن هناك الزام ، فلن تكون هناك مسئولية ، واذا انعدمت المسئولية ، سادت الهمجية ، وعمت الفوضى (٢٠) .

في ضوء هذه القاعدة وهذا المبدأ (الالتزام) نبه القرآن وحذر من اتباع الهوى دون تفكير : « **ولا تتبع الهوى فيضلك** » (٢١) « **فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** » (٢٢) كما حذر من الانقياد الأعمى ، والخضوع الذي

(١٨) الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي « **المآثر الثمينة وأمنزار التأويل** ، المسمى تفسير البيضاوي » دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ ، ص ١٥٣

(١٩) السبيل سابق ، عناصر القوة في الاسلام ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٨ ط ٢ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩

(٢٠) محمد عبد الله هراز ، دستور الأخلاق في القرآن ، دراسة مقارنة للأخلاق النخيرية في القرآن . تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين . مؤسسة الرسالة ، دار البحوث العلمية . الكويت ط ١ ، ١٩٧٣ ، ص ٢١

(٢٢) النساء : ١٣٥

(٢١) سورة ص : ٢٦

لا مبرر له ، سوى اتباع الآباء ، دون تفكير أو روية • قال تعالى :
**« وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا
 آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون »** (٢٣) • وهل يقدم الذين يريدون
 السير على سنة أسلافهم على الانقياد لهم دون تمييز حتى ولو
« كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (٢٤) •

والفرد لديه العقل الذي هو عنصر خلقى تكمن فيه عناصر ومكونات
 الشخصية المستقلة ، القادرة على المقارنة والتفويم والاختيار والحرية
 والمشروعية (٢٥) •

والاسلام حين يؤسس المجتمع المؤمن في وحدة واحدة • لا تقبل
 الانقسام الى وحدات جزئية ، يؤسس ذلك في ظل وحدة العقيدة
 والشرعية • فحين أباح حرية العقيدة ، منع قيام غير المسلمين على
 الحكم ، بل وحد من نظام التحالفات ضمانا لوحدة المجتمع وسلامته ،
 فلا يمكن أن تبني حرية العقيدة بدون مضامين وحدود تصون المجتمع
 المؤمن وتضمن له وحدته وتماسكه •

فلا يباح اتخاذ غير المؤمنين أولياء • قال تعالى : **« يا أيها الذين
 آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا
 لله عليكم سلطانا مبينا »** (٢٦) • ويؤسس القرآن هذا المبدأ حتى لا تشيع
 البلبلة حزبا على وحدة الجماعة المؤمنة • وإذا تعددت الطوائف فإن
 الاسلام وضع ما يسمى « بالتقية » قال تعالى : **« لا يتخذ المؤمنون
 الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء
 الا أن تتقوا منهم تقاة »** (٢٧) • يعنى على رأى الزمخشري في الكشف
 (ص ٣٥١) : **« الا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه »** • وبهذا
 يمكن ترسيخ وحدة الجماعة المؤمنة من جهة ، كما يمكن ضمان حريتها
 من جهة ثانية ، طالما حرم الاسلام تولى غير المسلمين قيادة المؤمنين ،
 وهذا مما يؤكد ويقوى قوله تعالى : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء
 بعض »** (٢٨) •

(٢٤) البقرة : ١٧٠

(٢٣) الزخرف : ٢٣

(٢٦) النساء : ١٤٤

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٢٥

(٢٧) آل عمران : ٢٨

(٢٨) مشكلة الحرية في الاسلام ، المشكلة الاجتماعية • مرجع سابق

ص ٨ ، ٩ — والآية من سورة التوبة : ٧١

والاسلام حين يؤسس وحدة المجتمع وتماسكه ، على أساس حرية العقيدة ، لم يرغم أحدا على اعتناق الاسلام ، بل ترك للفرد حرية الاختيار ، فلا قهر ولا ارغام بل عرض لحقائق الاسلام ، وترك الانسان نفسه ليميز بين ما هو عليه وبين دين الاسلام .

ولقد حاول بعض الصحابة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يرغموا أناسا بأعينهم على اعتناق الاسلام ، فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاتجاه وهو في مركز القوة ، بل واتسمزت نفسه من هذا الوضع الوحشي المخيف ، الشديد الخطر على حقائق الدين . حتى في ممارسة العبادة ، لغير المسلمين ، ممن يقدمون الى بلاد الاسلام لسبب ما ، وحتى في أماكن عبادة المسلمين ، وفي الحالات الطارئة أجاز الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفد نجران من النصارى أن يصلوا بمسجده ، حين حانت صلاتهم ، بالرغم من اعتزام الناس منهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « دعوهم » فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم .

وسار على المنهج ذاته ، خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعمرو بن عبد الله عنه ، يقول للعجوز النصرانية : « آيتها العجوز أسلمى تسلمى ، ان الله تعالى بعث محمدا اليها بالحق » فتقول العجوز : « وأنا عجوز كبيرة ، أموت عن قريب » ؟ فلا يملك عمر وقد جرده رفق الاسلام من بطشه المعروف ، الا أن يقول : « اللهم فاشهد ، لا اكراه في الدين » . وحين لم يسترح أحد حكام المسلمين ، في بعض أطوال التاريخ الاسلامي ، الى اعتناق الأقليات دين الاسلام ، لأنه يكسر الخراج ويخذ من الجبايات ، اضطر عمر بن عبد العزيز ازاء هذا أن يكتب الى هذا الحاكم المسلم مستنكرا عليه ذلك : « ان محمدا بعث هاديا ، ولم يبعث جابيا » . وفي عهد الدولة العباسية لم يكن يقبل الاسلام من أحد الا بوثيقة أمام القاضي ينفي فيها جميع شوائب الاكراه (٢٩) .

٢ — حرية التفكير : طالما أن الانسان هو موضوع التربية ، فان قيمة المصدر التربوي تقاس بمدى احترام هذا المصدر لعقل هذا الانسان ، فبالعقل يتمكن الانسان من التأمل والفهم والتدبر والتعليم .

(٢٩) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية . المرجع

ومن هنا جاء القرآن الكريم مشيدا بالعقل . معولا عليه في أمر العقيدة والتكليف ، والاشارة الى العقل تأتي مباشرة دون اقتضاب أو تلميح مؤكدة جازمة في كل معرض من معارض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التي يبحث فيها المؤمن على أن يحكم عقله أو يلوم المنكر على اهمال عقله وقبول الحجة عليه .

« ولا يأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يترجمها علماء النفس ، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص » (٣٠) . قال تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (٣١) ، يعنى الفقه والعقل واصابة القول . وقال تعالى : « فانتقوا الله يا أولى الالباب لعلمكم تفعلون » (٣٢) .

وقال تعالى : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » (٣٣) أى ذو عقل . وقال تعالى : « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » (٣٤) أى عقل . وقال تعالى : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » (٣٥) . وقال جل شأنه : « لينذر من كان حيا » (٣٦) أى عاقلا . وقال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (٣٧) . وقال سبحانه في سورة النحل : « ان في ذلك لآية لقوم يفكرون » (٣٨) « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٣٩) « ان في ذلك لآية لقوم يسمعون » (٤٠) .

ويستذكر القرآن الكريم على الكفار عدم اهتدائهم للإيمان ، لأن آباءهم لم يأتوه ، فهم يسبرون على منوال آباءهم ويستهدون بهم فيقول لهم : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (٤١) . وهو استنكار صريح وواضح للتقليد دون تحكيم العقل . « يقول الشيخ محمد عبده ، تعليقا على هذه الآية : عقل الشيء معرفته بدلائله وفهمه

(٣٠) سعيد اسماعيل على ، أصول التربية الاسلامية . دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٧

(٣٢) المسائدة : ١٠٠	(٣١) لقمان : ١٢
(٣٤) سورة ق : ٣٧	(٣٣) الطلاق : ٢
(٣٦) يس : ٧٠	(٣٥) الروم : ٢٨
(٣٨) النحل : ١١	(٣٧) النحل : ٤٣
(٤٠) النحل : ٦٥	(٣٩) النحل : ١٢
	(٤١) البقرة : ١٧٠

بأسبابه ونتائجه ، وأقرب الناس الى معرفة الحق ، الباحثون الذين ينظرون في الدلائل بقصد صحيح * . لأن الباحث المستدل اذا أخطأ يوماً في طريق الاستدلال أو في موضوع البحث فقد يصيب في يوم آخر ، لأن عقله يتعود الفكر الصحيح واستفادة الطالب من الدلائل ، وأبعد الناس عن معرفة الحق ، المقلدون الذين يبحثون ولا يستدلون ، لأنهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم ، فهم لا يوصفون باصابة ، لأن المصيب هو من يعرف أن هذا هو الحق ، والمقلد انما يعرف أن فلانا يقول أن هذا هو الحق ، فهو عارف بالقول فقط ، ولذلك ضرب الله لهم المثل في الآية بعد ما سجل عليهم الضلالة بعدم استعمال عقولهم « (٤٢) » .

وفي ضوء هذه المنهجية حول احترام العقل ، نهى الأئمة الأربعة عن الأخذ بأى من آرائهم وأقوالهم دون معرفة دليلهم معرفة يقينية * . يقول الفقيه أبو الليث السمرقندى : حدثنا ابراهيم أبى يوسف عن أبى حنيفة أنه قال : لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أبى قلناه * . كما أجاب عصام بن يوسف عن مسألة كثرة خلافه لأبى حنيفة قال : ان أبأ حنيفة أوتى ما لم نؤت ، فأدرك فهمه ما لم ندركه ، ونحن لم نؤت من الفهم الا ما أوتينا ، ولا يسعنا أن نفتى بقول ما لم نفهم من أين قال (٤٣) * .

والاسلام يدعم حرية التفكير وبناء العقل السليم في سبيل بناء المسلم الصحيح القوى * . واذا كانت العبادات تعمق الايمان في القلوب ، فان التفكير السليم الحر يفتق الذهن ويصقل العقل ويجليه * .

فوسيلة العلم العقل ، وبه يصل المرء الى الايمان بالله تعالى * . ولا شك أن حرية التفكير بتلك الصورة تضع مبدءاً هاماً في التطبيق التربوي بالنمط التالي :

١ - عدم التقولب في قوالب الفكر التربوي ، كما تشكلت المفكرين السابقون ، حتى لا تكون قيدياً يحد من حركتنا في رؤية الاختلافية بين مجتمع اليوم ومجتمع الأمس * .

(٣٥) ١١٠٠٠

(٣٦) ١١٠٠٠

١١٠٠٠ ٥٢ - ١١٠٠٠

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٢٩

٢ — استخدام العقل بصفة دائمة ومستمرة ، لمواجهة متغيرات تحدث في المجتمع ما دامت نبت المجتمع ومن غرسه *

٣ — ممارسة النقد البناء لصالح المجتمع بكل جرأة (٤٤) *

بتلك الصورة المشرقة للإسلام ، بنيت الدعوة الإسلامية بعد أن حررت العقول من الظلم والظلمات ، ووقتها سهل الصعب وتيسر العسير ، وانطلق العقل من عقالة ، وتخلص من جموده ليواجه منذ اللحظة الأولى عبدة الأوثان والأصنام ويرشدهم إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى *

لذلك خلصهم الإسلام من التقاليد الموروثة عن الآباء ولفت الأنظار إلى اله قادر « ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه » (٤٥)

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٤٦) *

٣ — حرية الإرادة والرأى : هذا الكون الذى يعيش فيه الانسان خاضع لقانون طبيعى ، فهو عالم المتتابعات من الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات * فكل ما فى الكون مرتبط ببعضه ببعض ارتباط السبب بالمسبب * فما يحدث الآن نتيجة لما سبق وسببا لما يلحق * وهذا هو قانون الطبيعة الذى جعله الله فيها لتخضع له وتسير عليه باطراد * ولعل الكثير من الآيات الدالة على الجبر لا تشير الا الى هذا القانون الطبيعى ، وحركات الأفلاك وحوادث الطبيعة وسائر أنواع الخليقة لها طريقها المرسوم الذى يخضع لهذا القانون *

أما الآيات التى تشير الى الانسان بنوع خاص على أنه مجبور فى أفعاله فتفهم على ضوء الآيات الأخرى التى تؤكد فاعلية الانسان ، وعلى ضوء ما عرف الإسلام من أن الانسان مسئول عن أفعاله الاختيارية *

وخير شاهد على هذا ، قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٤٧) فتدل الآية على أن الله لا يغير ما بقوم حتى يوجبوا هم حالات تؤدى الى هذا التغيير ، فالفعل المنسوب الى الله مسبوق بفعل الانسان بيد أن الآية فى عجزها تنص على أنه « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » (٤٧)

(٤٤) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ (٤٥) الأنعام : ١٠٢
(٤٦) محمد عبد الله السمان ، المعانى الحية فى الإسلام ، دار الاعتصام
ص ٣٥ — والآية من سورة الملك : ١٤ (٤٧) الرعد : ١١

وعجز الآية لا يتناقض مع صدرها مما قد يظن ، لأنه ليس الا تصريح بأمر مطوى ، والآية في جملتها تقول : « اذا غير القوم ما بأنفسهم نحو السوء مثلا ، فلا بد أن يحل بهم الهوان ، ولا يملك أحد أن يدفع عنهم هذا المصير لأن خالق الكون وخالق قوانينه ، جعل هذه القوانين مؤدية الى نتائجها • فالقتاب اذن هو تغييرات يحدثها الانسان بارادته ، فتؤدى الى تغييرات أخرى في حياة الانسان ، بحكم هذا القانون العام » (٤٨) • ولعلنا نلمس في الآية السابقة ، روح الجماعة ومسئولياتها تجاه مستقبلها ومقومات حياتها • ومهما تبذل الدولة — أى دولة — من جهد فى توزيع الدخل على الأفراد فانها بما ستبذله من جهد وتضحية سيكون مخلا بمقتضيات العدل والنفع الاجتماعى ، مع أنها تباشر مسئولياتها فى حرية وتعلن رأيها فى حرية وتقول كلمتها فى أمن ، فلا مندوحة حينئذ من أن يظفر المجتمع بنفس الفرصة فيفكر بحرية ويمارس مسئولياته ويقول رأيه من غير خوف •

ومن هنا فخير سياج للدولة لى تحفظ الوطن وتصوره وتضمن له الانتصارات هو اشراك الشعب فى المسئولية فيكون واعيا بمشاكله ، قادرا على فرض كلمته وارادته • من هذا المنطلق كفل الاسلام الحرية لكل فرد ، الحرية أن يفكر ويرى وفقا لما يقتضيه فهمه ويمليه عقله • وهذا ما يطلق عليه « الاجتهاد » (٤٩) •

والاجتهاد هو : « بذل الجهد فى استخراج الأحكام من شواهدا الدالة عليها بالنظر المؤدى اليها » •

فاذا عرضت قضية ليس فيها نص من كتاب أو سنة أو اجماع ، فان الكتاب والسنة قد أقرأ بالاجتهاد كأصل رابع من أصول الشريعة • قال تعالى : « **أنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** » (٥٠) وقوله أيضا : « **ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** » (٥١) وقوله تعالى : « **كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون** » (٥٢) ، وجاء فى

(٤٨) سعيد اسماعيل على ، أصول التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ، ٣٦

(٤٩) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، مرجع سابق ص ١٤١ ، ١٤٢
(٥٠) النساء : ١٠٥
(٥١) النحل : ١١
(٥٢) الروم : ٢٨

السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه الى اليمن : « بم تقضى » ؟ قال : بما في كتاب الله ، قال : « فان لم تجد في كتاب الله » ؟ قال : أقضى بما قضى به رسول الله • قال : « فان لم تجد فيما قضى به رسول الله » ؟ قال : أجتهد برأى • قال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله » •

ومن ذلك يتبين أن هذه الآيات والأحاديث دالة على أن الاجتهاد أصل رابع في الشريعة وأنه يسمى : بالاجتهاد ، وبالرأى ، وبالعقل (٥٣) • من هذا المنطلق أمثلاً القرآن الكريم بالآيات الكثيرة التي تتضمن حرية الارادة والاختيار فيما يعرض للمسلم ، ما دام ذلك لا يتعارض مع شرع رب العالمين • قال تعالى : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين » (٥٤) وقال جل شأنه : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعا بصيرا » (٥٥) • وقال تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا • وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكم أجرا عظيما » (٥٦) •

أما السنة المطهرة فقد امتلأت كلها بحرية التعبير عن الرأى والنقد البناء ، وكانت السنة قمة في هذا الباب قولاً وعملاً • فحين نزل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر سألته الحباب بن المنذر الأنصاري : أمزل أنزلك الله آياه ؟ أم هي الحرب والمكيدة والخديعة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « بل هي الحرب والخديعة » ويشير الصحابي الى منزل جديد. فينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأيه • وفي غزوة أحد ارتأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحصن المسلمون بالمدينة وقد كانوا قراة ، الألف ، بينما كان المشركون ثلاثة آلاف مقاتل • وقد كان هذا الرأى من النبي صلى الله عليه وسلم مؤسسا على أن جيش المشركين اذا نزل بجبل أحد (خمسة أميال من المدينة) فقد نزل المشركون بشر مقام ، وان دخلوا المدينة قوتلوا وحوصروا وكانت للمسلمين الغلبة ،

(٥٣) محمد معروف الدواليبي . المدخل الى علم اصول الفقه . دار الكتاب الجديد (ط ٥) ١٩٦٥ ، ص ٥١ ، ٥٢ .
(٥٤) آل عمران : ١٤٥
(٥٥) النساء : ١٣٤
(٥٦) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩

حيث يصبح جيش المشركين في موقف صعب ، لجأ خبرتهم من أمامهم ومن فوقهم • فمن أمامهم مقاومة جيش المسلمين ، ومن فوقهم رمى النساء والأطفال بالحجارة • وحين ارتأى الكثرة من الصحابة الخروج للمتركون بأحد ، نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأيهم وكان ما كان من تضيق الخناق على المسلمين في تلك العزوة مما أدى إلى الحاق الهزيمة بجيش المسلمين •

ومع هذا لم تترك تلك المشورة أثرا في قلب النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بمبدأ المشاورة والأخذ بالآراء بالرغم من تلك النتيجة التي خلفتها تلك المشورة (٥٧) • وإذا كانت المشورة حقا للناس ، إن بتشاوروا فيما يعين لهم من أمور فإن الإسلام كفلا للإنسان كذلك حريته في أن يكتمل بنيانه العضوي بلقمة العيش التي تقيمه رجلا أو امرأة ويكتمل كذلك أمنه على حياته ورزقه وبيته وكرامته وأهلكه •

وليس من شيء ينقص الرجال ويذل الجياد إلا الفقر والخوف • ومن عجب أننا نقرأ آيات من القرآن الكريم ، نقرأها وكأننا ما مررنا بها ، مع أنها تتضمن في ثناياها هذين الأصلين ، التحرر من الخوف والفقر • في مثل هذه الآيات نجد دستور الحرية الذي هو أساس الأمن • قال تعالى : « لا يلاف قريش • أيلافهم رحلة الشتاء والصيف • فليعبدوا رب هذا البيت • الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (٥٨) • وعدم وصولنا إلى فهم هذا الدين والوقوف ترويا ونفسيا منه نتج عن تغافلنا في فهم منهجه وعدم أعمال فكرتنا في مضامينه (٥٩) •

ولقد طبق الخلفاء الراشدون منهج الحرية في الرأي والأرادة ، سواء للفرد أو الجماعة ، وفور أن بويج أبو بكر رضى الله عنه بالخلافة لفت أنظار المسلمين بل وطالبهم جميعا بتتبع أفعاله وأقواله بهدف النقد والوصول إلى الكلمة الفصل والرأي الصواب في كل ما يجد من أمر يمس مصلحة المسلمين • وصعد أبو بكر الصديق المنبر وخطب الناس قائلا : « لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ،

(٥٧) محمد رافت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام ، مطبعة السعادة ، ط ٢ ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٨٥ ، ٨٦
(٥٨) قريش : ١ - ٤
(٥٩) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤

وإن أسأت فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم» (٦٠) .

ولقد سار عمر بن الخطاب رضى الله عنه في نفس المنهج واتبع نفس الخطوات وطالب الناس أن يعينوه على الحق وإن يقوموه إذا أعوج في سلوكه ، حينئذ ينهض أعرابي فيقول : « والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » ، فيشرح لذلك صدر عمر ويقول : « الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم عمرا بسيفه » . وعمر نفسه يخطب الناس قائلاً : « أيها الناس .. اسمعوا وأطيعوا » فيقف أعرابي ليقول : « لا سمعاً ولا طاعة يا عمر » ويستقبل أمير المؤمنين الأمر بالبسملة ، فالأمر لا بد يستحق النظر ، والا لما تجرأ هذا الأعرابي ليسوق هذا القول ، ويسأل عمر : « يا أبا العرب .. لم هذا » ؟ ويرد الأعرابي متهما الخليفة بعدم التوزيع العادل للأقمشة التي تصنع منها الثياب ، حيث رأى هذا الأعرابي ، ثوب عمر رضى الله عنه في كفاية ، بينما لم تكفه قطعته ليصنع منها ثوباً على قدمه . حينئذ استدعى الخليفة عمر بن الخطاب ابنه عبد الله طالباً إياه أن يوضح الأمر ، ويجلى القضية ، فقال عبد الله : « انه أعطى حبرته لوالده ليضمها الي حقه ، حتى يصنع منهما ثوباً يكفيه ويفصل على قدمه » . فهدأت نفس الأعرابي ، وقال : « الآن السمع والطاعة يا أمير المؤمنين » . وتلك مواقف تستحق أن نشيد بها ، لأنها جاءت كبرهان قاطع على ما اتسم به المجتمع الاسلامي من حرية في الرأي بلا بلبلة أو تحريف .

ولقد مثلت الحرية الجماعية أفضل النماذج وأقواها في أخطر أمر يمس مستقبل الأمة ، وهو اختيار الخليفة ، يترك الأمر للتشاور ، وابداء الرأي في حرية كاملة يجتمع المسلمون في سقيفة بنى ساعدة للتشاور ، والقوم كلهم ممثلون في هذا الاجتماع مهاجرين وأنصاراً ، يبدون آراءهم غيماً يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقع اختيارهم على أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

وبمثل ذلك أيضاً تسلم عمر وعثمان وعلى الخلافة ، جازاهم الله جميعاً الخير عن الاسلام والمسلمين (٦١) .

(٦٠) مصطفى الرافعى ، الاسلام انطلاق لا جمود ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩ م ، ص ٤٤

(٦١) محمد رافت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٨٦ ، ٨٧
٧٠

والاسلام بهذا المنهج سبق كل النظم والفلسفات ، في توفير مناخ حرية الرأي والارادة ، مما لا يبقى معه مقارنة تذكر. بأى دين آخر ، أو مذهب فلسفى قديما كان أو حديثا . وما كان ذلك لولا الحصانة والسياج اللذين أحاط بهما الاسلام الحرية بما يضمن لها نجاحها ويحقق لها أهدافها في بناء الفرد المسلم .

٤ - **حرية العمل** : أباح الاسلام اتخاذ العمل كحرفة ، وللمسلم أن يختار العمل الذى يناسبه في حدود الأمور المباحة ، فيكره مثلا اتخاذ بعض الصناعات المؤدية الى اللغو ، كصناعة آلات اللغو وما نسابها ، لأنها تفتح ارتكاب المحرمات ، وهذا فيه حماية ووقاية . وغير المسلم ممن يقطن في ديار الاسلام له حرية اختيار العمل في المجال الذى يناسبه وفي أنواع التجارات التى تتفق مع دينه .

ولقد احترم الاسلام العمل ، بل وقرنه بالإيمان ، « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (٦٢) . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لابنته فاطمة : « يا فاطمة بنت محمد اعلمى فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » وكان صلى الله عليه وسلم يعمل بيده الشريفة ويتقدم الصحابة في العمل ، ويختار من أنواع العمل ما فضل عنهم ، وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يرفع ثوبه ونعله ويحلب شاته وهكذا .

كما كفل الاسلام حرية الانتقال من بلد الى آخر من أجل العمل . اللهم الا في حالات الحرب ، فتقتصر هذه الاباحة للمسلم فقط حفاظا على الأمن والنظام (٦٣) .

واختيار المسلم للعمل ، يكون وفق رغبته واقتناعه بأنه سيبرز في هذا المجال وسيفيد غيره من المسلمين ، وأى عمل مهما قل فلانسان أن يتخذه حرفة ، طالما هو يعين ويساهم في قضاء مصالح الناس ويؤدى الى تيسير أمورهم . والشرط الأساسى هو إتقان العمل والوفاء به على الوجه الأكمل ، والخلوص مما قد يوقع في ارتكاب المحرمات ، كالتطفيف في الكيل وخلاته . قال تعالى : « ويل للمطففين • الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنهم يخسرون •

(٦٢) الكهف : ٣٠

(٦٣) مصطفى الراعى ، الاسلام انطلاق لا جمود ، مرجع سابق ،

خُزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ أَنِّي مُلْكٌ ﴿٢٦٩﴾ وَلَقَدْ عَبرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحَادِيثِهِ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ » وَ « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَأَنِمُوا أَنَا بِشَرِّ » ﴿٢٦٩﴾ .

مِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ كَفَلَ الْإِسْلَامُ الْحَقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسَاوَاتٍ تَامَةٍ • وَلِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعلنَ رَأْيَهُ فِي شُئُونِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي لَا يَلْتَزِمُ الْحَاكِمَ فِيهَا بِشَرعِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • بَلْ وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يَصْبِحَ حَاكِمًا ، أَوْ خَلِيفَةً ، طَالَمَا تَمَتَّ لَهُ الْبَيْعَةُ بِاجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ • وَبِهَذَا وَفَرَ الْإِسْلَامُ لِلْفَرْدِ الْمُسْلِمِ أَحَقِّيَّتَهُ فِي :

أَوَّلًا : الْمِشَارَكَةَ فِي قِيَادَةِ الدَّوْلَةِ عَنْ طَرِيقِ اخْتِيَارِهِ اخْتِيَارًا حُرًّا مِنْ الشَّعْبِ ، أَوْ مِشَارَكَتَهُ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يَرِشَحُ نَفْسَهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ • ثَانِيًا : حَقَّ إِبْدَاءِ الرَّأْيِ وَلَوْ تَعَلَّقَ الْأَمْرُ بِنَقْدِ الْحَاكِمِ •

أَمَّا أَوَّلًا : وَهُوَ الْمِشَارَكَةُ فِي قِيَادَةِ الدَّوْلَةِ بِالْحَكْمِ أَوْ بِاخْتِيَارِ الْحَاكِمِ فَإِنَّ اخْتِيَارَ الْحَاكِمِ يَتِمُّ بِمِيبَايَعَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الْمُمَثِّلِينَ لِلْأُمَّةِ ، أَوْ بِانْتِخَابِهِمْ ، أَوْ بِاسْتِفْتَاءِ عَامِ • وَالْحَاكِمُ بِهَذَا يَسْتَمْدُ سُلْطَاتِهِ مِنَ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ وَكِيلُهَا فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَقَضَاءِ الشُّئُونِ السِّيَاسِيَةِ •

وَلَا غُرُو أَنْ يَكُونَ الْحَاكِمُ مِنْ أَى فِئَةٍ أَوْ أُسْرَةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ ، طَالَمَا نَوَظَرْتَ فِيهِ الْكَفَاءَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى احْتِمَالِ تَكْلِيفِ الْحَكْمِ وَالْقِيَامِ بِأَعْبَائِهِ • وَبِهَذَا فَمَنْ حَقَّ أَى فَرْدٍ فِي الْأُمَّةِ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِشُغْلِ هَذَا الْمَنْصَبِ وَمِنْ حَقِّ أَى فَرْدٍ آخَرٍ أَنْ يَقْبَلَهُ أَوْ يَرْفُضَهُ ، وَإِذَا تَمَّ الْاخْتِيَارُ فَلَا مَجَالَ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْقُضَ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الرَّأْيُ الْعَامِ • وَعَلَى الْحَاكِمِ أَلَّا يَقْضَى فِي أَمْرِ دُونِ أَنْ يَأْخُذَ رَأْيَ الْأُمَّةِ ، لِأَنَّ الْأُمَّةَ أَوَكَلَتْ إِلَيْهِ الْمُتَصَرَّفَ فِي شُئُونِهَا ، فَلَا يَجُوزُ الْمُتَصَرَّفُ دُونَ رَغْبَةِ الْمَوْكَلِ وَوَفْقَ ارَادَتِهِ ، الَّتِي هِيَ أَصْلًا تَأْتِي مُوَافَقَةً لِلدِّينِ ، وَالْخَلِيفَةُ (الْحَاكِمُ) يَقْتَدِي فِي ذَلِكَ بِصَاحِبِ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ • قَالَ تَعَالَى : « وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ » ﴿٧٠﴾ وَالْحَاكِمُ مُلْتَزِمٌ فِي الْحَكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَالرَّجُوعُ إِلَى الْأُمَّةِ فِيمَا يَجِدُ مِنْ أُمُورٍ لَا نَصَّ فِيهَا مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ ، اقْتِدَاءً بِمَا كَانَ يَفْعَلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ •

(٢٦٩) المرجع السابق ص ١٣٦ ، ١٣٧

﴿٢٦٩﴾ هود : ٣١
(٧٠) المائدة : ٤٩

ولا يفوتنا أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يختص في كونه يوحى إليه من عند الله ، أما الحاكم فإن الأمة هي التي اختارته نائباً عنها في القضاء وسياسة أمور الدولة (٧١) .

أما ثانياً : وهو حق ابداء الرأى ولو تعلق بنقد الحاكم ، فإن الشواهد على ممارسة المسلم لهذا الحق كثيرة ، فلقد وقفت امرأة أثناء خطبة عمر رضى الله عنه حين خطب المسلمين يناديهم بتخفيض المهور ، قالت امرأة : « أيعطينا الله وتحرمنا أنفسنا يا عمر » ؟ وقرأت قوله تعالى : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم أحداهن منتظرا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإنما مبينا » (٧٢) حينئذ أجابها أمير المؤمنين : « أصابت المرأة وأخطأ عمر » . وقال عثمان رضى الله عنه : « أمرى لأمركم تبع » .

بهذا اختط الاسلام منهج التكامل لنظام الحكم في الدولة ، سواء الحاكم أو المحكوم . وهذا بلا شك يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية ويوفر الخير والسعادة لأبناء المجتمع دون تمييز أو خصوصيات .

٦ - حرية الوجدان : لا شك أن تحقيق التكامل في شخصية الانسان ، داخله وخارجه ، ظاهره وباطنه ، هدف أسمى من أهداف الاسلام ، لأن المسلم لا يكون منقاداً وراء شهواته ، أو تواقفاً الى ممارسة أعمال تغضب الله رب العالمين ، بل ينبغي أن يعبد الله سبحانه وتعالى كأنه يراه فإن لم يكن العبد يرى ربه فإن الله مطلع عليه ، ويرى جميع أعماله وأقواله . والاسلام يطلق للانسان الممارسة للمباحات في حدود ما شرعه الله تعالى لأن ذلك يتوافق مع متطلبات النفس البشرية ، ويتواءم مع احتياجاتها . وهذا بدوره يكفل السعادة والراحة النفسية والفوز في الدار الآخرة . وفي الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أى الناس أفضل ؟ قال : « أتقاهم » قيل له : ليس عن هذا نسألك ، فقال : « يوسف نبي الله ، ابن يعقوب نبي الله ، ابن اسحاق نبي الله ، ابن ابراهيم خليل الله » . فقيل له : ليس عن هذا نسألك . فقال : « عن معادن العرب تسألونى ؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا

(٧١) السيد سابق ، عناصر القوة في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٧٢) النساء : ٢٠ .

فقها « (٧٣) » . وجاء في القرآن الكريم : « يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » (٧٤) . وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لاسود على أبيض ولا لأبيض على أسود ، الا بالتقوى ، كلکم لآدم ، وآدم من تراب » (٧٥) .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله تعالى أذهب عنكم عيبة (العيبة : الكبر) الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس رجالان : مؤمن تقى ، وهاجر شقى » .

فمن كان من هذه الأصناف اتقى الله فهو أكرم عند الله . وبهذا دل الكتاب والسنة على مبدأ المساواة وأن أكرم الناس عند الله اتقاهم (٧٦) ولما كانت المفاضلة بين الناس تتم بالتقوى ، فإن الاسلام وضع من الفرائض والعبادات ما يربى في الفرد الجانب الروحي والوجداني ، وكانت فرائض الصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر والدعاء بمثابة الروابط التي تربط المؤمن بخالقه ، تشعره أن الله سبحانه وتعالى معه ، يعينه وينصره ، فلا خوف ولا هلع ، ولا يأس ولا قنوط ، بل اطمئنان وثقة في الله رب العالمين لأن الله سبحانه وتعالى قريب من عبده . قال تعالى : « واذا سألک عبادی عنی فانی قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لی وليؤمنوا بی لعلهم یرشدون » (٧٧) .

وهذا جميعه يحيى داخل المؤمن حب الخير ، وصحوة الضمير ، حتى يستطيع مواجهة الحياة بكل ما فيها من واقع لا غنى للانسان عنه .

والاسلام في كل هذا يعترف بمطالبات الطبيعة الانسانية يستثيرها ويعلى من قدراتها وطاقاتها من أجل التحرر الوجداني الكامل والصريح . « وهكذا يأخذ الاسلام الأمر من وجوه كلها ، من مناحيه جميعا ،

(٧٣) رواه البخارى ومسلم . (٧٤) الحجرات : ١٣
 (٧٥) رواه احمد في « المسند » عن أبى نضرة ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .
 (٧٦) ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ ، ص ٤٢ ، ٤٣
 (٧٧) البقرة : ١٨٦

فيكفل التحرر الوجداني تحررا مطلقا لا يقوم على المعنويات وحدها ولا على الاقتصاديات وحدها ولكن يقوم عليها جميعا ، فيعرف للحياة واقعها ، وللنفس طاقاتها ، ويستثير في الطبيعة البتيرية غاية أشواقها وأعلى طاقاتها ويدفع بها الى التحرر الوجداني كاملا صريحا ، فبغير التخثر الكامل لن تقوى على عوامل الضعف والخضوع والعبودية ولن تطلب نصيبها من العدالة الاجتماعية ولن تصبر على تكاليف العدالة حين تعطاها» (٧٨) *

* * *

ثانياً - التطبيق التربوي للحرية من وجهة النظر الفلسفية :

(١) كلمة حول مفهوم الديمقراطية :

ما دهننا سنتعرض بالمناقشة لفكرة الديمقراطية ، كإطار عام تتحرك فيه التربية ، فلا بد أن نلقى فكرة عن نشأة مفهوم الديمقراطية . والكلمة نفسها قديمة ، استخدمها الإغريق القدامى لأول مرة في القرن الخامس قبل الميلاد . كما أنها اصطلاح يوناني ذو لفظين : « ديموس » أى الشعب و « كراتوس » أى السلطة . *

وكلمة الديمقراطية وردت لأول مرة في التاريخ في كتاب « تاريخ حرب البيلوبونيز » للمؤرخ اليوناني توسيديس (٤٦٠ - ٤٠٠ قبل الميلاد) . وقد كشف هذا الكتاب ببراعة عن معنى الديمقراطية في ذهن مفكرى أثينا والتي تتضمن العبارات التالية : « مواطنون أحرار في بلاد حر ، وحكومة اتجاهاتها كاتجاهات القانون المحايد لأنه صواب وحق . وحرية المواطن هي حقه في التقدير والمناقشة والمساهمة وفقا لكفايته الذاتية ومواهبه ، لا لثروته أو طبقته الاجتماعية . وكان الهدف من ذلك كله تحقيق حياة مشتركة واثابة فرصة المراهب الأفراد وملكاتهم ، وأن تحيا الجماعة حياة متحضرة تقوم على أساس من الرهاية المسادية والفن والدين وحرية التقدم الفكرى . وأفضل ما في هذه الحياة المشتركة بالنسبة الى الفرد هو قدراته على الانتاج الثمر وحريته في ذلك الانتاج ، وأن يشغل مكانا ولو كان متواضعا في هذه المهمة السياسية المشتركة وهي حكم المدينة الاغريقية» (٧٩) *

(٧٨) سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الاسلام . مطبعة عيسى البابى الحلبي ، ط ٦ ، ١٩٦٤ م ، ص ٥٠ ، ٥١
(٧٩) سعيد اسماعيل على . ديمقراطية التربية الاسلامية . مرجع أسبق ، ص ٣ - ٥

(ب) التربية بين الالتزام والديمقراطية :

الحرية في المجال التربوي معناها : « إتاحة أكبر مجموعة ممكنة من الخبرات أمام الفرد ، ليتسنى له بالتالى اختيار الخبرة المناسبة واستعداداته الجسمية والنفسية . والحرية أيضا في المجال التعليمي حتى حق ممارسة الخبرات المكتسبة في المختبر والعائلة والمجتمع . . . والحرية في مجالات البحث هي توفير امكانيات البحث النظرى والتطبيقي . . الخ . »
 اذن فنحن ازاء مجموعة من المحددات للحرية على أنها : إتاحة الفرص ، الاختيار ، حق الممارسة ، توفر الامكانيات . . . وبذا تتوفر أمامنا منهجية متكاملة تضم الجانب النظرى الى العملى في مقولة قيض لها أن تشغل ذهن المفكرين منذ انبلاج تاريخ الفكر الانساني ، كما قيض لها أن يكون الدم هو ثمن ممارستها ، وطريق الحصول عليها » (٨٠) .
 واذا كانت التربية تهدف الى تحقيق الحرية لفرد موجه لنفسه ، يتحرك تلقائيا ، واذا كان المثل الأعلى للتربية هو الاستمرار في الالهام الذاتى ، الذى يتعلم الشخص الناضج كيف يوجهه ، اذا كان ذلك كذلك فان تحقيق هذا الهدف يقوم أصلا في سنوات الطفولة المبكرة على أسلوب التلقين .

والتربية يجب أن تتضمن التلقين في برامجها ، وهو الالتزام بكل ما تقرره المؤسسات التربوية في الأسرة وفي المدرسة ، كما تتضمن الديمقراطية ، والقدر الصحيح لكل منهما هو دالة المستوى النضج للمتعلم ومنح الفرد الاستقلال قبل أن تتشكل ذاته تشكيلا محددا يؤدي الى الشعور بعدم الملاءمة مما قد يؤدي الى كفاح طيلة الحياة من أجل تحقيق الأمن والطمأنينة .

كما أن اطالة مدة التلقين والاحتكاك يهدم روح المبادرة والابتكارية ويكون شعورا بالاحباط ، وغضبا يؤدي الى أشكال هدامة من السلوك . وعلى أية حال فالطفل الصغير لا يسمح له بأى صورة أن يحكم نفسه ، بل يجب أن تفرض عليه تحديدات وتحكمات حتى يصبح ذاتا محددة لها طابع وظيفى تستطيع أن تصل الى قرارات مؤدية الى نمو متنسق وانسجام مناسب مع البيئة الاجتماعية والمادية .

(٨٠) جميل م . منبنة ، مشكلة الحرية في الاسلام ، المشكلة الاجتماعية

مرجع سابق ص ١٣٢

لذلك فمراحل النمو الأولى يجب أن تتضمن قدرا معقولا من التحديد وراء الذات ، يتوقف عليه نوع الذات التي ستواجه الحياة فيما بعد .

وقد يبدو أن الحرية والتربية متعارضتان ، خصوصا في المراحل الأولى للنمو وفي حالات الأطفال غير الناضجين . في هذه المرحلة يتحكم المدرس أو الأب في السلوك تحكما كاملا ، وقد يؤخذ الطفل من الشارع ، أو يطلب منه ضد رغبته أن يذهب الى النوم بدلا من أن يبقى مع الكبار . وحتى في حالات الناضجين ومع امكانية منحهم استقلالا أكبر ، فالتعارض وارد أيضا حيث ان السلوك يتحدد ولو على الأقل من الخارج .

والصواب أنه لا تعارض بين الحرية والتربية لأن التربية تكون عديمة الفائدة اذا لم تحدث تغييرات في السلوك وهي في جوهرها تفترض ارتباطا وتأثيرا متبادلا بين الأفراد وعندما يوجه فرد نمو فرد آخر فانه يضع حدودا لنشاط الآخر ، ويمارس تأثيرا في سلوكه (٨١) . وهناك طرفان يتجاذبان الحرية : أما الأول فهو الحتمية بمعنى أن سلوك الانسان يتحدد كلية بالظروف السابقة ، وما يحدث لا بد أن يحدث والحقائق هي الحقائق وهي ليست أفضل أو أسوأ .

والتربية من هذه الزاوية جزء من الحياة في هذا التسلسل الحتمي ، كما أنها ليست وسيلة لتطوير الحياة الانسانية ، سوى كونها طريقة للتحدث عن الاتجاهات العاطفية نحو مجرى الأحداث الحتمي . وبهذا فالحتمية تهدم الباعث على المخاطرة الخلاقة وتؤدي الى روح من التسليم بقدر محتوم ، وهي بذلك تهدم الدوافع وتبعثر الجهود التربوي ، ويمكن أن نطلق على هذا الاتجاه الالتزام والجبر .

أما الطرف الثاني الذي يتجاذب الحرية : فهو الانطلاق (الديمقراطية) وصاحب هذا الزاى ينظر الى المستقبل على أنه مفتوح ، والتربية طريقة لتقديم البدائل الحقيقية وتقديم أفضل الطرق مقارنة بضدها . والهدف من هذا الزاى هو المساعدة على تحديد القرار النهائي في هذه الناحية أو تلك . والنتيجة في يد من يختار فقد يختار الأسوأ لا الأفضل مهما كان اغراء الآخر .

(٨١) فيليب هـ. فينكس . فلسفة التربية ، ترجمة محمد لبيب النجى
مرجع أسبق ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

وهذا الرأي يسهم في أن يجعل الفرد من حياته شيئا مذكورا ، ويمكن أن يواجه المستقبل ، ولن يكون كذلك اذا ما تحدد المستقبل من الآن • والتربية بذلك عليها تقديم البدائل الحاضرة التي يستطيع الفرد أن يختار من بينها • والمربي الذي يخدم الحرية الانسانية تكون عليه مسئولية محددة لعرض طرق معينة للحياة يعتقد بصفة خاصة أنها تستحق الاختيار • وهو يعرضها للنظر والاعتبار •

وبهذا فالمربي بما يبذله من جهد لا يستطيع أن يحدد تماما حياة أولئك الذين يعمل على توجيههم (٨٢) •

والتربية بطريقتها : الحتمية أو الانطلاق ، لا بد أن تتضمن المستقبل كما تتضمن الماضي ، فالفرد يكون حرا اذا استطاعت أهدافه الخاصة بالمستقبل أن تحدد سلوكه •

وفي هذا الاطار فقيام المعلم بتقديم برامج عمل أفضل قد يصبح جزءا من تصور المتعلم لامكانيات المستقبل والتربية تتجه بالضرورة نحو المستقبل ، وتعنى بما يصبح عليه الأفراد •

بيد أن التحديد اذا كان على أساس الماضي فقط ، لم تصبح التربية سوى تمثيلا لما كتب فعلا بمعنى أنها تكون تراثا • وأما اذا استطاعت الأهداف أن ترسم طريق الحياة فالتربية تحول ما كان مثالا ونظريا قبل ذلك الى حقيقة عملية •

وبهذا تحتاج التربية الصحيحة الى النظر في التأثيرات الماضية ، وأيضا في الأغراض المستقبلية لأن الاعتماد على الماضي فقط (الأسباب الفعالة) يؤدي الى نظرة مؤداها أن المربي يشكل الفرد مثلما النحات الذي ينتج التمثال بالشكل المطلوب • ان اشراك الأغراض المستقبلية (فكرة الأسباب النهائية) مع التأثيرات الماضية تترك مكانا للترغيب وتقديم بدائل ممكنة مع اتاحة الفرصة للمتعلم ليستجيب لهذه الأهداف التي تستحق — بالنسبة له — التحقيق في المستقبل (٨٣) •

والفرد لكي يكون حرا في تحقيق أهدافه ، لا بد وأن تتوفر له عوامل ثلاث : مادية ، اجتماعية ، ثقافية •

أما الجانب المادي ، فالفرد لا يستطيع أن يكون حرا مع عدم وجود المصادر المادية ، فالناس الذين يكونون على مستوى الكفاف

(٨٢) المرجع السابق ، ص ٤١٨

(٨٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥

المسادی ؛ يكونون أكثر استجابة في العادة الى الوعد بالتحسن الاقتصادي منهم .لأنواع الحرية غير المحسوسة ، مثل حق اختيار المهنة ، وحق التصويت ، فإذا توفرت السلع الضرورية للحياة آتيج للفرد الفرصة لتحقيق أهداف متنوعة •

ومن هنا فالتسهيلات المادية مثل المنازل والمباني المدرسية والكتب والمعدات العملية تساعد الأشخاص الذين هم في مرحلة نمو ، تساعدهم بما لديهم من حرية على تحقيق الامكانات العالية من الأهداف • كما أن هذه التسهيلات المادية لا تحقق التربية من أجل الحرية فحسب ولكن هي بدورها أساسية لتأكيد الصالح المادي ، وتحقيق توزيع عادل واستخدام انساني مناسب للمصالح المادية بواسطة السيطرة على البيئة المادية وأساليب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية •

أما الدعم الاجتماعي ، فهو ضروري ، لتحقيق الحرية للفرد ، وليس معنى هذا أن الأنبياء والشهداء الذين يقفون ضد خبرات المجتمع ليسوا بدون حرية ، إذ أنهم مع ذلك أقل حرية في تحقيق أهدافهم مما لو أن المجتمع ساندتهم بدلا من أن يعارضهم • وهذا شأن الداعين للإصلاح والتجديد يدينون للمجتمع باعطائه الأساس الذي يعارض منه •

وتحتل الأسرة الأهمية الأولى في الدعم الاجتماعي كما تأتي الرعاية المستمرة للطفل من الآباء والمدرسين والأصدقاء ، عوامل أساسية في منح الطفل القدرة على الانجاز • ولا يستطيع فرد أن ينجز عملا وحده ما لم تقدم له الموارد الأساسية والمعونة الانسانية الضرورية •

وأما الموارد الثقافية فيتوقف عليها تحقيق الأهداف ، والدعم الثقافي ، يعنى المعونة التي يثقلها العالم من النتائج المتراكمة للابتكار الانساني مع الأخذ في الاعتبار أهمية حماية القانون وتشجيع الزملاء • ويرى بعض المربين أن فرض ثقافة الماضي ، فيه استعباد للطفل مما يكسبه العجز وعدم القدرة • والصحيح هو أن نربى الطفل ليكتشف عالمه ويساهم في تطوره وبعثه • والانسان مهما أوتى من ابتكار وذكاء يستحيل عليه أن يبدأ من جديد ويستعيد خبرات الجنس البشرى الشاق •

ومن هنا فالتربية الحرة الحقيقية هي التي تستثمر المعرفة البشرية بخبراتها التراكمية • وهذا ليس معناه أن التربية يجب أن تخصص فقط للسيطرة على مجموعة من التقاليد الميتة بل الأفق هو أن هذا التراث

يجب أن يكون مصدرا حيا يستثمره الأفراد لتحقيق أهدافهم • والتربية الحرية بذلك : هي التي تتضمن تدريبا واسعا متنوعا في التراث الثقافي (٨٤) •

ويضاف الى الجانب المادى والاجتماعى والثقافى فى تكوين الفرد الحر ، يضاف اليه تمتع هذا الفرد بقدر مناسب من الصحة والقوة البدنية ، وكذلك لابد أن يكون على قدر من القوة العاطفية والعقلية ، والعادات الجيدة ، والتوازن ، والائتلاف بين الدوافع الجسميه وسائر المكونات الأخرى للكائن الحى مثل الذكاء والشعور والعاطفة والعقل وغيرها •

وكلما توفرت للشخصية اتجاهات صحيحة فى تكوين العادات واتسعت اتجاهات الآباء فى الأسرة وتكاملت مع اتجاهات المدرسين والأصدقاء فى نمط واحد ، يمكن حينئذ ضمان نمو الشخصية المتكاملة فى محتوى اجتماعى موحد •

(ج) وظيفة المدرسة بين الالتزام والحرية :

عملية الالتزام والتوجيه ، تطرح قضية تربوية ، هي قضية التلقين ، وهي عملية ساءت سمعتها فى عالم التربية ، وهاجمها كثير من فلاسفة التربية ، خاصة فى البلاد الديمقراطية لأنها لا تتناسب مع المفهوم الديمقراطى •

ويقصد بالتلقين أن تفرض المدرسة على التلاميذ وجهات نظر آتية من جهة الجماعة أو السلطة التي تحكم الجماعة ، أو أية منظمة داخل إطار الجماعة • هؤلاء الفلاسفة هاجموا فكرة أن المدرسة تفرض على التلاميذ وجهة نظر معينة ، أو تقنعهم بها ، وإنما الخير فى نظرهم ، هو أن توصف الأشياء وتوضح وتذكر عنها الجوانب السلبية والايجابية على حد سواء ، ثم بعد ذلك نترك للتلميذ حرية اختيار ما يقتنع به عقله • بمعنى آخر ، فوظيفة المدرسة أن تعلم التلميذ كيف يفكر ، وتمده بمادة التفكير ، ولكنها لا تعلمه ماذا يفكر • وبالرغم من ذلك وجد هؤلاء المربين أن الالتزام بوجهة نظرهم يتعارض مع فكرة الديمقراطية ذاتها ، لذلك اضطروا الى الاعتراف أن تلقين الاعتقاد فى 'مذهبهم الديمقراطى' أمرا ممكنا ولازما • وبعبارة أخرى فلأنهم وإن كانوا فلسفيا عارضوا

(٨٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٨ — ٤٣١

فكرة وجود قيمة مطلقة يصح تلقينها الا أنهم اعتبروا الديمقراطية في بلادهم قيمة مطلقة واستثنوها من الحكم •

والغرض والهدف النهائي من كراهية مبدأ التلقين في التعليم ، هو عدم اغلاق باب الاجتهاد الفكرى أمام التلاميذ ، واعطائهم الفرصة لأن يفكروا بأنفسهم وفي نفس الوقت فأيدولوجية الجماعة وفلسفتها وشكلها أمور لا يمكن أن يختلف عليها أو يفتح باب الاجتهاد فيها ، والا أصيبت كل المجتمعات بعدم الاستقرار •

وهذا يجيب على التناقض الظاهر بين التزام التربية وبين كراهية مبدأ التلقين الذى أشرنا اليه آنفا •

ومن هنا يصح من هذه الوجهة أن تتفتح فلسفة المجتمع وأن تهذب وتعمق وتخلص من تناقضاتها ، وأن ينتقل فيها من وجه الى وجه ، ولكن من غير الجائر أن تكون فلسفة الجماعة وشكلها موضع تغيير وثيق أو جذرى •

وعلى هذا فكراهية مبدأ التلقين في التربية أمر نسبى ، فيباح في كل ما هو أساسى لتقرير شكل الجماعة وأبعادها وفلسفتها ولا يباح في غير ذلك • أو بمعنى آخر فالتلقين أمر مباح اذا كان يتعلق بكون الجماعة وأيدولوجيتها التى أصبحت أمرا مقررا عند المجتمع •

وعن فتح باب التفكير أمام التلاميذ هناك مجال كبير في اطار الأيدولوجية بحيث يمكن عرض بعض المشكلات والتناقضات الاجتماعية تطرح أمام التلاميذ ويعطون حقائقها وسلبياتها وإيجابياتها ثم يتركون لتشكيل آرائهم نحوها فيما يتعلق بالحلول معتمدين على عقولهم وتفكيرهم • وبذلك يصبح التلميذ جزءا من فلسفة جماعية ويفتح أمامه باب التفكير والاجتهاد ، وباب كسب المهارة المتعلقة بموازنة القضايا وتكوين الأحكام •

والمرسة عليها أن تطرح المشكلة أمام التلاميذ — مشكلة البطالة — مشكلة المواصلات ، مشكلة الاسكان ••• الخ • وتزودهم بحقائقها وأخطارها ، ثم تترك لهم بعد ذلك الحرية في التفكير ازاء حل هذه المشكلة • والتربية بذلك تقوم بما هو مطلوب منها من حيث أنها قوى موجهة ملتزمة ، وفي نفس الوقت يمكن للتلميذ أن يكتسب القدرة على التفكير في القضايا الاجتماعية ويكتسب الاتجاه العقلى نحو الشعور بمسئوليته نحو المساهمة في حل مشكلات الجماعة •

ويمكن القول : ان التلقين يباح فيما يتعلق بتطوير الجماعة ، وتهذيب المجتمع وتنقيته من التناقضات • ولكنه لا يباح في فلسفة الجماعة وأيديولوجيتها وشكلها وأساسياتها • .

فلا يباح تلقين بعض الآراء في مواجهة بعض مشكلات اجتماعية بل تعرض المشكلات دون مساس باتجاهات معينة أو حلول مقصودة ، ويترك للتلميذ حرية الاختيار بين البدائل للحل • .

والخلاصة أن التلميذ في ظل هذا التوفيق بين التلقين وكرهه يتاح له فرصة الاقتناع بأيديولوجية الجماعة وفلسفتها ، وأيضا التمكين من القدرة على التفكير واكتساب المهارة في مواجهة المشكلات في المجتمع • .

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل النزاع بين التربية وحق المجتمع في توجيهها يتعارض مع حق الحرية الواجب لكل صاحب فكر ؟

وإذا كانت الحرية الفكرية من مستلزمات المعلم فهل قضية الالتزام وحتمية التلقين تتعارض مع حق المعلم في الحرية الفكرية والأكاديمية للمدرسة والمعلم ؟

الواقع أن الاجابة بالنفى ، لأن الحرية المطلقة لا وجود لها ، وكل حرية يجب أن تكون محدودة باطار معين تفرضه طبيعة الجماعة أو أهدافها أو قيمها • فالحرية المطلقة فوضى ، والمعلم والتلميذ يفكران بكامل حريتهما ، ولكن في اطار ما تتفق عليه الجماعة وما تتوافق عليه من الفلسفات والقيم والأهداف • .

وفي اطار مقومات الجماعة ومقدساتها ، هناك مجال واسع للحرية المنظمة ، وحرية امتزاج الحلول ، وحرية اصدار الاحكام ، دون أن يخرج المعلم من جلدته أو يستعد على الجماعة وينقدها ، كما لو كان شخصا غير مشترك فيما تواضعت عليه من قيم وفلسفات • .

بل ان هذا الاطار الفلسفى الاجتماعى القومى الذى يبدو وكأنه محدد لحرية الفكر كأن هذا الاطار الفلسفى نفسه أداة من أكثر أدواتها ضرورة ، وذلك لأن العالم لا يستطيع أن يفكر الا في اطار حدود القوانين العلمية ، فاذا وضع حولا لمشكلات المادة تتعارض مع قوانين العلم ، كانت حولا خاطئة لا قيمة لها • .

والمعلم الذى ينتمى الى العلوم الاجتماعية ، لا يستطيع أن يفكر في المشكلات والقضايا الاجتماعية والقومية الا محددا باطار ثابت

وواضح ، لا تهاون فيه كالقوانين العلمية تماما ، وهو إطار أيديولوجية الجماعة وفلسفتها .

وهذا الاطار المحدد للحرية هو اطار مرجعى ضرورى لاستقامة عملية التفكير واستقامة حرية الفكر .

ومن هنا يستطيع الانسان أن ينتقيد بفلسفة الجماعة في تعليمه وتفكيره دون أن ينتقص ذلك من حريته أو من شعوره بهذه الحرية تماما كالعالم الطبيعي وهو يفكر في مشكلات المادة مقيدا بأطار قوانين العلم الطبيعي .

هذا في ايجاز هو موقف التربية بين الالتزام والديمقراطية في الفكر المعاصر . فماذا عن التربية والحرية من وجهة النظر الاسلامية ؟
لعل هذا ما سوف نحاول الاجابة عايه في الصفحات الآتية .



ثالثا- التطبيق التربوى للحرية من وجهة النظر الاسلامية :

المسميات والمفاهيم في الحرية تشمل : « حرية العقيدة ، حرية التفكير ، حرية الرأي ، حرية العمل ، حرية نظم الحكم ، وحرية الوجدان »
يجمعها كلها الحرية الشخصية ، فكون الشخص حرا ، معناه : حرية مطلقة تشمل الشخص كله في داخله وخارجه ، في علاقاته مع أسرته ومع الجماعة التي ينتمى اليها ومع المجتمع الكبير الذي ينتسب اليه ، فغالما الانسان حر في كل هذا ، فقد تخلص من عبوديته لكائن ما من الكائنات ، بل وملك زمام أمره ، وأصبح حرا طليقا في داخله وخارجه . والاسلام جعل حرية الفرد المتكاملة ، هدفا أساسيا ، ونعى على المتخاذلين المستسلمين المستضعفين الذين يقبلون الذل والهوان . قال تعالى :
« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم ، وساءت مصيرا » (٨٥) .

ولهذا كان الاسلام سباقا الى اتاحة الفرصة أمام المسلم ليخلص نفسه من الاستعباد ولو كان على حساب هجر الديار وترك الوطن ، والعيش في آخر الدنيا طالما هو يبتغى عيشا كريما وحياة حرة سعيدة .
من هنا أوجب الاسلام على المسلم أن ينصر الحق ، ويجاهد في

سبيل نصرة المستضعفين • قال تعالى : « وما لكم لا تقاوتون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (٨٦) •

(١) موقف الاسلام من الديمقراطية :

قد يجول بذهن البعض ، ممن جرفتهم المدينية الحديثة ، من ضعاف النفوس من المسلمين ، قد يجول بأذهانهم ان الاسلام قد خلا من الديمقراطية وانه مفتقد الى مثل تلك المذاهب السياسية حتى تتصلح المجتمعات الاسلامية • وامام هذه الشرذمة يتعاضم صرح الاسلام ، شامخا • عاليا ، شاهدا على امتلاك الاسلام ناصيد العدالة ، ممثلة في تعبير المسلم عن رايه واعلانه عن حجته في حرية تامة ، حتى ولو كان ذلك يتعلق بالحاكم نفسه وهذه بلا شك قمة الديمقراطية •

وكما سبق أن ألمحنا فالديمقراطية عبارة عن جعل الشعب هو مصدر السلطة في اختيار الحاكم ، وفي مناقشة الأمور السياسية وما يتعلق بذلك • وتلك صورة قد تبدو جيدة ، غير أنها عند التحليل تبدو خيالية بعيدة عن الواقع الذي يشهد باصطدام هذا المذهب بمبادئ الاسلام القائم على أن الله سبحانه وتعالى هو المشرع الاول وأن الحكم لله رب العالمين •

أما الديمقراطية فتقوم على أن « الشعب هو مصدر السلطة بجميع أنواعها من تشريعات قضائية وتنفيذية » وأول ما يصدم هذا المبدأ ما تقرّر في الشرع الاسلامي من أنه لا حكم الا لله ، فالمشرع في جميع الأحوال هو الله عز وجل على لسان رسوله المبلغ عنه كما جاء في الآية الكريمة : « ان الحكم الا لله » (١١٢) وأذلك كان مبدأ جعل الشعب هو مصدر السلطات لا يتفق مع مبادئ الشريعة الاسلامية فلا يباح لأي مسلم يدين بالاسلام فضلا عن جماعة ، أن يشرع أو يصوغ القوانين والتشريعات والأنظمة من وحى النفس والهوى ، لأن كل القوانين السياسية وغيرها موجودة ومتضمنة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله

(٨٦) النساء : ٧٥

(٨٧) عبد الله كنون . اسلام رائد . دار الكتاب المصري ، القاهرة ،

١٩٧٩ م ، ص ٦٩ — والآية من سورة الأنعام : ٥٧

عليه وسلم ، وعلى المسلمين أن يتفهموها وأن يطبقوها دون تحريف أو تعديل .

ولعل حكم الشعب نفسه والمفروض فيه أنه يعنى اجماعا شعبيا ، لعل ذلك لا يحظى باعتراف كامل مائة في المائة من الافراد ، لأن هذا أمرا يكاد يكون مستحيلا بل أصبح لا يعدو حكم الاغلبية وهى اعليبة نسبية يستحوذ عليها الحزب القوى في الحكومة .

هذا في الوقت الذى تمارس بقية الأحزاب والتنظيمات معارضة للتنظيم الحاصل على الأغلبية ، وتظل خارج الحكم . « ثم ان هناك قطاعات كثيرة من الشعب لا تنتمى لأى من الاحزاب . كلهم خارج الحكم ، فكيف يمكن القول ان هذا حكم الشعب ولو بالأغلبية » (٨٨) ؟
والواقع والمشهد أن تلك الديمقراطية المزيفة قد أخفقت في تلبية رغبات الأمم والشعوب سواء المادية أو الاقتصادية أو السياسية . ولقد أدى هذا بدوره الى النقد الكبير الموجه الى تلك الديمقراطية الزائفة .

ولقد ظهر كثير من التناقضات بين طبقات المجتمع ، حيث استحكمت الأنانية لطبقة استولت على المال وتوسعت على حساب طبقات أخرى ، كما ظهر تشقق بين الطبقات العمالية مما أدى الى عجز النظام الديمقراطي واخفاقه في مواجهة التخلف وتحقيق انسانية الانسان (٨٩) .
في ضوء ما سبق ، يمكن القول ان الديمقراطية ، وسيلة من وسائل تلبية الشعوب وشغلها من أجل استبداد جماعة ما بالحكم ، دون تحقيق القدر الكافى من الحرية في هذا النظام . والديمقراطية في عالمنا الحالى ، غدت مصطلحا خاليا من المضمون والجوهر . أما الاسلام هان الكتاب والسنة المطهرة قد ضمنا تحقيق الحرية الحقيقية ذات الجوهر والمضمون والمحتوى . واستطاع هذا النظام أن يحقق فضائل النفس البشرية من الحق والعدل والخير والسلام . ولا شك أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت خير مثال على تحقيق الديمقراطية الصحيحة الخالية من الخدع واللامبالاة .

ولقد سلك الخلفاء الراشدون نفس المنهج بعد رسول الله صلى الله

(٨٨) المرجع السابق ، ص ٧١ ، ٧٢

(٨٩) يوسف القرضاوى . الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا .

مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٥٣

عليه وسلم ، فلقد أوصى أبو بكر الصديق رضى الله عنه أسامة بن زيد حين أنفذه على جيش المسلمين الى الشام قائلا : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » .

وكذلك كان شأن عمر رضى الله عنه ، الذى لم يدخر وسعا في هذا الباب والذى كان يقول في وصاياه لمن يستعمله على ولاية : « انى لم أستعملكم على أمة محمد ولا على أعشارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقتضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل » .

ولم يتهاون عمر رضى الله عنه أن يقتص من الوالى ان هو قصر في أمر من أمور الرعية ، ولو قل هذا التقتير ، يدعو عمر الرعية لتقتص من هذا الأمير ، أو نقله الى منصب آخر أو عزله نهائيا (١٠) .

ومن هنا فان الاسلام بنظامه أكد على أحقية الشعب في أن يصون كرامته في ظل التشريع الالهى البعيد عن الشبهات والباطيل . هذا ولقد « حرص الاسلام حرصا شديدا على الحرية بمعانيها المختلفة حرصا يوفّر للتعليم مناخا صحيا لا مناص منه اذا أردنا له نموا وازدهارا . والاسلام في هذا قد سبق كثيرا من المذاهب والشرائع سبقا غير عادى ، ذلك أن الحرية في الاسلام — خلافا للشرائع الوضعية — ليست حكما سياسيا فحسب — وليست جزءا من شريعة الاسلام ، وانما هى في الحقيقة جزء من عقيدة الاسلام . ففى اللحظة التى يقرر الاسلام فيها وحدانية الله ، ويطالب الأفراد بالالتزام بعبادته لا لخلق ولا لغيره ولا لى جماعة » (١١) .

(٩٠) مصطفى الرافعى ، الاسلام انطلاق لا جمود ، مرجع سابق ،

ص ٧٩ — ٨١

(٩١) سعيد اسماعيل على . ديمقراطية التربية الاسلامية ، مرجع

سابق ، ص ١٣٢ ، ١٣٣

(ب) أسلوب الاسلام في تربية الفرد المسلم الحر :

وإذا كانت التربية في ظل الديمقراطية ، تدعى إتاحة الفرصه للمتعلم ، كى ينمو فكره وتتحقق ذاته ، فإن الاسلام سبق الى ذلك بل ان الأخبار تروى « أن ابن عباس خالف مشاهير الاسلام في الرأى وهم عمر وعلى وزيد بن ثابت وكانوا أساتذته كما اختلف الامام مالك مع أغلب أساتذته ثم خالفه في الرأى كثير من تلاميذه .

ومن أظهر أساليب التعليم في المراحل العالية ، تنيوع طريقة المناظرة ، ويمكننا أن نقول استفاداً على كثرة ما ذكر عن المناظرة في المراجع الاسلامية أنها من أخص مميزات التربية في تلك العصور . ولقد وقف المسلمون على أهمية المناظرة في شحذ الذهن وتقوية الحجة وانطلاق البيان والتفوق على الأقران وتعويد الثقة بالنفس فأولوها عناية كبرى في طرق تعليمهم وأشاروا اليها في مواضع عدة من مؤلفاتهم « (٩٢) .

ولقد ناظر الغزالي مشاهير العلماء وقادتهم وهو في بغداد في معسكر الوزير نظام الملك ، وحاجهم وانتصر عليهم جميعاً .

« ويصف السبكي اسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ١٧٥ هـ بأنه جبل من العلم على جانب عظيم من المهارة في المناظرة قال عنه الامام الشافعى : انه لو ناظر الشيطان لغلبه . ويقول المقرئى عن أحد العلماء المشهورين : انه كان يشجع المناظرة بين تلاميذه . بل كان يصير عليها وهو لا يرى بأساً من مخالفة التلميذ لاستاذه ما دام يفعل ذلك في تأدب واحترام . ويرى الزرنوجى انه لابد للطالب من المذاكرة والمطاربة والمناظرة ، فإذا كانت نيته الزام الخصم وقهره فلا يحل ذلك . وإنما يجوز ذلك لإظهار الحق « (٩٣) .

هذا وقد نبه ابن خلدون الى أن الركود الفكرى الذى شاع في بلاد المغرب في القرن الرابع عشر الميلادى يرجع بالدرجة الأولى الى طريقة التدريس الرديئة التى أهملت المناقشة والمناظرة . يقول ابن خلدون : « وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاوراة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها . فنجد طاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوناً لا ينطقون

(٩٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨

(٩٢) المرجع السابق ص ١٣٧

ولا يفاوضون وعنايتهم أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم» (٩٤) . هذا في الوقت الذي لمسنا فيه — من العرض السابق — أن التعليم والمدارس في ظل النظام الديمقراطي قد اتخذت وسيلة لتزويد الطلاب بغذاء عقلي مسموم ، هدفه الدعاية لبعض الأنظمة الاستبدادية الجماعية ، كما حدث في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية ، وحتى عند مكافحة الأمية ، لم يسلم الأمر من مقصد وهدف غير انساني لا يمت الى الديمقراطية بصله ، لأن تعميم التعليم ومحو الأمية كثيرا ما يتم في حضانة النظم الاستبدادية .

من هنا فالمدارس التي تقدم التربية للصغار والكبار في ظل الديمقراطية أغفلت في معظمها المبادئ الأساسية للديمقراطية وخلت المناهج الدراسية من الصفات الحقيقية للديمقراطية (٩٥) .
وحين نفتش في التربية في ظل الاسلام نجد الصورة على النقيض تماما ، فحرية المتعلم مكفولة ، وأسئلته لأستاذه واردة ، بل ومخالفته في الرأي جائزة ، والمناظرة مباحة .

وهذا هو الوجه الصحيح لبناء الشخصية الحرة التي يمكن أن تساهم في تدعيم صرح المجتمع الحر البعيد عن عقد التحكم والاستعباد ، النزيه من العقد النفسية ، والمتخلص من الاتكالية ، والاحتكارية .
ولا نعدو الحقيقة والصواب اذا قلنا ان التربية الاسلامية حققت نماذج في التعليم فاقت بكثير التربية الديمقراطية الحديثة .

ولقد استخدمت ثلاث قنوات في التعليم ، تهدف جميعها الى بناء الفرد المسلم داخليا وخارجيا . هذه القنوات في التعليم تضمن وتكفل تدعيم البناء الخلقى للفرد وهذه الطرق هي :
(ا) طريقة الارشاد والوعظ بأن نوضح للمتعلم الأمور النافعة والضارة ، ونعظه ونرشد له للخير بطريق مباشر .
(ب) الأسلوب غير المباشر ، وفيه تطرح أمام التلاميذ الحكم والنصائح والأقاصص التي توحى ويشتم منها قيم تربوية صحيحة .
(ج) أسلوب المثال . بمعنى أن يكون المعلم قدوة للمتعلمين في أخلاقه حتى يتأسوا به ويسيروا على منواله .

(٩٤) المرجع السابق ، ص ١٣٨

(٩٥) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣

هذا ، ولقد نبه الفلاسفة والمربون المسلمون على أهمية التربية بالمثال ، ونادوا بأن يكون مؤدب الأطفال متحلياً بالفضيلة ، معروفاً بالأخلاق النبيلة ، متجنباً للرذيلة .

وفي هذا المعنى قال عتبة بن أبى سفيان يوصى مؤدب ولده : « ليكن اصلاحك ابني اصلاحك لنفسك فان عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت * * * » وبالمثل اوحى ابن سينا الفيلسوف الطبيب أن يكون مع الصبي في مكتبه صبية حسنة آدابهم ، مرضية عاداتهم ، لأن الصبي عن الصبي القن وبه أنس «^(١١٧) * .

ولقد عنيت التربية الإسلامية بتوفير أكبر قدر من مناخ الحرية للطلاب ، ويسرت لهم سبل العلم ووفرت لهم كل فرصة للتعليم من غير تفرقة بين غنى وفقير ، فالكل سواء في طلب العلم .

كما نوه الاسلام بضرورة تطهير قلب المتعلم من الرذيلة ، فالتعليم والتعلم يعدان من العبادة ولا تصح العبادة الا مع طهارة القلب والتحلى بالأخلاق الكريمة كالصدق والأمانة والاخلاص والتواضع والتقوى والزهد والرضا والبعد عن الصفات الذميمة كالحقد والحسد والكبرياء والغش والفخر والخيلاء . وعلى المتعلم أن يتجمل بالفضيلة ولا يتباهى ويتفاخر أمام الناس وأن يثابر على تحصيل العلم ، وأن يتبادل الاحترام مع المدرسين وعليه أن يثابر في طلب العلم في جد ودأب وأن تسود علاقات المحبة بينه وبين زملائه واخوانه ، وأن يعود نفسه ويوطنها على طلب العلم^(٩٧) . واستمرارا مع مبدأ اتاحة الحرية للمتعلم ، حرص المربون من المسلمين على معرفة طبيعة الطفل ومزاجه قبل الاقدام على معاقبته ، وشجعوه على أن يشترك بنفسه في اصلاح الخطأ الذي يأتيه ، بل ويتناسون أخطاءه بعد أن يصلحها .

وفي عقوبة الطفل قيدتها التربية الإسلامية بأمور هامة أساسها أنه ضرب تأديب لا ضرب ايذاء ، بل ويعطى الطفل فرصة أن يصلح خطأه دون اللجوء الى الضرب أو التشهير به^(٩٨) . ولقد صور الغزالي المعلم

(٩٦) محمد عطية الأبراشي ، التربية الإسلامية وفلاسفتها ، مطبعة ميسى البابي الحلبي ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٩٨) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

كالطبيب ، والتلاميذ كالمريض وعلى الطبيب أن يعرف نوع المرض وسن المريض ، وأن يعامل كل طفل المعاملة التى تصلح له وتناسبه ، وعليه أن يبحث فى الدافع على الخطأ ، وعن سن المخطئ ، كما يفرق بين الصغير والكبير فى التأديب ، بحيث يصف لكل فرد ما يلائمه .

هذا والغزالي ينبه دائما على البعد عن الضرب والتوبيخ أمام الآخرين لأنه يؤدى الى فقد الثقة فى النفس ، بل المطلوب هو اعطاء فرصة للمتعلم أن يصلح نفسه حتى يشعر بالنتيجة . وليس هناك مانع أن يتشجع المتعلم الكفو بمكافأة — حتى ولو معنوية (٩٩) .

بهذا نتبين أن التركيز الأساسى فى مجال التربية الاسلامية هو اصلاح المتعلم خلقيا ، بحيث يستطيع أن يكون فردا فى المجتمع يشعر بشعوره ويتألم لآلامه ويساهم فى حل مشكلاته فى حرية كاملة وكفاءة تامة .



رابعا — النتائج :

- ١ — الحرية فى التربية والتى تنادى بها النظم الوضعية من شرقية وغربية دعوى مزيفة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .
- ٢ — المظاهر السيئة والسلوك المنحرف دليلان قويان على فشل التربية الحديثة فى بناء الفرد السوى .
- ٣ — التناقض واضح بين أسلوب التلقين وكرهيته فى التعلم ، وفى الوقت الذى يوجه اللوم بشدة وعنف الى استخدام أسلوب التلقين فى التعليم يأتى حماسة الديمقراطية ويخصصون قضايا معينة يستثنونها من الحكم تتعلق بأيدولوجية الجماعة وفلسفتها ويلقونها للطلاب .
- ٤ — المثقفون من الشرقيين ممن انبهروا بالتربية الحديثة ، عليهم أن يراجعوا أنفسهم فسيروا أن نظرهم لم يعد يمتد الى ما وراء الحجب ، من سموم فتاكة تكمن وراء المذاهب الوضعية التى تريد الكيد للاسلام والمسلمين .
- ٥ — التربية الاسلامية مليئة بقيم تربوية صحيحة ، لأن مصدرها القرآن الكريم والسنة المطهرة .

(٩٩) المرجع السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢

٦ — التربية الاسلامية ، صانت الفرد ، وحققت له حرية ذات محوريين ، داخلي وخارجي ، ولم تكن تلك التربية بحال من الاحوال تتعارض مع طبيعة الكائن البشري ، بل على العكس استمدت مقوماتها ومصادر قوتها من توافقها مع النفس الانسانية وايمانها بتحقيق متطلباتها القلبية والعقلية والبدنية والروحية والعاطفية والاجتماعية . قال تعالى : « فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١٠٠) .

٧ — هناك ضباب ران على عقول وقلوب بعض من يكيّدون للاسلام ، وصوروا نظامه التعليمي بأنه لا يرقى لمستوى مشكلات العصر الحاضر وأنه يحجر على الفكر ويفلق باب الابتكار والاختراع ، واستخدموا لذلك أعلامهم المسمومة ، بل وقد يصل الأمر الى احداث تغييرات في برامج التعليم تتوافق مع هواهم ان استطاعوا الى ذلك سبيلا .

٨ — الحاجة ماسة في الآونة الأخيرة الى مراجعة قوية وصريحة لبرامج التعليم في البلاد الاسلامية نتوخى فيها الصدق ونتحرى فيها الصواب ، بحيث تتجلى المسألة وتعود الأمور الى نصابها ، ويظهر التعليم الاسلامي بثوبه الأبيض الناصع الذي ينادى بالحرية قولاً وعملاً وفكراً وتطبيقاً .

٩ — جميع المؤسسات التربوية مسئولة مسئولية مباشرة عن محاربة هذه الوسائل الهدامة التي تزمجر علانية وتنادى بأعلى صوتها هلموا الى تربية حديثة فيها تحرير للفرد وبناء للمستقبل !!

١٠ — الآباء والأمهات عليهم أن يساهموا في علاج أساليب التربية الخاطئة التي يمارسونها مع أبنائهم وبناتهم .

١١ — مطلوب عودة لآحياء التراث الاسلامي والفكر الاسلامي والنماذج الاسلامية التي تزخر ببطولات وملحمات نادرة بل وعزيرة في عالم اليوم .

* * *

الفصل الرابع

العلاقات الإنسانية والتربية

* مشكلة البحث وأهميته :

أى مجتمع فى أى زمان ، وفى أى مكان يتطلب نوعا من التربية . وهو فى هذا يسعى نحو الأفضل ، ويخطط لصورة مستقبلية للفرد وللمجتمع على السواء . ولا شك أن هذا يتطلب أهدافا معينة يقوم على تحديدها رجال التربية وفلاسفتها ، والمصلحون والمفكرون فى المجتمع . واستمرارا فى السعى نحو تحقيق الأهداف التربوية ، تقوم الادارات التعليمية بتوجيه العملية التربوية ، فتصدر المناهج والنشرات التعليمية فى ظل النظم التربوية ، ثم تقوم المدرسة بتنفيذ تلك السياسات والبرامج التعليمية .

والمدرس هو العقل المنفذ ، لتحقيق تلك الأهداف ، فهو يقوم بأداء العملية التربوية مع تلاميذه ، ويقاس مدى تقدمها ونجاحها ، بمدى تقدمه ونجاحه فى الأداء .

وبهذا فالعملية التربوية (أى عملية تربوية) تمر بمراحل متعددة ، بكتنفها أفراد متعددون بدءا من رجل التربية المتخصص ، وانتهاء بالمعلم فى الفصل الذى ينفذ فيه مع تلاميذه العملية التربوية .

ومعنى ذلك أن التربية تحتاج الى اطار ينير لها الطريق ، ثم سياسة تعليمية تتضمن « مجموعة من الأغراض المحددة تتميز بالترابط والتكامل »^(١) وتأتى فى المرحلة الثالثة الاستراتيجية التربوية التى « تعنى الجهد المبذول من أجل الاختيار بين السبل والطرق المتعددة لبلوغ الأغراض التربوية التى تبلور بعض الأهداف النهائية »^(٢) .

(١) محمد الهادى عفيفى ، فى أصول التربية ، الاصول الفلسفية للتربية مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ٥٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٤

ويأتى بعد الاستراتيجية ، التخطيط التربوى ، الذى يعد بمثابة « جهد مبذول من أجل التحكم فى مستقبل نشاط أو مجموعة من الأنشطة ، ومحاولة توجيه حركة هذا النشاط أو مجموعة الأنشطة نحو مراميها أو الأهداف المحددة لها بقصد الوصول الى أقصى درجة من الانجاز والكفاءة » (٣) .

وإذا كانت التربية (أى تربية) لابد وأن تشتق أهدافها من حياة الجماعة وحياة أفرادها ، فإن العلاقات الانسانية بين أفراد الجماعة تلعب دورا أساسيا فى التطبيق التربوى لفلسفة الجماعة ومخططاتها التربوية .

ومهما اختلفت الآراء حول فلسفة الجماعة وأيديولوجيتها ، فإن علاقة التربية لا بد وأن تدور فى فلكها عملا وتطبيقا أيا كان نوعها وشكلها .

وإذا كانت الفلسفة تعنى فى رأى رجل الاقتصاد ، مفهوما يقوم على زيادة الانتاج وتحقيق التنمية الشاملة ، فإن علاقة رجل التربية بهذا المفهوم وفى ظل تلك السياسة ، هو تزويد القطاعات المنتجة بالأفراد المؤهلين بشكل مهارى وكفؤ .

وحتى فى المجال السياسى ، فالعلاقة قائمة بين رجل السياسة الذى يريد تنظيم المجتمع على أساس من المشاركة الجماعية للجماهير فى اتخاذ القرارات وبين التربية ، حين تهدف الى اعداد الفرد الذى يتمكن من تنفيذ هدف رجل السياسة .

وإذا صح أن فكرة الجماعة بجميع طوائفها ، تشكل الأنماط التربوية ، فلا غرابة أن تكون المشاركة والعلاقات الانسانية بين جميع العاملين فى تلك الطوائف أمرا حتميا ، مهما اختلفت أو تنوعت تلك الطوائف والمؤسسات ، سواء منها الاقتصادية أو السياسية أو غيرها ، ذلك أن المجتمع عبارة عن جماعة من البشر ، ينتمون الى مكان واحد وتجمعهم — فى الغالب — عادات وتقاليد ولغة مشتركة .

والعلاقات تضيق وتتسع وفقا لحجم الجماعة ضيقا واتساعا ، فالمجتمع الواسع ، يتسع فيه العمل ويكثر ، ويتنوع ويتشكل طبقا لظروف الأفراد وحاجة المجتمع ، وحين يضيق المجتمع يضيق العمل كما تتشابه أنواع العمالة فى غالب الأحيان .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٩

وعموما فأبسط صور الجماعة ، هي تلك التي توجد بينها ظروف متشابهة ، ولذلك فهي تشترك في عادات وتقاليد ، وتتبادل المنافع بشكل مستمر يضمن للجماعة بقاءها ووجودها .

إذا صح كل ذلك ، فإن دراسة العلاقات الانسانية تبرز كضرورة ملحة في التطبيق التربوي ، خصوصا وقد قربت وسائل الاتصال المسموعة والمرئية والمكتوبة مضامين كثيرة تدور في فلك العلاقات الانسانية . وقد بات علينا أن نفتش في تراثنا ، نستمد منه الاطار الصحيح ، في رسم الأساليب القوية التي نحمل بها شبابنا ، ونبنى بها فلسفتنا التربوية في ثوب يتناسب مع فكرنا الاسلامي ، ومناهجنا الاسلامية الصحيحة .

والواقع أن نظرة فاحصة في مجتمعاتنا ، نلمح فيها قصورا واضحا من الاهتمام بالعلاقات العامة والانسانية ، وقد يأتي التبرير من قبل أقطاب الادارة والاقتصاد والاجتماع في الدول النامية ومنها مجتمعاتنا ، أن الجمهور لا يستجيب للبرامج المخطط لها ، ليس لأنه لا يريد ولكن لأنه لا يدري . ومن هنا نسمع هذا القول : « العلاقات العامة لمن ؟ من هذا المنطلق اهتمت القيادات المسؤولة عن الخطط والبرامج التنموية في تلك الدول بالتخطيط والتنفيذ والتقييم بالنظام المركزي ، مع ادراكها بوجود الرأي العام تدريجيا وحصول التقدم في مجال التربية والتعليم الذي يعتبر من أهم المقومات للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ولا مندوحة من الاعتراف بأن الحكومات المركزية في البلاد النامية تريد أن تحقق أفضل النتائج التنموية والانشائية في أقصر مدة حتى تلحق بالدول المتقدمة . وربما يأتي تبرير تلك الحكومات لسلوكها فيما يتصل بمركزية التخطيط والتنفيذ والتقييم ، أنه لا توجد قطاعات هامة من الجمهور ، يمكن أن تتعاون معها ، بسبب وجود ألوان متعددة من الفقر والجهل والمرض . ومع ذلك فإنه « ولحسن الحظ على أية حال أن نسبة الاعتراف بأهمية العلاقات العامة والاعلام الموجه تزيد تدريجيا وتسير جنبا الى جنب مع التقدم الذي تحققه الدول النامية في المجالات التربوية والاقتصادية والاجتماعية »^(١) .

(٤) زكي راتب غوشة ، العلاقات العامة في الادارة المعاصرة ، عمان

الأردن ، ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ١٨ ، ١٩

وأذا كان الأمر كذلك ، فمما لا شك فيه أن العلاقات العامة عموما والعلاقات الانسانية على وجه الخصوص ، تشهد في العصر الحاضر عنقا تسديدا ومعاناة في كثير من المؤسسات في المجتمع ومنها المؤسسات التربوية المقصودة وغير المقصودة ، والتي نلمح فيها قصورا ملحوظا في هذا الجانب ، ناهيك عن الآثار التي تترتب على هذا القصور سواء على مستوى الفرد أو الجماعة .

من هنا جاءت أهمية هذه الدراسة ، كمحاولة للكشف عن قيمة التطبيق التربوي للعلاقات الانسانية ومدى مساهمتها في علاج الكثير من مشاكلنا التربوية .

* * *

* تساؤلات البحث :

أولا : ما مفهوم العلاقات الانسانية ؟ وما مظاهرها ؟ وما آثارها ؟
ثانيا : ما قيمة التطبيق التربوي للعلاقات الانسانية في : (ا) مجال المدرسة ، (ب) مجال الأسرة ، (ج) مجال المجتمع .

أولا - العلاقات الانسانية :

١ - مفهوم العلاقات على الاطلاق :

العلاقات العامة في مفهومها المعاصر والشامل ، ان هي الا حصيلة التفاعلات الايجابية والسلبية ، بين الجمهور بمختلف طبقاته الاجتماعية والاقتصادية والادارة الحكومية .

والتفاعل ايجابا وسلبا يتوقف على مستوى التقدم العام في الدولة ، فمما يتعلق بنسبة المتعلمين ، ومدى التقدم القومي بكل جوانبه ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية والتكنولوجية . وهذا مؤداه أن الدولة كلما تقدمت ، تحقق المزيد من التفاعل الايجابي بين الجمهور وادارتها المختلفة (٥) .

والعلاقات العامة عموما ليست جديدة أو حديثة ، بل هي قديمة ومتأصلة في القدم اذ يرجع تاريخها الى الامبراطوريات والدول القديمة التي عاصرت فترات من التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر في مختلف

(٥) زكي راتب غوشة ، العلاقات العامة في الادارة المعاصرة . مرجع سابق ، ص ٣

قارات العالم . فمصر الفرعونية مثلا اهتمت بالعلاقات العامة ، كما اهتمت الامبراطورية الرومانية بقوة الرأي العام ، وأيضا اهتمت الادارة الاسلاميه باحترام حقوق الفرد . وكذلك اهتمت بقضايا العدل والخير وأمور القيادة وسياستها .

ونلمح كذلك أن الامبراطور نابليون ، طلب مساندة جمهوره الفرنسي لحملاته العسكرية المختلفة ، وغير ذلك كثير من الأمثلة التي تدعم وتؤكد العلاقة الوطيدة بين الدولة (أية دولة) وبين جمهورها في ظل الاطار والنظام السياسى لتلك الدولة . نلمح ذلك عبر تاريخ الأمم منذ القدم حتى يومنا هذا (٦) .

وشأن العلاقات العامة ، أنها خادمة للجمهور ، هادفة الى تثقيفه وتبصيره ببرامج الدولة واتجاهاتها ، بما يتفق ومصلحة الفرد والصالح العام للجماعة .

والعلاقات العامة بذلك تدور في فلك الاهتمامات والمجالات والمفاهيم والأفكار داخل كل مجتمع (أى مجتمع) بحيث تأتى العلاقات متوافقة مع المستويات الاقتصادية والاجتماعية ، وأيضا مع العادات والتقاليد والقيم داخل المجتمع . لأن العلاقات تعكس المفاهيم والأفكار التى تدور داخل المجتمع (٧) .

ولعلنا بهذا ندرك أن العلاقات ينظر اليها من خلال المفهوم البيئى ، لأن طبيعة العلاقات لا تقتصر على الجانب الاقتصادى أو الاجتماعى ، بل ان لها علاقة بكل عناصر البيئة المحيطة بالمؤسسات داخل المجتمع . وهذا فى حد ذاته مبرر قوى ، ودعم أكيد لاختلاف وجهات النظر حول مفهوم العلاقات العامة التى لن تأتى فى النهاية الا صدى لما يغتمل داخل المجتمع ، وما يدور بين أفرادها من اتجاهات وآراء .

وفى نظر الكاتب « مارشال ديموك » فان أساس العلاقات العامة يأتى فى القيم التى توجه العمل الحكومى وتجعله مستجيبا لمطالبات واحتياجات الجمهور وأمانيه . ويقول « لورنس أبلى » : ان عمل المنظمة الادارية الذى يؤثر فى آراء جمهورها تجاهها هى العلاقات العامة . وأما وجهة نظر « جون مارستون » فان العلاقات العامة تعتبر وظيفة هامة من وظائف الادارة معنية بتحليل سلوك الجمهور لمعرفة اتجاهاته واحتياجاته . والعمل على وضع البرامج التى تتفق مع الصالح العام فى مقابلة هذه الاحتياجات .

(٦) المرجع السابق . ص ٤

(٧) المرجع السابق ، ص ١

ولعل هذه التعريفات تشير جميعها الى أن الجمهور العام أو المباشر
نم جمهور الموظفين هي محل التركيز ، ومناطق الاهتمام ، من حيث
المضمون الجوهرى لمفهوم العلاقات^(٨) .

ومما لا شك فيه أن علاقات الأفراد تتغير « حسب تغير المجتمع
وهذا شيء واضح يحدث في كل المجتمعات . فالمجتمعات البدائية مثلا
تقوم علاقة الأفراد فيها على مقدار ما تجمعهم رابطة دم أو نسب
أو علاقات عائلية وقبيلية أخرى . أما في المجتمع الرأسمالى الصناعى مثلا
فالعلاقات الأفراد تتحدد حسب ما يجمع الأفراد من عمل صناعى مشترك ،
ولا دخل للعلاقات العائلية أو النسبية في تحديد علاقة الأفراد بعضهم
ببعض »^(٩) .

والمغزى الرئيسى للعلاقات ، هو محاولة استثمار العقل الجمعى
والتفكير الانسانى في صنع القرار ، بحيث يأتى القرار مدروسا من جميع
النواحي الطبيعية المحيطة به دراسة عملية للوصول الى قرار سليم
وواضح^(١٠) .

ومن العوامل التى تؤثر في علاقات الأفراد وفي صنع القرار ، حجم
المجتمع وعدد سكانه ، فالمجتمع القليل السكان ، الصغير الحجم ، تتضاءل
العلاقات فيه سواء في داخل المجتمع أو خارجه مع مجتمع آخر ، بمعنى
أن التفاعل يتسم بعدم الفعالية ، كما يتسم بالسطحية ، وبالتالي تكون
نتيجة تلك العلاقات ضعيفة وقليلة بالمقارنة مع مجتمعات أخرى كبيرة
في مساحتها ، وفي عدد سكانها ، لأن زيادة السكان تحتتم نوعا من العلاقات
بتوافق مع المستوى الاقتصادى لذلك المجتمع ، فالمجتمع الذى يتسم
بالانفجار السكانى ، وموارده الاقتصادية ضعيفة ، تنعكس تلك الصورة
على علاقة الأفراد فتصبح أيضا ضعيفة . أما المجتمع الذى يتمتع
باقتصاد قوى فعلاقة أفرادة تكون أيضا قوية^(١١) .

وهذه النظرية في العلاقات تعتمد على أن الغنى والانتاج والتجارة
لها أهمية كبيرة في تحديد علاقة الأفراد ، وقد أكد ذلك « تيوسيدس »
في كتابه عن حرب « البوليفيز » .

(٨) المرجع السابق ، ص ١ ، ٢

(٩) أحمد جمال طاهر ، نظريات في العلاقات العامة . دار الشروق .

جدة ، ط ١٩٧٨ ، ص ١٢٣

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٢٤

(١١) المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩

هذا ولا يمكن لكائن من كان أن ينكر ما للاقتصاد والحياة المعيشية من أهمية في توجيه سلوك الأفراد ، فمن أجل أن يحيا الانسان لابد أن يأكل • وحتى يأكل لابد له أن يعمل • وعلى ذلك « فغوامل الانتاج والتوزيع والعمل عوامل رئيسية في حياة الأفراد وعلاقتهم ببعضهم البعض ، لم ينص على ذلك الفلاسفة فقط ، بل أكدتها الكتب السماوية »^(١٢) قال تعالى : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور »^(١٣) وقال سبحانه : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »^(١٤) .

ولكن اذا سلمنا بأهمية الاقتصاد في تحديد علاقات الأفراد بين بعضهم البعض ، فهل يعنى ذلك الاكتفاء بهذا العنصر فقط ؟ الواقع أنه على الرغم من أهمية العنصر الاقتصادي في تحديد العلاقات بين الأفراد ، الا أن هناك عناصر أخرى ، لا تقل أهمية عن الاقتصاد ، بل انها تحتل الأهمية عنه • « فالدين مثلا عنصر هام جدا بل هو العنصر الأساسى في تحديد علاقات الأفراد وليس الاقتصاد • حقا ان أحدا لا يغالى اذا قال ان الدين لا يحدد علاقات الأفراد فحسب ، ولكنه يحدد أيضا الاقتصاد والانتاج والتطور والاختراعات »^(١٥) .

واذا كان الدين له تلك الأهمية في تحديد العلاقات ، فان الدين الاسلامى لم يقتصر في تشريعه على جانب العبادات ، من صلاة أو صيام أو زكاة أو حج ، بل نظم الاسلام كافة أنواع السلوك الانسانى فيما يتعلق بعلاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالمجتمع ، وعلاقة الحاكم بأفراد الشعب وعلاقة الدولة الاسلامية بالدول الأخرى في السلم أو الحرب • وأخيرا وأولا علاقة هؤلاء جميعا بالله رب العالمين •

نظم الاسلام كل هذه العلاقات تنظيما دقيقا لم ترق اليه النظم الوضعية ، أو المبادئ الانسانية التى وضعها البشر ، فبين كل أنواع الحقوق والواجبات ، سواء ما كان منها متصلا بعلاقة الأفراد أو علاقة الدول^(١٦) .

(١٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ (١٣) الملك : ١٥

(١٤) الجمعة : ١٠

(١٥) أحمد جمال طاهر ، نظريات في العلاقات العامة • مرجع سابق ،

ص ١٣٧

(١٦) محمد رانت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في

الاسلام • مطبعة السعادة ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٣

وإذا كان الاسلام قد نظم تلك العلاقة ، في ظل العدل والمساواة ، فإنه يكون بذلك قد غُض الطرف عن الأحساب والأنساب ، فالكُل متساو في الحقوق والواجبات « أن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، أن الله عليم خبير » (١٧) ، هذا بينما نجد أن المجتمعات المتقدمة كالولايات المتحدة الأمريكية مثلا تَعْلَى من شأن النظرية الاقتصادية ، بل وتبنّي عليها النظرية الاجتماعية ، والعلاقات الانسانية . وليس هناك معيار للفرد سواء في المدرسة أو في البيت أو في غيرهما الا بمقدار ما يحصله من مال . فالأفراد هناك يتعلمون مثلا أن « الأمانة هي أفضل السياسات » « أن تدخر قرشا معناه أنك تملك قرشا » « الوقت من ذهب » « الفضيلة أن تعمل وهذا صحيح ونافع وجيد ويمكنك أن تدخر للمستقبل » (١٨) وهكذا .

بيد أننا لو عدنا الى الاسلام لوجدناه « يربى الانسان كإنسان ، بصرف النظر عن البيئة التي ينتمي اليها ، وبصرف النظر عن الأسرة التي استمد منها مقومات حياته ، وبهذا يكون الاسلام قد غُض الطرف عن الأحساب والأنساب والرفق والفقير ، ووضع مصلحة الانسان بالدرجة الأولى يربيه ، ويسعى في ذلك في مساواة كاملة وفي عدالة تامة .

ومما يدعم هذه الأدلة ، أننا نلمح في هذا القرن العشرين ، والذي ارتقت فيه الحياة المادية ، ووصلت الى ذروتها من جراء الفكر المعاصر أن الانسانية لم تنعم بعد بثمره هذا الرقي وذلك التقدم ، حيث ان التركيز كان بالدرجة الأولى ينحو الى الجانب المادي فقط ، مما ترتب عليه اختفاء القيم الأصيلة والروابط الأسرية والاجتماعية وانتشار الأمراض النفسية » (١٩) .

ومما يلوح أن النظرية الاقتصادية المادية ، لم تحقق بعد اطارا سليما للعلاقات ، مما حدا ببعض المفكرين أن يجعل النظرية الايديولوجية

(١٧) الحجرات : ١٣

(١٨) أحمد جمال طاهر . نظريات في العلاقات العامة . مرجع سابق ، ص ١٣٩

(١٩) محمد على المرصفي . « نظرة عامة حول التربية الاسلامية » ص ٣٩ ، ٤٠ . مجلة كلية التربية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة . العدد الثامن . محرم ١٤٠٢ هـ .

تلعب دورا لا يقل أهمية عن دور النظرية الاقتصادية أو غيرها من النظريات في علاقة الأفراد بعضهم ببعض^(٢٠) .

وفي ضوء تلك القاعده ، وفي اطار تسليمنا بها ، فان الدين الاسلامي يعتبر ارقى الفلسفات والنظريات والايدولوجيات على الاطلاق ، ذلك لأنه ادين الوحييد . الذي حفظ من التحريف والتبديل والتغيير والتعديل . وتضمن في كل مراحلها عوامل تحقيق السعادة لبني البشر على الاطلاق — طالما تمسكوا بمنهج الاسلام قولاً وعملاً — في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربويه .

كما أولى الاسلام العلاقات بين الأفراد عناية خاصة لتحقيق الألفة والمودة على أوسع نطاق اجتماعي يتصوره بشر . قال تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير »^(٢١) .

ومن هذا المنطلق فالاسلام « يبنى المجتمع المسلم القائم على احترام العلاقات بين الأفراد . والمجتمع الاسلامي هو مجتمع انساني : يدعو الى الروابط الانسانية بين الأفراد في الدرجة الأولى . كما يدعو الى تبادل المصالح المادية ، ولكن في محيط العلاقات الانسانية »^(٢٢) .

٢ — مفهوم العلاقات الانسانية :

على الرغم من الأهمية القصوى للعلاقات الانسانية في تنامي المجالات . سواء منها المرتبطة بالانتاج أو الخدمات ، أقول على الرغم من ذلك . فان التركيز منذ وقت مبكر كان — على الأقل في قطاع الانتاج — يولى أهمية كبرى للعلاقات الانسانية في محيط الجانب الحسي للعمل . فقط . على أساس اختيار الآلات المناسبة للعمل ، وضروية صيانتها ، وعلى أساس تنظيم العمل بالطريقة الصحيحة التي تكفل الزيادة في الانتاج .

هذا بينما لم يحظ المحيط النفسي للعمل والعلاقات الانسانية بأهمية تذكر . الأمر الذي ترتب عليه زيادة معدل الغياب وكثرة الشكاوى ،

(٢٠) أحمد جمال طاهر . نظريات في العلاقات العامة . مرجع سابق ،

ص ١٤١

(٢١) الحجرات : ١٣

(٢٢) محمد على المرصني « نظرة عامة حول التربية الاسلامية »

مرجع سابق . ص ٤١

وضعف الانتاج ، وقد يصل الأمر الى حد الامتناع عن العمل
أو إعطيله (٢٣) *

ولعل هذا هو السبب الذي من أجله قامت مجموعة من الدراسات ،
التي أولت اهتماما ملحوظا . وعناية خاصة للعلاقات الانسانية * وقد
بدأت هذه الحركة بتجربة « هونورن » The Taw Thorne Experiment
في أمريكا وقد أنشرف على تنفيذ هذه الدراسة مجموعة من علماء النفس
والاجتماع وعلى رأسهم « ألتون مايو » في شركه هونورن ويسنترن
اليكتريك بتسيكاغو * وكان ذلك ما بين ١٩٢٧ — ١٩٣٢ * وكان هؤلاء
العلماء قد تلقوا طلبا من تلك الشركة بدراسة ظاهرة التمرد وعدم
الرضا عن العمل بين ثلاثين ألفا من عمال الشركة * هذا بينما سبقتهم
« ماري باركر فوليت » (Mary Parker Follet) (١٨٦٨ — ١٩٣٣)
فتعد أول من اهتم بدراسة العلاقات الانسانية في الادارة *
أول من اهتم بدراسة العلاقات الانسانية في الادارة *

وأيا ما كان الأمر ، فإن تجربة « هونورن » أدت الى استخدام
بعض الوسائل لتخفيف حدة التوتر بين العمال ورفع معدل الانتاج
وتنظيم ساعات العمل وأوقات الراحة وتركيز الاضاءة ، وغيرها من
العوامل المكانية التي تسهم في زيادة معدل الانتاج * وقد اعتمدت
تلك التجربة على فروض « تيلور » التي نادى بأن تقييم مدى كفاءة
العامل لابد أن تتم بطريقة علمية ، وأن الكفاءة تعتمد على التخلص
من الجهد الضائع * لذلك لم يعد ينظر الى العامل على أنه امتداد
للمآلة ، وانما على أساس أنه كائن حي معقد له حاجاته النفسية
والاجتماعية والشخصية *

- وعموما فليقد نتج عن تجربة « هونورن » نتائج متعددة منها :
- (ا) أن المعايير الاجتماعية وليس الطاقة البدنية أو الجسمية ،
تحدد مستوى الانتاج *
 - (ب) استجابة العاملين للادارة لا يتم بشكل فردي ، وانما بشكل
أعضاء في مجموعات *
 - (ج) القيادة لا تتركز فقط في الرئيس الرسمي للمجموعة ، وانما
قد تكون في شخص آخر من بين المجموعة يمارس سلطة القيادة بصفة
غير رسمية *

(٢٣) عبد الرحمن عبد الباقي عمر . العلاقات الانسانية . مكتبة عين
شمس . القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٣
١٠٣

(د) أن اشراك الرؤوسيين مهم في اتخاذ القرار لا سيما اذا تعلق القرار بهم بصورة مباشرة .

(هـ) أفضل أنماط القيادة تلك التي تشرك الجميع ، وتتسم بالعدل ودراسة المشكلات بين العاملين ، وتلك هي القيادة الديمقراطية (١٤) .

ومع أنه يوجد عدة معان يستخدم فيها مفهوم العلاقات الانسانية ، الا أنه يمكن في ضوء ما تقدم ، تحديد مفهوم العلاقات الانسانية في مجال الادارة على أنها ادماج الأفراد في موقف من العمل بطريقة تحفزهم الى بذل الجهد معا لتحقيق أكبر انتاجية مع تحقيق التعاون بينهم واشباع حاجاتهم الاقتصادية والنفسية والاجتماعية (١٥) .

ولعل الهدف الأساسي من وراء ذلك هو التركيز على السلوك الذي يقصد به « عملية تنشيط واقع الأفراد في موقف معين مع تحقيق توازن بين رضائهم النفسي وتحقيق الأهداف المرغوبة » (١٦) .

ولعل ذلك المفهوم ينسحب على العلاقات الانسانية داخل أية جماعة في موقع عمل واحد ، وفي مؤسسة واحدة ، سواء أكانت هذه المؤسسة تتصل بالانتاج أو بالخدمات ، ذلك أن الأفراد طالما تواجدوا في مكان واحد ، فلا بد حتما أنهم يشكلون فيما بينهم مجموعة من العلاقات ، تتعدى محيطهم الى الرؤساء والمشرفين والمتعاملين معهم . وليس هناك شك أن عدم التوافق أو التكيف لجماعة ما في مؤسسة واحدة ، يرجع أصلا الى اضطراب تلك العلاقات وعدم اتزانها وتعاونها (١٧) .

من هنا أصبح التعريف بمفهوم العلاقات الانسانية ضرورة في هذا العصر الذي عز فيه « التمييز بين العلاقات الانسانية بألوانها المختلفة ، فقد عز التمييز بين التسلط والاقناع ، وبين التبعية والاقناع ، وبين الاعلام والدعاية ، وبين التعليم والتلقين ، وبين التربية وغسل

(٢٤) محمد منير مرسى . الادارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها . عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٧٩ ، ٨٠

(٢٥) عبد الرحمن عبد الباقي عمر . العلاقات الانسانية . مرجع سابق

ص ٧

(٢٦) محمد منير مرسى . الادارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها .

مرجع سابق ، ص ٨٠

(٢٧) المرجع السابق ، ص ٢٠٩

الأدمغة ، وبين رفع الشعارات والايمان العميق بها . وبين السلطة والقيادة ، وبين التحكم والادارة» (١٨) .

والواقع أن هذه الملامسات كلها . لها مدلولات خطيرة . لأن كل مؤسسة تحاول أن تبحث لها عن مخرج ، تبرر به أهدافها ، وربما يصل هذا التبرير الى حد اجهاض الحقيقة ، والشك في مفهوم القيم . خصوصا اذا اختلطت المفاهيم أمام الانسان . وشاهد آثارا ايجابية لعلاقات انسانية ملوثة ، كأن يرفع من هم أدنى في المستوى بشكل مفاجيء ، مما يجعل الآخرين تهتر معاييرهم حول مفهوم العلاقات الانسانية مما يضطر البعض منهم الى تكوين رأى ما حول أسلوب أو مفهوم العلاقات الانسانية .

بيد أننا لو نظرنا في كل الدساتير الدولية ، ومن قبلها ومن بعدها في كل الكتب والديانات السماوية ، لوحدنا أن التوضعية دائما تدور حول البناء الأمثل للعلاقات الانسانية ، والقذوة الصالحة ، في سبيل أن تزيد ثقة الإنسان في قيادته ، وبالتالي ترداد ثقته في عمله ، مما يحقق انتاجا أكبر . وثروة أوسع . ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ، لبيستطيع أن يقود أمة ، تنافرت وتقاتلت وشاعت فيها الفوضى الى حد كاد أن يهلكها . لولا عمق الثقة التي حظى بها في قومه ، الى الحد الذي جعل الكثيرين من المسلمين يتفانون في سبيل الدعوة ، ويذبلون من أجلها مهجم ، نتيجة للثقة المتبادلة بينهم وبين قائدهم ، ونتيجة للحكمة ، والموعظة الحسنة ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر التي هي ركائز العلاقات الانسانية ومحور بنائها .

هذا ولقد كان الصدق في القول ، والثقة بالنفس ، والوفاء بالوعد ، والأسس السليمة للعلاقات الانسانية ، كانت كلها من دعائم التوفيق والنجاح الذي حالف الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته ، بل وحتى قبل أن ينزل عليه الوحي ، فلقد تاجر في مال خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فزاد مالها وتضاعفت ثروتها ، في ظل الثقة المتبادلة بين القيادة والمعامل ، أو بين صاحب العمل والعامل .

وإذا لمنا هذا في الاسلام ، فاننا أيضا نلمح أن عيسى عليه السلام كان يقول : « كل شجرة تثمر ثمرا جيدا ، والشجرة الفاسدة تثمر

(٢٨) عبد العزيز القوصي . مقدمة لكتاب : الانسان وسلوكه الاجتماعي . تأليف سيد صبحي . دار مرجان للطباعة . ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٩ : ص ٦

تمرا رديا ، لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر ثمرا رديا ، ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمرا جيدا . كل شجرة لا تثمر ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار . فَمَنْ تَمَارَّهُمْ تَعْرِفُونَهُمْ » (١٦) .

هنا وإذا كانت العلاقات الانسانية لها أهمية في ميادين الانتاج ومواقع العمل فان هذه الأهمية تزداد بالنسبة لميادين التربية والتعليم ، بجميع جوانبه الادارية والأكاديمية ، لأن مجال التعليم يتشكل ويتشكل في معظمه من العناصر الانسانية ، لان الخامة التي يتعامل معها هي كذلك خامة بشرية انسانية . « ومن هنا تصبح مسألة تكوين علاقات انسانية نشطة عملية على جانب كبير من الأهمية لهذا الميدان . وينسحب ذلك بالطبع على كل الفئات البشرية المكونة لهذا الميدان سواء أكانوا تلاميذ أو معلمين أو مشرفين أو رؤساء أو مديرين . ولا تقتصر هذه العلاقات على العلاقات الداخلية للفئة الواحدة ، وانما تشمل أيضا علاقاتها الخارجية ، مع الفئات الأخرى . ومن هنا ندرك مدى تعقد العلاقات الانسانية وتعدد اتجاهاتها في هذا الميدان » (٣٠) .



ثانيا — التطبيق التربوي للعلاقات الانسانية :

اذا كانت التربية في أساسها مجهودا اجتماعيا يقوم به المجتمع ، وينفق عليه من الأموال العامة ، واذا كان الفرد والجماعة التي ينتمي اليها هذا الفرد ويتفاعل بها هما مادة التربية ، اذا كان ذلك كذلك فلا يسوغ لنا أن ننظر الى الفرد في حد ذاته كفرد ، ولا أن ننظر الى المجتمع الذي يتفاعل معه هذا الفرد فقط ، ولكن ينبغي أن ننظر اليهما معا ، ونبحث في مجموعة الحقائق والعلاقات الانسانية التي تربطهما جميعا ، لأن اكتساب أنماط السلوك والمعرفة ، وتكوين الاتجاهات والقيم ، تتكون أصلا نتيجة الخبرات التي اكتسبتها الجماعة واكتسبتها أثناء معركتها مع البيئة الطبيعية والاجتماعية . ولا مندوحة والأمر كذلك ، أن تحتل العلاقات الانسانية ، أهمية

(٢٩) سيد صبحي . الانسان وسلوكه الاجتماعي . مرجع سابق ،

(٣٠) محمد منبر مرسى . الادارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها .

رئيسية في تهئية الجو والمناخ الصحى لاكتساب الانسان هذه الخبرات التراكمية ، التى توفرت للانسانية عبر تاريخها الطويل ، ذلك أن التربية لا تقتصر فقط على المؤسسات التعليمية المقصودة كالمدرسة والجامعة ، وانما تتسع دائرتها لتشمل المجتمع كله . يقول « جون ستيوارت ميل » في خطبة له ألقاها في كلية سانت أندروز : « ان عملية التربية لا تشمل فقط كل ما نعمله لأنفسنا ، أو يعمله الآخرون لنا ، بقصد تنشئتنا وتقريبنا من درجة الكمال بقدر المستطاع ولكنها فوق ذلك تشمل الآثار غير المباشرة التى تؤثر في أخلاقنا وطباعنا ومواهبنا الانسانية : مثل القانون ، ونظم الحكم ، والفنون الصناعية ، والنظم الاجتماعية ، بل انها تشمل أيضا آثار البيئة الطبيعية التى لا تتوقف على الارادة البشرية ، من عوامل الجو ، والتربة والموقع الجغرافى ؟ فكل ما يساعد على صقل الفرد ، واخراجه بالشكل الذى ينتهى اليه جزء من التربية » (١١) .

ولما كان التعليم يهدف الى تلقين المعلومات ، واكتساب المهارات ، بقصد تعديل النمو عند الفرد المتعلم ، وهو بهذا جزء من التربية ، ولما كانت التربية تستمد مقوماتها من جانبين رئيسيين : يمثل أحدهما المدرسة والآخر المجتمع بجميع مؤسساته الدينية والاجتماعية ، لما كان الأمر كذلك ، بات لزاما أن نناقش العلاقات الانسانية في ظل النظام التعليمى المقصود « المدرسة » وفي ظل فلسفة الجماعة وأيديولوجيتها التربوية .

ولما كان الدين هو أعلى الفلسفات على الاطلاق ، لأنه ملئ بالحديث عن أثر العلاقات الانسانية في تهذيب النفس ، وتنشئة الانسان على مبادئ الحق والخير والجمال لما كان الأمر كذلك ، فلا مناص من دراسة العلاقات الانسانية في مجال المدرسة كمنظمة تربوية مقصودة أقامها المجتمع وأنفق عليها من أمواله ، وكذلك مناقشة العلاقات الانسانية في كل من الأسرة والحياة الاجتماعية ، في ظل المبادئ الدينية والنظام الاجتماعى الذى أقرته الجماعة ورعى به الأفراد .



(٣١) جيمس س. دوس . الاسس العامة لنظريات التربية . ترجمة صالح عبد العزيز وآخرون . مكتبة النهضة المصرية . بدون تاريخ . ص ٩

✳ المدرسة والعلاقات الانسانية :

ما من شك في أن توفر قدر من العلاقات الانسانية السليمة في جو المدرسة ، سوف يكون حافزا ايجابيا للعمل ، ودرجة الاقبال عليه ، فنناظر المدرسة الذي يتوفر لديه مناخ صحي ، تحكمه العلاقات الانسانية الطيبة ، سيقبل على العمل بروح طيبة ، ينعكس أثره على أسرة المدرسة جميعا ، بما فيهم المعلمين ، الذين سيبدلون المزيد من الجهد ، في سبيل نجاح العملية التعليمية .

وعلى العكس من ذلك حين يسود المدرسة جو من الركود في العلاقات الانسانية ، فان هذا ينعكس على عزوف بعض المدرسين عن العمل ، وانعدام الرغبة أو الميل فيه .

وهكذا بمقدار ما يتوفر الجو المناسب والعلاقات الانسانية السليمة ، والمعاملة الطيبة ، والقدر الأنسب من الكرامة ، بقدر ما يزداد الحرص من كل العاملين بالمدرسة على العمل ، بل وترداد رغبتهم وميلهم الى حب المدرسة وتقدير دورها في المجتمع .

والحوافز الايجابية وخصوصا المعنوية منها ، تلعب دورها في تحقيق الانسجام والاتزان في العلاقات الانسانية ، « فالكلمات الطيبة المتبادلة والتشجيع والاستحسان والامتنان والتقدير وعبارات المجاملة ، كلها وسائل هامة في ارساء قواعد العلاقات الانسانية السليمة » (٣٢) .

من هنا فان المناخ والجو العام لتنظيم المدرسة ، وشعور المدرس واحساسه نحوها ، وتغيير التنظيم الاجتماعي ، والعلاقات الانسانية السليمة ، كل ذلك أهم بكثير من الجانب الاداري البحت ، كما أشارت الى ذلك الدراسة التي قام بها « كورنل » (Cornell) (٣٣) .

١ - العلاقات الانسانية بين المدير والمتعلمين بالمدرسة :

لا شك أن للعلاقات الانسانية دور هام في أنماط الادارة الناجحة ، لا سيما في ميدان التعليم والخدمات الاجتماعية ، لأن الادارة الناجحة هي التي تحظى بتقدير الآخرين ، كما تستطيع أن تلهمهم وتستفيد بأحسن ما لديهم ، كأفراد وجماعات في تعاون مثمر وفعال . هذا في الوقت الذي يتم فيه تقدير المجدين ، والاعتراف لهم بالفضل والثناء .

(٣٢) محمد منبر مرسى . الادارة التعليمية ، اصولها وتطبيقاتها .

المرجع السابق ، ص ٨١

المرجع السابق ، ص ٢١٠

ففى دراسة قام بها « جرينث (Griffiths) » وجد أن ناظر المدرسة الناجح هو الناظر الذى يتبع طريقة ديمقراطية فى ادارة المدرسة وهو الذى يحل مشاكل العاملين وهو الذى يعطى سلطات للآخرين « (٣٤) . وفى ضوء ذلك فإن اعطاء سلطات للآخرين . لا يقلل من نجاح القيادة التربوية السليمة ، لأن مفهوم الدور والمسئولية الصحيحة للقيادة يرتبط ارتباطا وثيقا بنمط الشخصية ، مضافا اليها المهارات الادارية اللازمة لرجل الادارة الناجح ، فالقيادة ليست عملية جامدة . وانما هى عملية ديناميكية حية يمكن من خلالها القيام بالأدوار المختلفة وفقا لمقتضيات الموقف .

والقائد الناجح هو الذى يعرف ارتباط الوسائل بالغايات . ويلعب دوره على مستوى التخطيط والتنفيذ ، بحيث يدفع العمل الى الأمام مطورا فى أساليبه ومجددا فيها ، بما لا يتعارض مع سياسة العمل أو تحويل اتجاهه ، بما قد يترتب عليه انهيار العمل ذاته . ورجل الادارة الناجح أيضا ، هو الذى يتمتع بنفوذ شخصى مع العاملين معه . بحيث تكون له سلطة غير رسمية ، يستمد منها قوة تأثير تساعد على ممارسة القيادة الناجحة فى المؤسسة التى يعمل بها (٣٥) .

وهناك ثلاثة جوانب لمدير المدرسة أن يمارسها وهى :

- (أ) الجانب الادارى .
- (ب) الجانب الاجتماعى .
- (ج) الجانب العلمى والتربوى .

ولعلنا نلاحظ دائما أن كثيرا من المديرين ، ينفقون وقتنا أكثر للجانب الادارى ، ويكون ذلك على حساب المستوى العلمى بالمدرسة . بيد أن مدير المدرسة لو لم يكن له المهارة الكافية للممارسة الديمقراطية لسلطته ، لكفى نفسه كثيرا من المعاناة فى الأعمال الادارية ، وذلك بتوزيعها على الموظفين وبعض المعلمين ، بالمدرسة ، بحيث يتيح لنفسه فرصة أوسع . لمباشرة مهامه فيما يتصل بالجانب العلمى بالمدرسة .

وعموما فمدير المدرسة مسئول عن الأنشطة الآتية . سواء مارسها بنفسه أو فوض غير فى تنفيذها وذلك هى :

- ١ - الإشراف على النشاط المتصل بالمنهج وعلى عمل المدرسين بالفصول .

٢ — مناقشة المدرسين والطلاب فيما يتصل بأعمالهم وبرنامج المدرسة .

٣ — الامام بالتطورات الحديثة التربوية في التعليم (٣٦) .
هذا بالإضافة الى مهام ادارية كثيرة لا بد أن يباشر الاشراف عليها ، ويقدم اقتراحاته ومجهوداته بخصوصها .
ويتضح من ذلك أن المهام الموكلة لمدير المدرسة تتصل بجميع القوى البشرية الموجودة بالمدرسة ، وبالإدارة التعليمية . من هنا برزت أهمية العلاقات الانسانية في القيادة كميز أساسى لاجاز العملية التعليمية بنجاح . ويعتقد « هالپين » (Halpin) أن القائد المؤثر هو ذلك الذى يرسم بوضوح العلاقة بينه وبين أعضاء الجماعة ، ويقيم أنماطا جيدة للمؤسسة التى ينتمى اليها ، متضمنة قنوات للاتصال . وفى نفس الوقت يعكس سلوكه روح الصداقة والثقة المتبادلة ، والاحترام والدفء فى علاقته بالجماعة (٣٧) .

وأيا ما كان الأمر ، فالمهارة فى أداء العمل بسرعة ودقة ، وتنمية تلك المهارة من خلال الخبرات والممارسات والتجارب ، كلها عوامل رئيسية لنجاح مدير المدرسة .
وتوجد تصنيفات للقيادة ، وأنماط متعددة لها ، يهمنها منها فى هذا المجال ثلاثة أنواع من القيادة : هى القيادة الديمقراطية ، والتسلطية ، ثم القرسلبية .

(١) القيادة الديمقراطية : وتقوم على أساس احترام الفرد .
وتتغير مناخ الحرية والافتناع والافتناع ، بحيث يأتى القرار النهائى للأغلبية دون تسلط أو خوف أو إرهاب . والقائد الديمقراطى هو من ينسجع الآخرين ويقترح ، لكنه لا يملأ رأيا ولا يرفضه ، بل يترك لغيره حرية اتخاذ القرار ، واقتراح البدائل والخلول ، وهو الذى يراعى رغبات الآخرين ومطالبهم . لذلك يرتبط هذا النوع من القيادة ، بالقيادة المؤسسة على العلاقات الانسانية ، والتى تجعل الفرد غاية فى ذاته له احترامه وكرامته ، هذا مع اعتبار أن هوية الآخرين متوفرة ، فى ظل الحقوق

(٣٦) لمزيد من معرفة المهام الموكلة الى مدير المدرسة يرجع الى :
حسن مصطفى وآخرون . اتجاهات جذبة فى الادارة المدرسية . مكتبة الانجلو المصرية . ط ٤ ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٧٢ ، ٧٨ .

Olive Banks; The Sociology of Education. (٣٧)

B T. Patsford LTD. Third edition. London, 1976, p. 197.

والامتيازات المكفولة لكل فرد ، فالجميع متساوون أمام القانون ، ومتساوون في جميع المزايا الاجتماعية^(٣٨) .

(ب) **القيادة التسلطية** : وقوامها الاستبداد بالرأى . واستخدام أساليب الفرض والارغام والارهاب والتخويف وعدم السماح بالمناقشة والتفاهم ، من أجل الانتصار لذلك الرأى . والقائد التسلطى ، هو من يأمر مرءوسيه بما ينبغى عليهم أن يفعلوه ، وكيف يعملونه ومتى ؟ وأين ؟ وعادة ما يكون القائد منعزلا عن الجماعة التى يعمل فيها ، لا تربطه بهم علاقات انسانية كريمة من التعاطف والمودة .

(ج) **القيادة الترسلية** : وتعنى ترك أمر القيادة للأفراد دون تدخل فى شئونهم . والقائد الترسلى يقوم بتوصيل المعلومات الى أفراد المجموعة ، تاركا لهم الحرية فى التصرف ازاءها دون تدخل منه . وهذا النوع هو أقل الأنواع من حيث ناتج العمل ، كما أنه يفقد القائد الاحترام من المجموعة ، كما يفقد الأفراد فى ظل هذا النظام القدرة على التصرف والاعتماد على النفس . وهذه بلا شك تؤدى الى آثار سلبية تنعكس على شخصية الأفراد وعلى علاقتهم بالقائد وبالتالي على العمل نفسه^(٣٩) .

وحتى ينجح مدير المدرسة فى تحقيق أهدافها ، عليه أن يهيىء جو الاستقرار لتسيير العمل فى إطاره الطبيعى ، كما يحاول بذكائه أن يدخل التجديدات التى يراها مناسبة بالتدريج بما تنتيجه قدرات الأفراد . وهو بذلك يحقق أداء العمل فى انتظام دون اضطراب ، كما يمكن له أن يجدد فى أساليب العمل وفى طرق الأداء فيما يتصل بالاشراف والتنظيم والتنسيق واتخاذ القرار . . . الخ^(٤٠) .

ومدير المدرسة الناجح هو الذى يعمل على التحسين فى العملية التعليمية والتربوية فى ضوء العلاقات الانسانية ، كما يبيت روح التعاون والمساورة بحيث يحقق الأهداف الآتية :

١ - توفير روح الود والمحبة بين جميع العاملين بالمدرسة ، بحيث تتاح للجميع الفرصة فى تساوتهم لتحقيق ذواتهم .

(٣٨) محمد منير مرسى . الادارة التعليمية ، اصولها وتطبيقاتها . مرجع سابق ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٣٩) المرجع السابق ص ٩٠ . (٤٠) المرجع السابق ص ٩١ .

٢ - توفير الأمن والطمأنينة ، والثقة المتبادلة بين أسرة المدرسة جميعها .

٣ - توفير المناخ الصالح لاقامة العلاقات الانسانية السليمة ، في ظل التسامح وتبادل الرأي والخبرات بين الجميع .

٤ - تشجيع الأفراد المبدعين والموهوبين من المعلمين ، بحيث يكافأ الموهوب ، وتتاح له فرصة الاستمرارية في ابراز مواهبه وتنميتها .

٥ - ترسيخ الايمان بالمدرسة كمؤسسة تربوية لها تقاليدها التي يجب تدعيمها وتشجيعها .

٦ - اتاحة الفرصة أمام المعلمين لممارسة أساليب القيادة الصحيحة .

٧ - توفير مناخ الحرية في ابداء مرئيات المعلمين أثناء مناقشة المشاكل الخاصة بالتعليم^(٢١) .

٢ - العلاقات الانسانية بين المعلم والتلاميذ :

لعله من المعروف في عالم التربية ، أن المعلم هو العقل المدبر ، واليد المحركة لنجاح العملية التربوية ، وبمقدار الاعداد الجيد للمعلم ، بمقدار الفائدة التي تعود على التلميذ في جميع النواحي العقلية والابداعية والمعرفية... الخ .

والعلم في مهنته يحتاج الى تربية انسانية طويلة ، لأن مهنة التدريس تخالف غيرها من المهن اليدوية مثل الكتابة على آلة ، أو قيادة مركبة أو غير ذلك . فلكي يصبح الفرد معلما مجيدا لمهنته ، لابد من توفر قدر معين من الثقافة العقلية والأخلاقية والروحية ، لأن لكل هذه النواحي اتصال مباشر بعمل التدريس ، فهو محتاج الى ثقافات واسعة وفوق ذلك هو محتاج الى تربية مستمرة يداوم عليها ما استطاع الى ذلك سبيلا^(٢٢) .

والقوى البشرية الذين يتعامل معهم المعلم ، تتركز أصلا في الطلاب الذين يقوم بالتدريس لهم ، بالإضافة الى المدير والزملاء وسائر العاملين بالمدرسة من موظفين إداريين وعمال .

(٢١) حسن مصطفى وآخرون . اتجاهات جديدة في الادارة المدرسية .

مرجع سابق ، ص ٧١ ، ٧٢

(٢٢) جيمس س. دوس . الاسس لنظريات التربية . مرجع سابق ،

وإذا كنا دائما وأبدا نسعى الى النهوض بالعملية التعليمية . فان أول ما يلتفت نظرنا هو المعلم ، كفاءته ، وقدرته العلمية . واجادته على استثمار جميع الطاقات البشرية في محيطه المدرسي ، واستحدثاته للتطبيقات العملية ، وأتاحة الفرصة أمامه لممارسة أكبر قدر ممكن من النفوذ في داخل الفصل وخارجه ، والارتفاع والسمو بالعلاقات الانسانية الى أفضل مستوى لها ، كل ذلك كفيلا بتحقيق أفضل النتائج وأقواها في النهوض بالعملية التعليمية .

والمعلم كأي كائن بشري ، له حاجاته ومطالبه . سواء منها المادية ، أو النفسية ، أو الاجتماعية . وحين تشيع العلاقات الانسانية الطيبة والسليمة في جو المدرسة ، وحين يتحقق للمعلم مقدار مناسب من الشعور بالذات في علاقاته مع مدير المدرسة ومع زملائه . وحين يتوفر له المكان المناسب والكتاب المناسب ، والوسائل اللازمة للعملية التعليمية ، حين يتوفر كل ذلك . يمكننا أن نتوقع من المعلم الارتفاع بالمستوى التعليمي وبنوعيته ، نظرا لارتفاع روحه المعنوية ، والتغلب على المشكلات والصعوبات التي تواجهه في العمل سواء منها ما يتصل بالتلميذ أو الادارة .

والمعلم ما زال « حجر الزاوية دائما في العملية التربوية . وان نجاح هذه العملية يعتمد بالدرجة الأولى على المعلم ، وتقدم التلاميذ في الفصل يعتمد على مدى كفاءة المعلم ، واعداده الجيد ، واخلاصه في عمله ، وحبه له ، وتحمسه للمهنة ، وهو في كل ذلك يخضع في آدائه لعمله ، ودوره في العملية التعليمية لعدد من العوامل التي تؤثر تأثيرا مباشرا على آدائه لهذا الدور ، وفي مقدمتها الوضع المادي والاجتماعي للمعلم وظروف العمل وحوازه » (٤٣) .

وقد يقال أحيانا كثيرا ما نيط بالمعلم من ثقل المسؤولية ومن عبء المهمة الملقاة على عاتقه ، وهضم حقوقه ، وضعف مكانته الاجتماعية ، ووجود الحواجز في علاقاته بزملائه . وقد يثار ذلك وغيره كثير ، ولكننا ننسى في زحمة المطالبة بالحقوق ، القيام بالواجبات ، فكثير من المدرسين يضعون أنفسهم في أبراج عاجية بالنسبة للتلاميذ ، يتعالون عليهم ، ويقيمون حواجز خرسانية في امكانية الاتصال بهم ، أو تبادل الأفكار

(٤٣) محمد منير مرسى . الادارة التعليمية . أصولها ومبادئها ، مرجع سابق . ص ٢١١

معهم ، ناهيك عن كبت كوامنهم حتى أثناء قيامهم بالعملية التعليمية داخل الفصل . وربما نلّمح بعض المعلمين لجأوا إلى هذه المهنة لأنهم « لم يجدوا عملاً يعولهم ويعول أطفالهم إلا التدريس ، والتدريس منهم براء والتربية لا تجد فيهم » ، ولا فيما يدرسونه ، ولا فيما تحويه المدرسة وإدارتها شيئاً كثيراً يمكن أن يفيد الأطفال » (٤٠) .

وحتى الفئة من المعلمين والتي لا تعاني من مشكلات مادية أو اجتماعية ، قد يتعللون بنوع النظام المتبع داخل المدرسة ، وقد يعنون نوعاً من البيروقراطية التي تحد من نشاطهم ، وبالتالي تؤثر على ترابطهم مع تلاميذهم في علاقات جيدة . أقول بالرغم من ذلك ، فربما ينجح معلمون في ظل نظام بيروقراطي داخل المدرسة ، قد ينجحون في قيادتهم وفي علاقاتهم بتلاميذهم ، وفي تدريسهم أكثر من غيرهم في المدارس الأقل بيروقراطية . « وفي دراسة إنجليزية قام بها « ريفانس » (Revans) حاول أن يربط بين أسلوب القيادة وفاعلية المدرس وأداء التلاميذ . وفي محاولته لتفسير اختلاف التلاميذ في الإدراك ، قام بدراسة اتجاه الأطفال نحو المدرسين ، واتجاه المدرسين نحو إدارة المدرسة ، فأنهم يحاولون أن يكونوا مرغوبين من تلاميذهم ، وبالتالي يصبحون مؤثرين ، بيد أنهم إذا رأوا أن رؤسائهم ديكتاتوريين ، فأنهم بدورهم يعدون من وجهة نظر تلاميذهم غير متعاطفين وغير مؤثرين . ومع ذلك فليس من الضروري أن يرتبط أسلوب القيادة ، بمستوى البيروقراطية في المنظمة ، فلقد وجدت دراسة مولر وكارترز (Moeller) (Charters) & أن أسلوب القيادة ومستوى البيروقراطية غير مرتبطين ، وأن المدرسين في المدارس البيروقراطية لديهم إحساس كبير بالقوة أكثر من غيرهم في المدارس الأقل بيروقراطية . وعلى ذلك فيحتمل أن يكون أسلوب القيادة متعلقاً بالشخصية أكثر من تعلقه أو ارتباطه بنمط تركيب المنظمة » (٤١) .

وإذا صح أن أسلوب القيادة يرتبط بالشخصية أكثر من ارتباطه بنمط تركيب المنظمة ، فإن العبء يزداد على المعلم في مدى نجاحه داخل الفصل ، وفي اكتسابه لحب الأطفال الذين يتعامل معهم ، في غير

(٤١) سعد مرسى أحمد . التربية والتقدم . عالم الكتب ، ط ٣ ،

القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٢٢

Olive Banks, The Sociology of Education; Op. (٤٥)

Cit. pp. 199 — 200.

ما افراط أو تفريط ، أو تقصير في العملية التعليمية . أو تبني مجموعة من الأطفال دون أخرى ، أو تدخل عوامل ذاتية أخرى .
كل ذلك يتوقف بالدرجة الأولى على نوعية الممارسة للمعلم مع الطلاب ، فإذا اعتمد أسلوب السلطة في علاقاته ، وأن على الصغير أو المتعلم أن يطيع ويمتثل ، ولا يخالف أمرا يتعلق بالقواعد أو النظام ، فإن هذا الأسلوب يكون قد حدد ما يجب أن يفعل وما لا يجب ، وعدم قدرة الطفل على تنفيذ قاعدة أو أمر يعد خطأ لا نسيانا حتى مع وجود حسن النية .

وبناء العلاقات الانسانية ، وترسيخ القواعد الأخلاقية بهذا الأسلوب المفروض ، يتحول الى طاعة عمياء ، بل قد يصل الأمر الى حد أن تتميز جماعة دون غيرها وقد يحمي الكسالى أحيانا .
والأطفال بلا شك هم نتاج القواعد والأنظمة التي يعاملون في ظلها ، وحيث أن الأوامر والنواهي تفرض على الفرد دون توضيح لأسبابها أو مبرراتها ، فالسلامة اذن تكون في طاعتها والامتثال لها .

يروى « كيلمر برنجل » (Kelmer Pringle) أن طفلا في مدرسة طلب منه أن يكتب - بالترتيب التنازلي - أكثر الأشياء التي يرى أنها شريرة - وقد ترأست قائمة الطفل كلمتان « القتل » و « الصياح في الممرات » لم يستطع الطفل هنا تمييز المقصود بالشر بالضبط الى الدرجة التي رأى فيها التكلم بصوت عال - مثلا - أثناء سير الأطفال في ممرات المدرسة من أكثر الأشياء شررا لا يسبقها الا القتل . كان هذا نتيجة تعليم الأخلاق بطريقة استبدادية» (٤٦) .

من هنا جاءت طاعة الأطفال نتيجة لمؤثرات عديدة ، مثل التهديد والإنذار ، والعقوبة ، حتى إذا ما تبدد خطر السلطة ، أو غابت اختفت ظاهرة الطاعة هذه لأن الدافع اليها قد غاب أو زال .

ولا شك أن التربية بهذا النمط الاستبدادي لا تحقق أهدافها ، حتى حين تنجح ، فليس نجاحها سوى انصياع للغير ودمج لمطالب الفرد مع مطالب غيره ، وتجاهل تام لشخصه ، لأن ذاتا عليا غير ذاته تسيطر عليه ، وهي لا تقبل النقد ، بل تصبح مصدرا لقلق يصيب الطفل ولا يستطيع السيطرة عليه .

(٤٦) ر. ف. ديردن . فلسفة التعليم الابتدائي . ترجمة سعد مرسى

أحمد . عالم الكتب . القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

« ان حماية القواعد والقوانين من النقد يرفعها الى مصاف التقديس ، وتصبح مصبونة لا تمس ، ومن لا يخضع لها يوصم بالشروع بل يعتبر خطرا على الغير ومصدرا للمتابع ، وتستمر هذه القواعد والقوانين في صلاحيتها وتأثيرها آمرة الخضوع من الغير لها دون مناقشتها ، وتتعاقب أجيال كثيرة ، وتتغير الظروف ، ولكن القوانين سارية المفعول شديدة الأثر تصبح جزءا من طبيعة الأشياء ، بل تصبح أسمى من أن تستطيع عقولنا فهمها وفهم مبرراتها » (٢٧) .

وأيا ما كان الأمر ، فالمعلم المرن هو من يبنى علاقاته مع طلابه بالمنطق والعقلانية ، وان اضطر الى استخدام التقرير واللوم ، فلا مناص من أن يكشف عن الأبعاد التي اضطرتة الى ذلك ، بحيث تنكشف عدالته أمام الجميع ، لأن الأطفال يحتاجون الى أسباب وجيهة ، بها يقتنعون من فعل شيء ما أو الكف عنه ، وربما يبدو ما يريده الكبار فرضا لطلب أو ارغاما عليه ، ولكن حين يتبدد أمام الطفل منطق القسر والتسلطية في الطلب ، وتتجلى أمامه الأسباب والمبررات فانه يأتي هذا الفعل ، بل قد يتشوق صناعيا اليه ، وان كان هذا سوف يجد معارضة عندما يكبر هؤلاء الأطفال .

وعلى كل حال فكلما اتضحت الاسباب بالشرح والتفسير ، في اطار من الاستقلالية ، كلما زاد شغف الفرد لاثبات العمل ، « اذ المفروض أن تقدم الاسباب وتشرح في اطار من التفاهم المتبادل لا على أساس أن واحدا يفرض عليه أن يستمع للشرح والتوقعات . ولعله من السطحية افتراض أن كل ما يقوله ويفعله الطفل صواب ، أو أن الاهتمام بمصالح الغير وأخذها في الاعتبار وحب العدالة ... وغيرها يمكن تعلمها دون أن يتخلى الطفل كارها عن رغباته » (٢٨) .

واذا كان ولا بد من الاعتراف للطفل بالمشاركة الايجابية والرغبة الصادقة فيما يأتيه من عمل ، فلا مندوحة والحال كذلك ، من ضرورة تخلص المعلمين من العلاقات التقليدية التي تربطهم بطلابهم ، علاقات قوامها منهج مقرر ، منزله — من وجهة نظر واضعيه — عن الخطأ والباطل . والمدرس هو المنفذ بالكلمة ، والأمر بالسؤال ، وليس للطلاب سوى الطاعة والامثال والقبول والاقتناع .

(٢٧) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٢٠٨

وتربية بهذا المستوى لا تحقق هدفها في بناء الفرد الحر ، لأننا لا ننشد قدرا معرفيا فقط في العملية التربوية ، بل يضاف إليها التربية والتوجيه والمساعدة والتنظيم وبذل الجهد في تطوير العلاقات بالطلاب الى سلوك هادف ، ونمط سليم في الحياة .

وإذا كانت تلك هي الصورة المنشودة ، فلا يسوغ لمعلم في هذا العصر المتزاحم بالتقدم والمتغيرات ، أن يكتفى في العملية التعليمية ، بإعطاء دروس محفوظه ، أو أملاء كلمات مكتوبة ، ينسحب بعدها من أمام الطلاب ، وكأنه ترس في آلة يتحرك دخولا الى الفصل وخروجا منه بآلة تنبيه تصدر له الأوامر ، ضاربا بالعلاقات الانسانية عرض الحائط . وكأن التربية من وجهة نظره غدت كتابا مرسيا . ومنهجا جامدا يقوم بتجفيفه وتسميعه للطلاب والمتعلمين (٤٩) .

وتربية هذه مقوماتها ، لا يتوقع لها أن تنتج عقلا حرا مثقفا . يتكنولوجيا العصر ، ومحصنا بقوانين العلم . « قال هـ.ج. ويلز : ان المدنية سباق بين التربية والدمار ... والتربية علم لا يجب أن يخضع للعفويات ، ولا يجب أن يكون ملجأ من لا عمل له . ان الدولة التي تتهاون في تنمية ورعاية عقول أجيالها المساعدة هي دولة تنتحر عقليا وثقافيا وخلقيا ووجدانيا ، وفوق كل هذا تتخلف علميا في عالم أصبح للعلم والتكنولوجيا فيه مكان الصدارة » (٥٠) .

وعلى أية حال فلهما أعدنا من منهج ، وطورنا في الكتاب ، وأصلنا من طريقة التدريس ، شخصية المعلم ما زالت نقطة البداية والنهاية في العملية التعليمية داخل الفصل ، والمعلم الذي يترك أبواب فصله مفتوحة ، اللهم فيما عدا الظروف الخاصة — لا شك هو المعلم القادر على الاحتفاظ بالنظام دون فقد كرامته أو التعرض للتهكم ، أو الاعتداء على أواصر العلاقة الطيبة مع التلاميذ .

من هنا فاجبات المدرس للتلاميذ على التعلم : وقهرهم على تعلم ما لا يريدون وعدم استغلاله للمواقف المتعددة خلال اليوم المدرسي في تحقيق أهدافه التعليمية ، والسلوكية ، سيجر بالضرورة الى تحويل العلاقة بينه وبين التلاميذ الى صراع حتمي .

وقد أوضح « والر » (Waller) سبب الصراع الحتمى الذى يبدو فى علاقة المعلم بالتلميذ ، بأن المعلمين يجبرون التلاميذ على التعلم .
 فإذا سمح للتلاميذ أن يتعلموا ما يهتمون به فقط ، وبطريقتهم الخاصة . ولا يتعلمون أكثر مما يريدون ولا أفضل منه ، وإذا كانت هناك مرونة فى أسلوب مفهوم النظام داخل الفصل كشرط ضرورى للتعليم . وإذا اعتبر المعلمون أنفسهم مجرد مساعدين وأصدقاء . عندئذ ستصبح الحياة جميلة داخل الفصل الدراسى (٥١) .

ولكن هذا يتم سريطة أن يغتتم المعلم الفرصة التى ينشط فيها التلاميذ ليكسبهم الخبرات المختلفة بواسطة اثاره المشكلات أمامهم ، ثم ارشادهم الى التفكير الصحيح لمواجهةها بغية الوصول الى حلها ، وهذا النمط يساعد على النمو الجسمى والعقلى والخلقى والاجتماعى ، وكسب عادات النقد الحر ، والسلوك الصحيح .

والمدرس فى أدائه التربوى ، ونجاحه فى ذلك ، عليه أن يبدؤ طبيعياً فى أدائه لعمله ، حتى يثق فيه الطلاب ، ويقيمون معه جسراً سليماً من العلاقات الطيبة . وبمقدار الخلق العظيم ، والعقل الراجح ، والخبرة المدربة ، بمقدار تأثير المعلم فى تلاميذه ، وأفادتهم منه .
 من هنا فلا مجال للتخويف ، واستجداء حب التلاميذ تحت وطأة السيطرة ، اللهم الا بما يسمح بسلامة النظام وتبادل الاحترام والمحبة والتقدير (٥٢) .

وتوفير جو من التلاحم والترابط بين المدرس والتلاميذ ، يساعد على مواجهة الكثير من المشكلات التى تواجه التلاميذ ، بحيث يتولد لدى التلميذ الذى يواجه مشكلة اجتماعية ، جو مدرسى قوامه الحب والتعاطف والاحياء .

وهذا بدوره يتوقف على مدى استعداد المعلم ، بتقصي كثير من المشكلات الاجتماعية التى تواجه التلاميذ ، ليعمل على حلها ، فلا يكتفى مثلاً بلوم التلميذ على تقاعسه فى أداء الواجب المنزلى ، دون أن يتعرف على المشكلات المنزلية التى يتعرض لها التلميذ ، حينئذ يكون حكمه على

Olive Banks, The Sociology of Education. Op. (٥١)

Cit p. 243 .

(٥٢) جليل شكرى عجيان . مشكلات الطفولة فى المجتمع المدرسى .
 مطبوعات نربوبة . مطبعة النجاح . دمنهور ، مصر ، بدون تاريخ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

أساس سليم وتوجيه صحيح ، وربما نجح في تقويم هذا التلميذ بنمط مناسب دون أن يتمادى في تقويمه بأسلوب غير مناسب .
وحسن المعاملة للتلميذ تشعره بالأمن وتزيل لديه كراهية المدرسة ، والمدرسين ، وتشعره بالاطمئنان . وترغبر هذه الجوانب يتوقف على السياسة السليمة للمدرسة والمدرس على السواء^(٥٣) .
والتوسط في المعاملة هو حجر الزاوية في إقامة العلاقات السليمة ، فلا يناق المدرس الطلاب ، حتى لا يفقدون ثقتهم به ، كما أنه لا يبالغ في المثالية التي تجعل التلاميذ ييأسون من محاكاته ، بل وقد يشعرون بفشلهم في السير على منواله ، والتأسي به .

كما أن مبالغة المعلم في اصفاء مزيد من التكلف مع التلاميذ بغية اكتساب وقار أكثر أو احترام أوسع ، فيتأفف النزول الى مستوى التلاميذ وينظر اليهم نظرة فوقية ، كل ذلك يتعارض مع روح الديمقراطية في التعليم ، بل وربما يخفى وراءه مداراة القصور في قدرة المعلم المعرفية ، أو الشخصية ، الأمر الذي قد يفسد على التلاميذ جو المدرسة ، وربما يسبب بعض المشاكل المتصلة بالسلوك العام للتلاميذ^(٥٤) .

والتلاميذ دائما في حاجة الى سياسة في المعاملة قوامها الصبر والنظام ، وسعة الصدر ، مع عدم التفريط في أسلوب الضبط العام للفصل في كياسة وفطنة تتناسب مع الموقف التعليمي . والمدرس غالبا يتحمل توجيه التلاميذ الى الأفضل في جميع الجوانب الثقافية والاجتماعية والدينية لأن شأنه أنه أرقى أفراد البيئة ثقافة وعلمًا .

« وقد تكون شخصية المدرس الضعيف سببا في الفوضى والاضطراب بين روح الجماعة ، فلا يمكن أن نسميها روحا اجتماعية بالمعنى السليم ، وقد تكون شخصية المدرس حازمة فيتصرف في شدة وحزم ، ويتشدد في لين وعطف ، بحيث يكاد يشعر التلاميذ نحوه بالشعور الوالدي الذي يستتبع الكثير من الصفات الاجتماعية ، كالتضحية والتقدير والايثار والمودة ، وهذا الاتجاه أكثرها قدرة على انتاج الروح الاجتماعى السليم ، وهذا المدرس أكثر قدرة من غيره من المدرسين ، على التوجيه الاجتماعى ، وفي هذا الجو يكاد يشعر التلاميذ ومدرسوهم بارتباطهم ارتباطا وثيقا

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ٨٨

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ٩١

داخل المجتمع الذى يعيشون فيه ، رباط تشيع فيه المودة الحقيقية والألفة والتعاون الصادقان • وبسير المجتمع المدرسى بهذا نحو هدف واضح لخدمة الجماعة المدرسية» (٥٥) •

والواقع أن ممارسة التلميذ للمشروعات المختلفة والجمعيات المتعددة بالمدرسة سواء منها التمثيل أو الموسيقى أو الرسم ، أو الرياضة أو الكشافة أو الجواله ... الخ ، تشكل عنده أنماط التعاون ، وروح الجماعة . بل وتربى فيه العلاقات الطيبة مع الآخرين بروح مشبعة بالحب والوفاء •

« ولضمان قدرة المدرسة على توجيه الاحساس الاجتماعى السليم ، لا بد وأن تكون العلاقات المدرسية بين المدرسين وبعضهم ، وبينهم وبين ناظر المدرسة ، وبينهم وبين التلاميذ ، وبين التلاميذ وبعضهم ، وبين الفصول المدرسية فيما بينها ، تسير سيرا طبيعيا مرضيا ، يؤكد العلاقة السامية برباط عام بين جميع أفراد هذه الأسرة الكبيرة» (٥٦) • وعموما فدرجة النضج الوجدانى للتلميذ وللمعلم ، والانضباطات المفروضة على التلميذ ، وردود الأفعال المتبادلة ، كل ذلك له أهمية فى نوعية العلاقات وتكوينها •

والمعلم الذى يتمتع بشخصية ناضجة ، يستطيع أن يواجه المشكلات التى يعيشها الطفل ، بل ويساعده على حلها ، وعلى التخلص من الأوهام اللاشعورية ، التى تكونت عنده من سوء العلاقات الأسرية الأولى ، والتى اتسمت بتشوهات ذاتية ، أساء التلميذ تصفيتها ومواجهتها • « أما فى المدرسة فالعلاقات الشخصية الأوسع نطاقا مصحوبة بتقوية للاحساس بالواقع ، وبانحسار الذاتية والأوهام • • وهكذا يقوى « أنا » الطفل قدرته التأليفية ، بمزيد من التمييز بين الجانب الخيالى ، الذى كثيرا ما يكون مسببا للاضطراب ، وبين الواقع الملموس أو العينى الذى يستند إليه « الأنا » القوي» (٥٧) •

وتكوين الطفل لذاته ، ينضج اذا تمكن أن يؤكد ذاته ، حين تزيد

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٢١٦ ، ٢١٧

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٢١٧

(٥٧) جورج موكو . التربية الوجدانية والمزاجية للطفل . ترجمة مبير العصرة ، نظمى لوقا . الجمعية المصرية لنشر الثقافة والمعرفة العالمية . القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢٦٢

نقته بنفسه ، والفرد لا يمكن أن يؤكد ذاته ، دون أن يثق بنفسه ، ويشعر بأنه مقبول من الغير ومحبوب له ، وجائز علي الاعجاب الكامن في كل نشاط مدرسي ، بالإضافة إلى الرغبة في الاكتساب والتعلم (٥٨) .

وهكذا يصبح سلوك المعلم مثيرا لاستجابات وردود أفعال لدى التلاميذ ، لأن التلميذ لا يمكن أن يكون بمعزل عن البيئة ، فهو من نتائجها على نحو ما ، وبالتالي فمسلك المعلم وكيونته ، وموقفه من التلميذ ، بالشدة أو اللين ، بالحياء أو عدمه ، كلها عوامل تعين في تحديد مسلك كل منهما (٥٩) .

والتربية في جميع تلك المظاهر واقعة شخصية ، شئنا أم لم نشأ ، لأن قوامها الأفراد ، فهي ضرب من الحوار ، « وسواء أكان المعلم محبذا للشعور المدرسي أو لم يكن ، فالواقع أن للحساسية أهميتها العظيمة في العمل والانضباط المدرسي . ومن هنا عظم أهمية كل ما من شأنه ادخال الاضطراب على علاقات المعلم والتلميذ » (٦٠) .

وتاريخ المعلم وماضيه له دور كبير في تحديد سلوكه مع الطلاب ، وعلاقاته معهم ، لأن تلك العلاقة أشد ما تكون تأثرا بالماضي ، والمعلم بماضيه الطفلي ، قد يفترض عليه اختيار الطرق التسلطية ، التي يجتهد في تبريرها فيما بعد ، عن طريق عقليته ، واتخاذ ذرائع وحجج ذهنية محضبة . وندرة من المعلمين هم القادرون بقوة شخصيتهم على التخلص من هذا الماضي وتجاوزه وعدم تكراره (٦١) .

وأيا ما كان الأمر ، فاختيار المعلم لأسلوبه ، وطريقته في التربية ، وفي تكوين العلاقات وإبراز القيم ، والتصورات الخاصة عن المواطن ، ومعالجة الظروف الموضوعية والقوى المختلفة المؤثرة في اتجاهات التلاميذ ، كل أولئك رهن بنظرة المعلم في تنمية القيم الخلقية كأسس لتلبية الاتجاهات العقلية والاجتماعية عند التلاميذ (٦٢) .

صحيح أن المعلم تحدده عوامل أساسية ، منها السياسات التربوية العامة ، والاتجاهات التي تتضمنها أو تقوم عليها ، غير أن شخصية

(٥٨) المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ . المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٦٠) المرجع السابق ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٦٢) محمد الهادي عفيفي . في أصول التربية ، الأصول الفلسفية

للتربية . مرجع سابق ، ص ٣٢٩

المعلم ووعيه بمدى تلك السياسات وهذه الاتجاهات وقدرته على هضمها وتمثلها . هو حجر الزاوية في نجاحه في التأثير على التلاميذ ، بالنمط الذي يختاره . والعلاقات الانسانية التي يفضّلها ، ووسيلة الثواب والعقاب التي يجذبها ، فقد يستخدم وسائل مادية ، أو معنوية ، وقد يكون تأثيره مباشرا عن طريق المواجهة ، وقد يستخدم ضغط الجماعة والجو الاجتماعي .

وكما سبق أن ألمحنا ، فالتلميذ يفعل مع المدرسين في قاعات الدرس ، أو في مجالات النشاط المختلفة ، والتلميذ في هذا يحتاج الى نموذج طيب في الخلق وفي السلوك . والمدرس هو هذا النموذج ، الذي يمثل النظام كقيمة ، والفضيلة والمعرفة والموضوعية والعدالة والحق والالتزام .

وهو في هذا يتأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها ، ولا تسك في هذا أن نظرة المعلم الى موقعه ، وإلى ما يعبر عنه من قيم متأثر بأوضاعه تلك وينفعل بها^(٦٣) .

ولا مندوحة للمعلم الذي ينشد التوجيه الذاتي للتلاميذ ، ويشجع لديهم النشاط القائم على التفكير والولاء للعمل الجماعي باعتباره المجال السليم لحفز التفكير وبناء شخصية التلميذ ، لا مندوحة للمعلم الذي يسعى لتحقيق ذلك . من الالتزام بالقيم الديمقراطية في علاقاته بالتلاميذ ، واحترام شخصيتهم . وتوفير الفرص التعليمية المتميزة بالعمق والتوجيه لهم . وتنمية روح المسؤولية بينهم ، والمساواة الكاملة في المعاملة^(٦٤) . عندئذ نستطيع أن نجزم بأن العلاقات الانسانية في الحقل التعليمي ، قد حققت أهدافها ، وأكدت أهميتها في العملية التربوية والتعليمية .

٣ — العلاقة بين المعلم والتلميذ في الفكر الاسلامي :

واذا عدنا الى الوراء قليلا ، فسوف نلمح أن مفكرى المسلمين كانوا يؤكدون دائما على اقامة علاقات انسانية متبادلة بين المعلم والتلميذ ، قوامها الاحترام المتبادل ، والتقدير المتكامل للمعلم في غير ما خنوع ولا خضوع ، لأن العلم رحيم بين أهله ، ولأن التلميذ عهدة عند المعلم ، عليه أن يرعاه ويتعهده بما يصلح فيه دينه وخلقه .

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠

(٦٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

ويذكر الامام الغزالي في « احياء علوم الدين » ثمان وظائف ،
يراهما ضرورة للمعلم في صلته بالمتعلمين :

(ا) أن يكون شفوفا بالمتعلمين * قال صلى الله عليه وسلم :
« انما أنا لكم مثل الوالد لولده » وبهذا فحق المعلم أعظم من حق
الوالدين ، لأن الوالد اذا كان سببا للوجود الحاضر والحياة الفانية ،
فالمعلم هو الذى يفيد المتعلم ويعدده للحياة الأخروية الدائمة .

ولما كان التلميذ للمعلم كولده ، فعلى المعلم أن يرسخ في تلاميذه
المحبة والتعاون والتواضع ، والبعد عن التحاسد أو التباغض .

(ب) أن يقتدى بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم . فلا يطلب
على افادة أجرا ولا يقصد جزاء ولا شكورا ، بل يعلم لوجه الله تعالى ،
دون منة أو تفضل على أحد .

(ج) أن ينصح المتعلم ، ويمنعه من التصدى لعلم قبل الاستعداد
له أو يتشغل بالخفى قبل الجلى * على أن يكون غرضه من العلم وجه
الله تعالى .

(د) أن يستخدم مع المتعلم أسلوب التعريض ما أمكنه ،
وآلا يوبخه ، ففى التوبيخ هتك لحجاب الهيئة ، كما أنه يكسب الجراة
على الحاجة بالخلاف فى الراى والحرص على التمسك به .

(هـ) على المعلم أن يكون قدوة لتلميذه فى العلاقات الانسانية ،
فلا يقبح أمامه من شأن علم آخر ، لأن ذلك ينسحب على معلم ذلك
العلم ، ناهيك عن أن التلميذ قد يألف هذه الخصلة فيقتدى بتأستاده
فيها ، ويألف تجريح غيره والطعن فيهم .

(و) أن يقتصر بالمتعلم على ما يستوعبه عقله ، فقد قال صلى
الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم
ونكلمهم على قدر عقولهم » .

(ز) التلميذ المحدود الذكاء ، يتعلم بالقدر اللائق به ، فيقدم
له من المسائل أوضحها ، ولا يذكر له أن هناك أمورا دقيقة وراء تلك
المسائل ، فان ذلك يفتر رغبته فى المسائل الواضحة ، بل ويشوش
عليه قلبه .

(ح) على المعلم أن يعمل بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، لأن المعلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالابصار • ولذلك فكل من خالف قوله فعله • فإنه يمنع الرشد ، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس منه واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه • فيقولون : لولا أنه طيب الأشياء والأذها لما كان يستأثر به (٦٥) •

والغزالي حين يؤكد على إقامة علاقات انسانية بين المعلم والتلميذ لم يفته أن ينبه على المتعلم ضرورة تقديره لأستاذه وطاعته آياه ، وعدم اللجوء الى اللغط والجدل في مسائل هو غير مستعد لها • ولا ننكر أن تربية هذه دعائمها ، نجحت أيما نجاح في تخريج أجيال وعلماء أفادوا العلم وأقاموا الدين ، في ترابط متكامل ، وتلاحم تام في ظل من العلاقات الانسانية الرشيدة •

ثالثا — التطبيق التربوي للعلاقات الانسانية في ظل المبادئ الدينية :

(١) دور المبادرات في بناء العلاقات الانسانية :

أما وقد تناولنا بالحديث العلاقات الانسانية في المدرسة ، ودور المعلم والمدير في بناء صرح العلاقات الانسانية الهادفة التي تتشد النجاح في العملية التربوية وبناء الفرد المتناسق داخليا وخارجيا ، الخالي من عقد التسلطية والديكتاتورية ، والأنوية ، في عصر تراجمت فيه قنوات الثقافة المختلطة بشكل مخيف ومروع ، أما وقد تناولنا ذلك ، فقد بات على التربية أن تفتش لها عن دور ، في خضم هذا التراحم وهذا الهيجان الفكري •

ولقد بدأ أمامنا صعوبة التطبيق التربوي للعلاقات الانسانية في المدرسة ، نظرا لمشكلات تكتنف قيادة المدرسة والمعلمين بها • ولا شك أن تراحم الأهداف التربوية والتعليمية ، وكثرة القنوات المصدرة لتلك الأهداف ، تلعب دورا كبيرا في قصور استثمار العلاقات الانسانية ، والحد من وضعها في المكان اللائق بها في أداء العملية التعليمية •

(٦٥) الامام الغزالي . احياء علوم الدين ، ج ١ ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني . القاهرة . بدون تاريخ ، ص ٥٥ ، ٥٨

ولا مراء فى أن التربية فى عالمنا العربى والاسلامى . تشهد فى الآونة الأخيرة اضطرابا منقطع النظير ، وباتت عملية التعليم لا تولى اهتمامها فى بناء صرح العلاقات الانسانية الصادقة سوى صب كل مقوماتها فى الجانب المعرفى المهلهل التقليدى .

ولا مندوحة أن تربية اعتمدت فى بنائها على كثير من فكر وافد ، وأهداف لا تتوافق — فى غالبيتها — مع المنهج الاسلامى . لا مندوحة والحال كذلك من تذبذب التلاميذ والمتعلمين ، بين الواقع الذى يعيشونه فى المدرسة وبين ما يجب أن يكونوا عليه فى ظل القيم الانسانية الصادقة التى تعتمد على الفكر الاسلامى والمنهج الدينى .

ولا جدال فى أنه لو صالح المنطلق الذى تشتق منه أهداف التربية ، نصح التطبيق التربوى ، ولاستقام بالتالى النظام التعليمى . ولما كان المنطلق الحالى فى التعليم ، يشتق فى كثير منه . من فكر سياسى أو اقتصادى أو ثقافى أو بالأحرى فكر وضعى لا يستقيم — فى غالبيته — مع الفكر الاسلامى ، لذلك تحطمت كثير من النتائج التربوية المنشودة ، فوق صخرة التقليد ، وتحتم مظلة الأنظمة الجامدة فى التعليم .

والتلميذ فى عصرنا ، بات لا هم له ، سوى منهج يحفظ ، وكلمة تكتب ، ضاربا عرض الحائط بالقيم الأخلاقية الصحيحة ، والعلاقات الانسانية الصادقة .

بيد أننا لو عدنا الى الاسلام ، فسوف نجد أن العلاقات الانسانية بنى فيه من منطلق أساسى سليم ، ومن ركيزة وحيدة هى : عدم الشرك بالله رب العالمين .

ولكن كيف كان ذلك ؟ ... اذا نقى الضمير عند الفرد معلما أو متعلما ، اذا نقى من أوشاب الشرك فى جميع صوره ، واذا تطهر القلب من أوشاب الخرافة ، واذا تخلص المجتمع من تقاليد الجاهلية ، واذا تطهرت الحياة من عبودية العباد للعباد ، اذا توغر ذلك ، حينئذ يكون ارتباط الفرد المسلم بربه وعلاقته به على بصيرة .

نم تأتى علاقة الجماعات والأفراد ، مقاسة بهذا المعيار الثابت (عدم الاشراف بالله) الذى نرجع اليه فى كافة الروابط ، ومقاسة كذلك بالقيم الاسلامية التى شأنها أنها تحكم الحياة البشرية ، فلا تظل نهبا

لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التي تتراوح مع النزوات والشهوات (٦٦) .

ولا نجانب الصواب حينئذ حين نقرر أن اطار العلاقات الانسانية في ظل هذه القاعدة الاسلامية ، خير ضمان لحسم الكثير من الجدل حول التطبيقات التربوية الصحيحة للعلاقات الانسانية ، ذلكم أن اطارا في ظل تتسريع ثابت ، يربط الخلق بالله أولا ، ويحقق متطلبات البشر الانسانية ثانيا ، ويصحح المفاهيم الخاطئة نحو المغزى الصحيح للعلاقات الانسانية ثالثا ، أقول : أن اطارا هذه مقوماته ، لأجدر بمجتمعنا الاسلامية أن تسير في هديه ، وأن تترسم خطاه ، بدلا من أن تعيش في ظل أطر وأفدة من هنا وهناك ، هي بعيدة عن ديننا أولا ، وهي مفككة فيما بينها ثانيا ، وهي لا تتوافق ومقومات الفرد المسلم ثالثا .

وبهذا فإن منهج الاسلام في بناء العلاقات الانسانية فيه تحقيق لسعادة الفرد والمجتمع على السواء ، طالما استقامت علاقة الفرد المسلم بربه . وتحققت في ائزان كامل ، وأسلوب صحيح .

وقبل أن نوضح الدور التربوي للعبادات في بناء العلاقات الانسانية سوف نشير الى أهمية علاقة المسلم بالله تعالى ، على أنها الركيزة الأولى في بناء صرح العلاقات الانسانية السليم .

١ - **العلاقة بالله تعالى** : اذا تمت علاقة الفرد بخالقه في ائزان وادراك بأن الله سبحانه وتعالى ، هو وحده المتوكل أمر العباد عليه المعتمد ، تحقق للفرد الاطمئنان والاستقرار في الحياة . قال تعالى : **« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب »** (٦٧) يقول الامام البيضاوي في تفسير تلك الآية : **« وتطمئن قلوبهم بذكر الله أنسابه واعتمادا عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته أو بكلامه يعنى القرآن الذى هو أقوى المعجزات . « الا بذكر الله تطمئن القلوب »** تسكن اليه » (٦٨) .

(٦٦) سيد قطب . في ظلال القرآن . ج ٣ ، دار الشروق ، ط ١٠ .

١٩٨١ ، ص ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ (٦٧) الرعد : ٢٨

(٦٨) الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي . أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المسمى تفسير البيضاوي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . بدون تاريخ . ص ٣٣٢

ان احسان الفرد المسلم للاتصال بالله ، يعتمد على درجة اتقانه العمل بكتابه ، والالتزام بتعاليم رسالته ، فيتوازن في ذاته ، ولا يسقط في مزالق المادة أو الجاه والمنصب . ويتحقق باحسان العلاقة بالله كذلك ، توازن حياة الجماعة ، فلا تشتد أزمة بانسان ، ولا تغرى ميسرة انسانا بآخر ، ذلك أن الاتصال بالله يحول دون اذلاله الناس وامتهان كرامه البشرية ، كما أنه يصفى الوفا والائتزان على تصرفات من حباه الله بفضلته وأفاض عليه من نعمه .

ولا مناص اذا أرادت البشرية أن تقيم علاقاتها الانسانية بالمنهج الصحيح ، لا مناص لها من اللجوء الى الدين في تقويم وتهذيب أخلاقها . والناس أفراد وجماعات يتوقف اطمئنانهم وخيرهم على اتباع الهدى والرشاد وحسن الصلة بالله رب العالمين ، ففي ذلك دفع للبلاء في حالة الأزمات ، كما أنه فيه دفع لبلاء طغيان الجاه والقوة في حال اليسر .

والفرد المسلم جيد الاسلام ، هو من تبقى علاقته بربه وقت الفرج والميسرة ووقت النعمة والقوة ، ووقت الجاه والسلطان ، وفي حال العلم والمعرفة ، بنفس مستوى علاقته بربه وقت العسر والشدة ، والضعف والمحنة ، والذلة والحاجة .

وعجيب شأن الفرد ، في حال الشدة يود أن لو يتمكن من تطبيق رسالة الله ، ويقيم علاقات انسانية على أعلى مستوى ، فيواسى الجار ، ويرعى القريب ، ويطعم المسكين ، ويرشد الجاهل ، ويشد أزر الضعيف . حتى اذا كان في ميسرة وسعة ، تراه ينكر ذلك ، ويرفض رسالة الله في خلقه ، فالفقير في نظره مبتذل ، والضعيف عنده مهان ، والجاهل في تقديره محقر ، والمجتمع بما فيه لا يعنيه في شيء الا بقدر ما ينخر في عظام الفقراء منه ، ويزيدهم ضعفا على ضعف ، كما لا يعنيه من أمر المجتمع ، سوى ترك الجاهل يتخبط في جهله ، حتى يظل وحده متميزا بقوته ، منعما في جاهه وسلطانه .

وهذا هو شأن الانسان (أى انسان) لو ترك وشأنه — دون توجيه من خالقه ودون أن يروض نفسه على العمل بتوجيهات القرآن الكريم — فسوف يتحول أمر الناس الى فريقيين :

(١) فريق له القوة في صورة من صورها ، فهو لا يقيم وزنا لحرمة ، ولا يضع أهمية لبشر .

(ب) وغريق ضعيف مستضعف ، ذليل مستذل ، لا يؤمل كثيرا في صاحب قوة أو جاه ، ولا يتوقع عطا من صاحب مال يستدره منه بضعفه وحاجته .

والنتيجة أن مجتمعا بهذه الفرقة ، لا يشكل مقومات الجماعة المتناسكة . كما لا يتوفر فيه الشعور بالانسانية بين فرد وآخر ، بل العكس هو الصحيح ، خصومة ونفرة متبادلة بين الطرفين ، وحقد وحسد من الضعيف ، وانفراد بالقيمة البشرية داخل أصحاب الجاه والثراء ، دون ما قيمة تذكر لهؤلاء الضعفاء .

والقرآن الكريم يصور حال النفس الانسانية والطبيعة البشرية ، بما يثبت هذا ويبرهن على صدقه وصحته . قال تعالى : « وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار » (٦٩) .

ويقول سبحانه وتعالى : « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (٧٠) .

ويقول سبحانه وتعالى : « وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون . واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون » (٧١) .

ويقول سبحانه : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الضر فذو دعاء عريض » (٧٢) .

ومع أن هذه الآيات جميعها مكية ، ونزلت في أولى مراحل الدعوة الى التوحيد والتوجيه الى الخالق الواحد بالعبادة ، ومع أنها كذلك تشير الى طبيعة الانسان قبل أن تتأثر بالتوجيه الالهي ، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومع أنها تضع الطبيعة الانسانية بين عسر ويسر ، صحة ومرض ، ضعف وشيخوخة ، علم وجهل ، شر وخير ، ومع أنها

(٧٠) يونس : ١٢

(٧٢) فصلت : ٥١

(٦٩) الزمر : ٨

(٧١) الروم : ٣٣ - ٣٦

تصف الإنسان باللجوء الى الله حين العسرة ، ونسيانته وقت اليسر والرخاء (٧٣) .

أقول : ومع كل ذلك . فأظننا لا نجنب الصواب اذا قلنا . ان حال المسلمين اليوم ، وفي كثرة كثيرة منهم ، هو هو بتلك الطبيعه الانسانية التي هي جبله فيه — الا من عصم ربي — نكران لنعمة الله . ونسيان لفصله ، وهجر للفرائض ، وطمس لحقوق الله ، وبالتالي حقوق العباد . وتقطع لأوصال العلاقات الانسانية ، وهذه هي جاهلية القرن العشرين . وأظن أن هذه الآيات تنسحب على كثير مما نراه من حال المسلمين في عالم اليوم ، والسؤال هو : اذا كان الحال والشأن كذلك فكيف الخلاص ؟ الخلاص يكمن في حسن الصلة بالله ، والتطبيق لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن فيها هداية لعقل الانسان . كما أن فيها اعزاز للحق أينما وجد الحق ، وأزهاق للباطل حيثما وجد الباطل .

ودعوة الحق هي دعوة الصفاء للنفوس ، وإزالة ما بها من أحقاد وضغائن ، لتحل محلها روابط تجمع الكلمة وتشفي الصدور . قال تعالى : « وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ الْخُسَارَا » (٧٤) .

يقول الأيما البيضاوي في تفسير الآية : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ما هو في تقويم دينهم ، واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمريض » (٧٥) . أما دعوة الباطل فمملوءة بالحق والفرقة ، وتمزيق الروابط ، لأن أساس الباطل ، الالحاد ، والكفر بالله ، والمحدد لا يتهيب سبل الاجرام ، بل يرتكب المنكر ويشيع الفاحشة » (٧٦) .

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (٧٧) والآية فيها أمر بالاباحة

(٧٣) محمد البهي . الاسلام في حياة المسلم . مكتبة وهبة . ط ٥ ، ١٩٧٧ ، ص ١٥١ — ١٥٦ .

(٧٤) الاسراء : ٨٢ .

(٧٥) الامام البيضاوي . انوار التنزيل واسرار التأويل المسمى بتفسير البيضاوي . مرجع سابق ، ص ٣٨٢ .

(٧٦) محمد البهي . الاسلام في حياة المسلم . مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

(٧٧) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ .

والحل لما في الأرض ، فيما عدا محظورات نص عليها القرآن نصا .
وهذه الاباحة تثبت تجاوب هذه العقيدة مع نظرة الانسان وفطرته
الكون جميعا . من هنا خلق الله ما في الأرض للانسان ، جعله له حلالا ،
لا يفيده الا امر خاص بالحظر ، والا تجاوز دائرة الاعتدال والقصد ،
كل ذلك شريطة أن يتلقى الناس ذلك من الجهة التي ترزقهم هذا
الرزق . وهو الله رب العالمين ، ولا يستمعوا لدعاء الشيطان ، لأنه
لا يوحى بخير فهو عدو للناس ، لا يأمرهم الا بالسوء والفحشاء (٧٨) .
كما لا يأمرهم الا بما ينكد عليهم حياتهم ، ويكدر عليهم عيشتهم ،
والا بما يقطع أوصالهم ، ويزيل صلة القرابة ، والرحمة والعلاقات
الانسانية من بينهم .

قال سبحانه وتعالى : « ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون
النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم
بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم
من ناصرين » (٧٩) . وليس المقصود في الآية من يعلن كلمة الكفر .
« انما يدخل في مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية ، وقصر
العبودية عليها . وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التي تصرف حياة
العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين . فمن جعل لغير الله
شيئا من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته ولو قالها ألف مرة
باللسان » (٨٠) .

ولا مندوحة من القول أن علاقة الفرد بالله رب العالمين ، كانت
وما زالت وستظل محور الارتكاز في تكوين شخصية الفرد ، وتقبل
الجماعة له ، فكلما صلحت علاقته بربه ، كلما زاد اتزانه ، وصلحت
علاقته بالأفراد الذين يعيش بينهم .

وحتى يحسن الفرد المسلم علاقته بربه ، فلا مناص من أدائه
العبادات التي خلق من أجلها ، فأداؤها فرض عليه ، لأن فيها الخير
لنفسه ولبن حوله . قال سبحانه وتعالى : « وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله
هو الرزاق ذو القوة المتين » (٨١) يقول الإمام البيضاوي في تفسيره :

(٧٨) سيد قطب . في ظلال القرآن . مرجع سابق ، ص ١٥٥

(٧٩) آل عمران : ٢١

(٨٠) سيد قطب . في ظلال القرآن . مرجع سابق ، ص ٣٨٢

(٨١) الذاريات : ٥٦ — ٥٨

الآية : « (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) : لما خلقهم على صورته متوجهة الى العبادة مغلبة لها جعل خلقهم مغيا بها مبالغة في ذلك ولو حمل على ظاهره * مع أن الدليل يمنعنا في ظاهر قوله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس » (٨٢) وقيل معناه الا لنأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عبادا الى (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) أى ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقى فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به * والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم فانهم انما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم ويحتمل أن يقدر بـ « قل » فيكون معنى قوله قل لا أسألكم عليه أجرا ان الله هو الرزاق الذى يرزق كل ما يفتقر الى الرزق ، وغيه ايماء باستغنائه عنه » (٨٣) *

* * *

٢ - دور الصلاة في بناء العلاقات الانسانية : لما كانت تربية المسلم على الفضيلة ، والأخلاق الحميدة ، هدفا من أهداف التربية الاسلامية ، ولما كانت الماديات ومظاهر الترف ، كثيرا ما تنسى الانسان الفضيلة والقيم الأخلاقية ، فيتأرجح بين سلوك الخير والشر ، ويميل الى أقرب الطرفين توافقا مع شعوره ، ينغمس فيه حتى أذنيه ، لما كان ذلك كذلك ، جاءت العبادات كضوابط ووسائط ، تعيد صلة المرء بالله رب العالمين ، وتحميه من الزيغ والتهوان ، وترده الى حظيرة الايمان ، في ظل الرجاء لرحمة الله والخوف من عقابه *
والعبادة في الاسلام تخرج من نطاق الرهينة تماما ، فلا رهبانية في الاسلام ، بل توسط واتزان وتناسق للطبيعة الانسانية * والعمل صنو العبادة قال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (٨٤) *

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » (٨٥) *

« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون * فاذا قضيت

(٨٢) الاعراف : ١٧٩

(٨٣) الامام البيضاوى . انوار التنزيل واسرار التأويل . مرجع سابق ، ص ٦٩٣

(٨٤) الكهف : ٣٠

(٨٥) الكهف : ١٠٧

الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلمكم تفلحون «(٨٦) فالترابط بين العبادة والعمل من أجل الرزق ، ترابط ايجابي ، على أن العبادة يجب أن تعين على العمل ، لا أن تحول دونه . كما أن العمل يجب أن يساعد على أداء العبادة ، لا أن يحول دونها . والانسان بلا عمل هو في نظر الاسلام : انسان عار عن أداء العبادة . لأن الله سبحانه لا يرضى عن الانسان السلبي الذي لا يعمل من أجل رزقه . كما لا يرضى عن الانسان الذي يؤدي العبادة لله تعالى فقط .

والفرد المسلم هو الذي يعمل ويؤدي العبادة لله ، ويتجنب ما يعكر صفو علاقته مع الآخرين ، فلا يفتات من حقوقهم ، ولا يقصر فيما يجب عليه نحوهم .

كما أن الفرد المسلم هو من لا يتوكل ويقعد عن العمل ، ولا يترهب فينسلخ من طبيعته الانسانية ومتطلباتها من زواج وتنازل ومخاطره في سبيلهما ومسئولية ومشاركة من أجلهما .

ومن هنا كانت حياة الانسان على هذه الأرض حياة تجربة بين الايجابية والسلبية ، ومباشرة العمل هي التي تكشف الايجابية والسلبية ، فلا تعرف هاتين الصفتين الا بمباشرة العمل والارتباط بالآخرين ، فضلا عن الارتباط بالأسرة ومعاشرة الزوجة وانجاب الأبناء ، فالرهبنة في الاسلام أمر غير طبيعي ، بل هي اتجاه سلبي في حياة الفرد لم يأذن به الله . وان وجدت فهي ابتداء من الانسان وليست ضمن الطبيعة الانسانية .

والقرآن الكريم ، وضع الرسل في مستوى طبائع البشر ، ليسوا فوقهم ، بل لهم نفس الطبيعة الانسانية من الأكل والشرب والزواج والنسل «(٨٧) .

قال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » «(٨٨) .

وقال سبحانه : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » «(٨٩) على أن العبادة في مجملها تستهدف

(٨٦) الجمعة : ١٠ ، ٩

(٨٧) محمد البهي . منهج القرآن في تطوير المجتمع . مكتبة وهبة ،

(٨٨) الرعد : ٣٨

القاهرة . ١٩٧٩ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٨٩) الفرقان : ٢٠

مساعدة المؤمن في أن يرقى الى المستوى الفاضل في الانسانية ، دون الحيلولة في أن يباشر سعيه وعمله من أجل الرزق .

وإذا كانت الصلاة تأتي على رأس العبادات التي ينبغي أن يمارسها المسلم ، فإن أدائها في جماعة أفضل من أدائها فرادى بخمس وعشرين درجة ، لما في ذلك من تلاحم المسلمين في صفوف مترابطة ، متساوية ، لا اعوجاج فيها ، ولا خلخلة بينها . فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في السوق خمسا وعشرين درجة ، وذلك بأن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، وأتى المسجد لا يريد الا الصلاة ، ولا ينهزه الا الصلاة ، لم يخط خطوة الا رفع له بها درجة ، وحط بها عنه خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه ، يقولون : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه ، ما لم يؤذ فيه ، أو يحدث فيه » (٩٠) .

ولا شك أن هذا التلاحم الحسى — الشأن فيه — لا بد أن يتحول الى تلاحم قيمى ومعنوى ، يظهر أثره في العلاقات بين المسلمين حتى تذوب من بينهم الفرقة والشقاق والتعالى والتباهى ، ليحل محلها الوفاق والتواضع والتسامح والتوادد والمحبة . قال تعالى : « اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » (٩١) .

يقول الامام البيضاوى في تفسير الآية : « اتل ما أوحى اليك من الكتاب تقربا الى الله بقراءته وتحفظا لألفاظه واستكشافا لمعانيه فان القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه . وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بأن تكون سببا للإقضاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها من حيث انها تذكر الله وتورث للنفس خشية منه . روى أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات ولا يدع شيئا من الفواحش الا ركبه فوصف له فقال : « ان صلاته ستنتهاه » فلم يلبث الا أن تاب .

(٩٠) الحافظ المنذرى . مختصر سنن أبى داود . ج ١ . تحقيق محمد حامد الفتى . مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م ، ص ٢٩٤
(٩١) العنكبوت : ٢٥

ولذكر الله أكبر ولا الصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به-
للتلليل بأن اشتمالها على ذكره هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات-
ناهية عن السيئات ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته
والله يعلم ما تصنعون ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن.
المجازاة» (٩٣) *

ولو لم يكن للصلاة من مغزى وهدف سوى أنها تحيي ضمير
الإنسان ، فتنهه عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي تؤدي إلى اعتداء
على الحرمات ، وهتك للأعراض وقطع للأوصال ، وفسخ للقيم ، أقول
لو لم يكن للصلاة سوى وضع الفرد في تنسيق واتزان مع طبيعته
الإنسانية وقيمه الأخلاقية لكفاها ، ناهيك عن طاعة الله وعبادته والامتثال
لأوامره والرقى بوجدانه وعاطفته ، حتى يتحول إلى إنسان متعاون مع
أخوانه المحتاجين ، يأخذ بيدهم ويمد لهم يد المساعدة والعون ، فيتماسك
المجتمع الإنساني في ظل العلاقات الإنسانية التي تقوم على الأخوة
والمودة والروابط السليمة وتبادل المصلحة ، في ظل السماحة والمحبة
والعدل والمساواة *

ولا نشك للحظة أن بناء الدولة الإسلامية في مهدها الأول ، يرجع
الفضل فيه إلى وحدة المسلمين وتماسكهم ، ففي المسجد يتلاحمون وفيه
يقفون صفوفا متراسة ، وبداخله يتبادلون العون والمساعدة ، وفيه تجمع
الزكاة والصدقات ، وفيه يستنصر المسلمون للقتال ، ويجمعون المال
للإعداد للحرب والدفاع عن الإسلام ، ناهيك عن زيارة المريض الذي
غاب عن الصلاة ، ومساندة المحتاج والتفريح عن المكروب *

وإذا كانت الجماعة واجبة في أوقات الصلاة كلها ، من أجل الالتحام
والتماسك الاجتماعي فإنها أوجب في صلاة الجمعة وصلاة العيدين
قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة
فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »
فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا
الله كثيرا لعلكم تفلحون» (٩٣) *

فصلاة الجمعة لها طابع خاص في أن تؤدي في جماعة ، والحرص
على أدائها في جماعة ، يدعو إلى السعي إليها حين يؤذن المؤذن لها ،

(٩٢) الإمام البيضاوي . أنوار التنزيل وأسرار التأويل . مرجع

(٩٣) الجمعة : ٩ ، ١٠

سابق ، ص ٥٣٠

وترك العمل ففترة أدائها في جماعة ، الأمر الذي يزيد من الروابط وفيه الخير للمسلمين في أمر الدنيا والدين .
 ولا يلزم من أداء الجمعة في جماعة . التفرغ لها أكثر من وقت أدائها ، فإذا انتهت عاد المسلم الى الحركة والسعى من أجل الرزق .
 « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله »
 « وبذلك يكون هناك تكافؤ في المنزلة عند الله ، بين : أداء العبادة .. ومباشرة العمل في سبيل العيش ، ويستوى نوع العمل في سبيل العيش أن يكون تجارة .. أو زراعة .. أو حرفة ما .. أو كشفا لموارد جديدة من فضل الله في الأرض التي يعيش عليها الانسان » « واذكروا الله كثيرا لعلمكم تغفلون » « ولكن لا تنسيكم عودتكم الى حياة العمل وحركته ، ذكر الله بل يجب أن تكونوا على ذكر منه كذلك في مباشرة عملكم ، إذا أردتم النجاح فيه . فذكر الله سيجعل وعيكم واضحا لما يحل ولما يحرم : من ضروب الحصول على المال ، واقتناء الملك . وعندئذ تحرصون أن يكون طريقكم في الحصول على الرزق هو الطريق الذي لا يؤدي غيركم أن لم يعنه على منفعة له » (٩٤) .

* * *

٣ - دور الزكاة في بناء العلاقات الانسانية : ألمحنا أن الصلاة لها دور في بناء العلاقات الانسانية على مستوى الجماعة التي ينتمي اليها الفرد ، بالإضافة الى أنها طاعة لله رب العالمين ، فيها بناء للروح والوجدان والضمير الأخلاقي . وتأتي الزكاة قرينة الصلاة في كثير من آيات القرآن الكريم . قال تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » (٩٥) وصدر الآية كناية عن مداومة الصلاة ، كما أن عجزها يدل على أن الانفاق من فضل الله ونعمته .

وهكذا يكون الانفاق بوجه عام مرحلة من المراحل التي سامنت تكوين المجتمع الاسلامي ، قبل تعيين فريضة الزكاة ، ولقد كان طلب الانفاق في مبدأ الدعوة من أجل الخير للانسانية كما طلب في صورة غير مباشرة ، وهو أن الذي لا ينفق على صاحب الحاجة في الأمة هو من

(٩٤) محمد البهي . منهج القرآن في تطوير المجتمع . مرجع سابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .
 (٩٥) السجدة : ١٦

الماديين الوثنيين غير المؤمنين ، لأن المادى هو الفرد الأثنائى الذى لا يتأثر بالرابطه الاجتماعية والانسانية فى تعامله • بينما يكون المؤمن هو الذى يرتفع فى علاقاته بغيره عن الأسباب والدواعى المادية • قال تعالى : « رأيت الذى يكذب بالدين • فذلك الذى يدع اليتيم • ولا يحض على طعام المسكين » (٩٦) •

والتكذيب بالدين هو نكران الجزاء الأخرى ، وانكار البعث والجزاء والمنكر لذلك هو الوثنى المادى ، فالتكذيب بالدين تعبير عن انكار الآخرة • والذى يدع اليتيم ، هو من يحرمه من حق فى تسليم ماله ، وفى استثماره استثمارا طليبا وهو تحت حوزته « ولا يحض على طعام المسكين » أى أن من يكذب بالدين هو كذلك من يترأخى ويهمل تلبية حاجة ذى الحاجة •

من هنا تكون صفة المؤمن على الضد من صفة المادى ؟ لأن صفة المؤمن تقوم على النجدة والتعاون مع الآخرين فى الأمة • والتتديد بالمادى فى الآيه ، فيه احياء غير مباشر بطلب الانفاق من المؤمن فى سبيل المصلحة العامة (٩٧) •

وجريا على منهج الاسلام فى أسلوب التدرج ، وبعد أن أصبح الانفاق من الصفات اللازمة للمؤمنين ، أو المكونة لمفهوم اتصافهم بالايمان ، تأتى سورة البقرة لتقرر الحد الأدنى للانفاق وتسميه بالزكاة ، كما تضع الحد الأعلى له وتسميه « بالعفو » أى الزائد عن حاجة صاحب المال فى الانفاق على نفسه ومن يجب عليه أن يعولهم قال تعالى : « واقموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، ان الله بما تعملون بصير » (٩٨) فى الآيه طلب للزكاة تناولت السنة تفصيل وجوبه ، وأسلوب اخراجه ، فى الأموال وفى الزراعة والتجارة والمعادن والثروة الحيوانية والمدخرات ، على أن الانفاق بالقدر الزائد عن الحد الأدنى الذى تقرر بالزكاة ما زال مستمرا ، وما زال بابه مفتوحا أمام المسلم ، يدل عليه عجز الآيه : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » •

وعموما فان الاسلام أنزل الزكاة منزلة رفيعة ، بل جعلها من صفات المتقين الصادقين ، كما قرننها باقام الصلاة ، والصبر فى الشدائد •

(٩٦) الماعون : ١ - ٣

(٩٨) البقرة : ١١٠

(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣

والوفاء بالعهود ، وأيضا جعلها أمانة الصدق في الايمان والبعد عن مسالك الماديين والوثنيين^(٩٩) قال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »^(١٠٠) .

وقوله تعالى : « وآتى المال على حبه » أى على حب المال كما قال عليه السلام حين سئل أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تؤتية وانت صحيح صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر • ذوى القربى اليتامى » يريد المحاويج منهم ولم يقيد لعدم الالتباس • وقدم ذوى القربى لأن إيتاءهم أفضل كما قال صلى الله عليه وسلم : « صدقتك على المسكين صدقة ، وعلى ذوى رحمك اثنتان : صدقة وصلة » والمساكين جمع مسكين وهو الذى أسكنه الخلة • وابن السبيل هو المسافر • والسائلين الذين ألجأتهم الحاجة الى السؤال • قال عليه السلام : « للسائل حق وإن جاء على غرسه » • وفي الرقاب : وفي تخليصها بمعاونة المكاتبين أو فك الأسارى أو ابتياع الرقاب لعنتها « وأقام الصلاة » : المفروضة « وآتى الزكاة » : يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله : « وآتى المال » : الزكاة المفروضة ، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها ومن الثانى أدائها والحث عليها ، ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقا كانت في المال سوى الزكاة • يقول الامام البيضاوى : « والآية كما ترى جامعة للكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا فانها بكثرتها أو تشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس • وقد أئسیر الى الأول بقوله : « من آمن بالله » — الى « والنبيين » • والى الثانى بقوله : « وآتى المال » الى « وفي الرقاب » • والى الثالث بقوله : « وأقام الصلاة » الى آخرها . ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه واعتقاده وبالتقوى اعتبارا بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق واليه أشار بقوله عليه السلام : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان »^(١٠١) .

(٩٩) المرجع السابق : ص ١٥ ، ١٦ .
(١٠٠) البقرة : ١٧٧ .

(١٠١) الامام البيضاوى • أنوار التنزيل وأسرار النساويل • مرجع

سابق ، ص ٣٦ .

ولعلنا ندرك حينئذ أن العلاقات الانسانية الصحيحة ، يقيّمها الاسلام بمناهج. العبادة ، بحيث تتزامن العلاقات الانسانية ويظهر أثرها مع أداء الفرد المسلم لتلك العبادة . والترابط بين مصالح البشر في الدنيا وأدائهم للعبادة أمر مقرر في هذا الدين لأنه دين « لا يغفل أبداً عن الواقع العملي في محيط الحياة » . ولا عن حقيقة النفس البشرية ، وما يعتورها من ارتفاع وهبوط ، وتطلع وانكماش ، وأشواق طائفة ، وضرورات مقيدة ، وطاقات محدودة ، على كل حال ، دون الكمال المطلق في جميع الأحوال .

وعلى قدر علمه العميق بأغوار النفس البشرية يشرع ويوجه ، ويصوغ أوامره ونواهيه ، ويضع حدوده وينفذها ، ثم يهدف للضمير البشرى أن يتسامى فوق التكاليف المفروضة ما استطاع . والحياة تصبح ممكنة وصالحة ، إذا نحن نفذنا التكاليف المفروضة في هذا الدين « (١٠٢) » .

وحين تنفذ تكاليف الدين ، فسوف نضمن التكافل الاجتماعي ، بحيث يصبح آحاد الشعب في كفالة الجماعة ، وأن يكون كل قادر أو ذى سلطان كفيلاً في مجتمعه يمد أخاه بالخير ، فتلتقى كل القوى الانسانية في المجتمع من أجل مصالح الفرد ودفع الضر عنه ، وأيضاً دفع الضرر عن البنين الاجتماعى وإقامته على أسس سليمة . قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (١٠٣) .

وبهذا التكافل يتحقق المجتمع الفاضل الذى يتناسق أفراداه في سلسلة واحدة ، قوامها التوحيد وأسلوبها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هذا وإذا كانت عملية اعداد الفرد في نظم التربية الحديثة ، تختلف من مجتمع الى آخر وفقاً لما يحدده كل مجتمع من نوعية ذلك الفرد ،

(١٠٢) سيد قطب . العدالة الاجتماعية في الاسلام . دار الشروق .

بروت ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٧٧

(١٠٣) محمد زافيت عثمان . الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية

في الاسلام ، ط ٢ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٢٨ .

وما يبتغيه ويتوقعه منه ، الأمر الذى ترتب عليه اختفاء منهج التربية العالمية ، لتحل محلها تربية اجتماعية لمجتمع معين بالذات . أقول : إذا كان ذلك كذلك ، فإن نظام الاسلام يصنع الاطار المتكامل للكائن الانسانى ، ويسعى فى تربيته وفقا للعناصر المكونة له ، سواء منها : العنصر الحيوى أو الشخصى أو الأسمى أو الاجتماعى أو الانسانى . من هنا كانت عالمية الاسلام — إذا أحسن تطبيقه — وأسلوبه فى بناء البشر بنمط واحد ، لا مجال فيه لمفلسف أو صاحب منهج وضعى ، لأن مقوماته مستمدة من السماء ، والقيم الأخلاقية تتطلب ازدهار هذا المجموع من العلاقات المتشابكة فى الانسان ، لأنها كل مترابط ، وهو قابل للتطور والتقدم ، ولا يمكن نغفل واحدا من هذه العلاقات دون أن نوجد التناسق بينها ودون أن نربى على التوازى جميع الجوانب الى مستوى معين ، أى أن النفس الانسانية يجب أن تمارس جميع القيم ومنها « ان لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه » (١٠٤) .

وهكذا تصبح فريضة الزكاة وسيلة لترسيخ وتدعيم وبناء المجتمع المتناسك ، شريطة أن يأتى أداء المسلم لهذه العبادة بنية صادقة ، تتسم بالحقائق والموضوعية والوضوح ، بعيدا عن الشكليات فى الأداء والمظهرية فى العمل ، ومتضمنة للقيم التى يمكن أن تسهم فى بناء الأفراد وبالتالي فى بناء المجتمع .

* * *

٤ — دور الصيام فى بناء العلاقات الانسانية : لم تخل أركان الاسلام جميعا من صلاة وزكاة وصيام وحج من هدف تربوى : ومغزى انسانى . يرتبط بالقيم والمبادئ التى تسير ركب الحياة ، ولا تخلو هذه عن أن تكون عبادة بدنية . مثل الصلاة والصيام ، أو مادية تتصل بالمال وهى الزكاة ، أو بدنية مادية كالحج . وتكليف المسلم بتلك العبادات لا يعنى المشقة فى مظهرها الجسمى والمادى ، والحيلولة دون ممارسة الانسان تمتعه بالحياة من مال أو بدن ، انما يهدف الاسلام بالتكليف البدنى أو المادى تصفية الروح

(١٠٤) محمد عبد الله دراز ، دستور الاخلاق فى القرآن . دراسة مقارنة للأخلاق النظرية فى القرآن ، مؤسسة الرسالة . بيروت ، ط ١ ١٩٧٣ ، ص ٨٩ ، ٩٠

وتهذيب النفس ، يهدف الى أن ينتهى المسلم عن الفحشاء والمنكر بأداء الصلاة ، ويهدف أيضا الى تقوية العلاقات الأخوية وتدعيم روح القربى والجوار بالزكاة ، ويهدف كذلك الى تجنب اللغو فى القول والباطل من العمل بالصيام ، وأخيرا يهدف الى تجديد العهد بالأخوة الصادقة بين المسلمين فى سبيل رسالة كريمة لأنفسهم وللإنسانية بأدائهم الحج الذى فيه اضافة لما تقدم تذكير للمؤمنين بأول بقعة نشأت فيها دعوة الاسلام . وبآخر مكان جاء فيه نصر الله والفتح (١٠٥) .

وإذا كانت الصلاة تقوم على تخلية الانسان نفسه من شواغل الدنيا حين يتوجه الى الله بقوله : « الله أكبر » وإذا كانت الزكاة هى أداء حق الفقراء والمساكين وغيرهما من أصناف المستحقين للزكاة . وإذا كان الحج يتسم بمشقة البدن فى السفر ، وبذل المال بالانفاق . إذا صح ما تقدم ، فإن الصيام ينفرد بكونه كفاحا وجهادا موجها من الذات ضد الذات ، وموجها من نفس الانسان ضد رغبات جسمه وبدنه . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي » .

وفى عدم تحديد جزاء الصائم فى هذا الحديث من قبل الله عز وجل ، بمثل ما ذكر فى صدر الحديث من مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، مما يؤكد على تفرد الصوم من بين سائر العبادات الأخرى . بتساميه عن التحديد والتقدير عند الله عز وجل ، وعبادة هذا شأنها ، وتلك منزلتها ، لا شك أنها الوحيدة التى يبرز فيها الصراع والكفاح من الانسان الى شىء يتعلق بذات الانسان ، لأن الصائم يكافح ويجاهد الهوى والشهوة ، لينتصر لایمانه بالله رب العالمين ، وليكبح جماح الالف والعادة التى تلازمه فى حياته اليومية ، فينتصر بإرادته ، ويحى ضميره . ويخضع رغبات بدنه وروحه ، فيصير صاحب الأمر عليها ، بدلا من أن يكون مستسلما ذليلا لها .

والمسلم يتنازع قوتان : دعوة الشهوة ، ودعوة الرحمن ، فبينما الأولى تستهويه ليلبى نداءها ، ويستجيب لمطالبها ، فإن الثانية فتأديه أن يكف عن تلبية رغبات النفس وشهوات الجسم ، ويطيع الله رب

العالمين ، فيدع طعامه وشهوته من أجل الله ، عندئذ يصبح خليقا باحتضان الله له مستحقا لمثوبته. وجزائه اللامحدود ، بعد أن أتى بهذا العمل الشاق ، وانتصر لنفسه من ذاته وسيطر عليها . وأيقظ فيها الضمير ، فيصبح انسانا مراقبا لأعماله ، متمسكا بقيمه ومبادئه . مجتنباً لليأس والاختناق عند المحن والكروب ، كاظما غيظه حين يكون كظم الغيظ حكما ، صابرا ومتحملا في سبيل تحصيل رزقه ، ضاربا بأخلاقه المثل الأعلى في محبة اخوانه ، لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده . انما هو مرتبط بمجتمع ومرتبب بآخرين يشاركونه الحياة والعمل والمنافسة فلا مذوخة له من استثمار درس الصيام . وما خرج به منه من تعلم للصبر ورقابة على النفس ، لا مذوخة من استثمار ذلك في السمو بعلاقاته الانسانية مع الآخرين ، لتصبح نفسه مؤهلة للقاء ما تفرضه الحياة عليها من حرمان ، وما تحدثه من أزمات ، كما تصبح نفس الغنى مقبلة على مساعدة المحروم ، والأخذ بيد المريض والعاجز ، بذلك يلتئم صدع المجتمع ، وتبدو فيه العلاقات الانسانية ، التي قوامها المشاركة في العبادة ، الأمر الذي يميز المسلمين عن غيرهم من الأمم والمجتمعات ، ليس في أدائهم للعبادة فقط ، وانما في كونهم أمة لا تتخلف عن نداء ربها وتطابق شرع الله فيما بينها .

والصيام بهذا المفهوم يعيد للأمة تماسكها ، وللأفراد ترابطهم ، فلا ينبغي أن يكون الصيام ، سببا لنفرة الأفراد بعضهم من بعض ، أو محركا للخلاف والشقاق ، أو داعيا لاهمال العمل أو التراخي فيه ، أو التستر خلفه دفعا للوم أو تبريرا لاهمال ، أو توكلا عن عمل ، فالصيام فيه وحدة القلوب والمشاعر ، ولا مكان فيه لتبرير مهمل ، أو اعتذار مقصر ، أو تمزيق لألفة ، بل عكس ذلك يكون ، تلاق وتضاف ، وتماسك وترابط تحت مظلة التوحيد وتلبية نداء الله رب العالمين» (١٠٦) .

والمجتمع المتمسك بأداء الصوم ، هو المجتمع الذي يمتلك أوامر الله ، ويلبى دعوته ونداءه ، هو المجتمع الذي يشيع فيه العدل والسلام والأخوة من التعاون فيقتسامي إلى مستوى أرفع في الانسانية ، وهو المستوى المذهب الصافي الظاهر البعيد عن الحقد والايذاء ، والفرد الصائم هو الانسان الصلب الذي يؤثر انسانيته على ما فيه من حيوانية ،

(١٠٦) محمد البهي . الاسلام في حياة المسلم . مرجع سابق ،

فيدفع بصومه قوة اعتدائه على نفسه ، ويتيهياً لعدم الاستسلام للشر
أيا كان مصدره ، لأنه طالما امتثل لله ، فهو لا يرضخ لما عداه من
قوى الطغيان والفساد .

ولا غرابة في ذلك ، فالصائم الذي تفرس على أن يتحمل الجوع
والعطش طوال النهار ، والصائم الذي كف عن لغو الحديث مما يقع في
الحياة اليومية . والصائم الذي أمسك شهوته وكف جماحها ، الصائم
الذي أتى بذلك كله خليق أن يلتزم بالتوجيه السليم في الحياة ، ويتغلب
على متاسقها وصعابها ويسعى في سبيل تماسك أفرادها ، لأن هدف الصوم
هو اخراج الفرد المسلم من دائرة الطفولة الى دائرة الرشد
الانساني (١٠٧) .

والصوم بذلك وسيلة لا غنى عنها لبناء الفرد الذي يستطيع أن
يحمل رسالته في الحياة ويؤديها على وجهها الصحيح ، بما يسعد نفسه
لا بما يتشقيها ، وبما يحييها لا بما يميئتها .

وعموماً فإن الانسجام في الطابع العام للمجتمع ، ووحدانية الشعور
والروابط والاتجاه هي سمات المجتمع المسلم الصائم ، الذي استطاع
السيطرة على رغبات النفس ، وتحكم فيها بالقدر الذي يجد من متطلباتها
وأغراضها . ومجتمع هذا شأنه ليس في حاجة الى أن يراقب بعض
أفراده بعضه الآخر في أداء الواجب ، كما أنه ليس في حاجة الى
الشحناء والمخاضة والتقاضى ، لأنه يفعل بوحى من ضميره . ووحى
ضميره هو ما يخشى فيه الله سبحانه وتعالى وهو ما يطلبه ربنا سبحانه
من عباده « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله » (١٠٨) .

والمجتمع الذي يتمسك بأداء الصيام ويستخدم الإرادة والعزم
والتصميم كوسيلة له ، يستطيع بها أن يخلص في أداء الفريضة ، بعيداً
عن الانحراف أو الزيف ، رجاء التقوى (١٠٩) . قال تعالى : « يا أيها الذين
آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم
تتقون » (١١٠) .

(١٠٧) المرجع السابق ، ص ٢٧ — ٣١

(١٠٨) الأنعام : ١٥٣

(١٠٩) المرجع السابق ، ص ٣٢ — ٣٤

(١١٠) البقرة : ١٨٣

وقال سبحانه : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » (١١١) .

ولا نعدو الصواب حين نقول : ان مساعدة الضعفاء فى المجتمع ، هدف يقرره الاسلام ، ويسهم الصوم فيه بنصيب ، حيث يتعود الصائم الاحسان الى الفقراء والمحتاجين ، من أجل « سلامة المجتمع من التفكك والتفكك من الروابط التى جمعت بين أفرادہ بتصفية النفوس من الحقد وتركيتها وتطهيرها من غلواء الأنانية أو المادية : الزكاة عن طريق الاعطاء والمعاونة والصوم عن طريق تحفل الحرمان من المتع المادية ، ومن أجل تلازمهما فى تضامن المجتمع قيل : ان الصوم جاء التكليف به فى السنة الثانية من الهجرة وهى السنة التى جاء فيها التكليف بالانفاق الخير على وجه عام » (١١٢) .

وبهذا العرض يمكن القول ان عبادة الصوم ، فيها رحمة وبر وتكافل اجتماعى ، كما أن فيها علاقات انسانية بين الفرد والفرد ، والفرد والجماعة ، الجميع يشملهم العدل الانسانى ، الذى لا يتوفر فى أى نظام وضعى قديما كان أم حديثا . . . ذلكم هو الاسلام . . . بعباداته السامية .

* * *

٥ - دور الحج فى بناء العلاقات الانسانية : التربية بكل مقوماتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، تسعى دائما لخدمة الفرد والمجتمع ، وهى فى هذا تؤثر فى تسيير حركة المجتمع ، كما أنها تتأثر بما يدور داخل الحياة الاجتماعية من نظم وأيديولوجيات .

غير أننا فى المجتمع الاسلامى - الشأن فىنا - نضع مقدساتنا الدينية فى المقام الأول ، نتلمس فيها مصادر التربية الصحيحة ، ونجد فى مجادئها الإطار السليم لبناء منهج التربية المستقيم .
من هنا كان مشهد الحج درسا فى التربية ، تتجلى فيه مواقف وتظهر فيه خبرات ، يتعلم منها المسلم ، كثيرا من المبادئ والقيم والأنماط التربوية . وتأتى العلاقات الانسانية فى مقدمة المبادئ التربوية المستفادة

(١١١) البقرة : ١٨٥

(١١٢) محمد البهى . منهج القرآن فى تطوير المجتمع . مرجع سابق ، ص ٢٥

من هذا الموقف الذى جعله الاسلام ركنا أساسيا من أركان الاسلام لكل مقتدر ومستطيع .

ونحن فى هذا المقام ، سنقصر حديثنا عن العلاقات الانسانية فى الحج ، كثمرة تربوية ، ومبدأ من المبادئ التى تسهم فى ترسيخ دعائم المجتمع المتكامل ، فطالما أدرك كل فرد ما له من حقوق وما عليه من واجبات بعيدا عن الأنانية وحب الذات ، فقد استقر المجتمع ، وتثبتت أركانه فى ظل المبادئ الاسلامية السامية .

والحج فى مظهره جمع حاشد من المسلمين توافدوا من شتى بقاع الأرض ومن كل فج عميق ، يحدوهم الأمل والرجاء فى رضوان الله ومغفرته . وهم بلا شك شاءوا أم أبوا لأبد متبادلين الخير والمنافع فى شئون دينهم ودنياهم . ذلك لأن الانسان اجتماعى بطبعه يميل الى الناس ، يتعلم منهم ويعلمهم ، وفى تلك المحكات تتكون العلاقات وتربو ، ويظهر أثرها جليا فى سلوك الفرد ، فيتحول من الأنانية الى الأثرة ، من الفردية والذاتية ، الى الجماعة والاتحاد ، ومن الكبر والتعالى الى التواضع والتوادم ، كما يتحول من احتقار الضعفاء الى احترامهم ووضعهم حيث أراد الله لهم وسط هذا المجتمع الإنسانى .

وقبل أن نتعرض لذكر المواقف التى تتجلى فيها العلاقات الانسانية كثمرة تربوية ، من أداء فريضة الحج ، لابد أن نبدأ بكون الحج يربط المؤمن بربه ، ويعمق صلته بالله رب العالمين .

ولقد ارتبط الحج فى بدايته بترسيخ العقيدة عند المسلم ، وتدعيم علاقته بالله سبحانه وتعالى . لذلك نلمح أن الهدف من بناء بيت الله على هذه الأرض هو مقاومة الوثنية والمادية ، وأحسان الصلة بالله ، وحصر الألوهية فيه سبحانه ، فلا معبود سواه ، ولا هيمنة لغيره ، ولا تعظيم إلا لجلاله . قال تعالى : « **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا** » (١١٣) .

كما نرى أن ترسيخ العقيدة ، وأحسان العلاقة بالله جاء أيضا فى المرحلة الأخيرة لمناسك الحج . قال تعالى : « **ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** » (١١٤) .

وبهذا يهدف الحج من بدايته الى نهايته ، لبناء العقيدة الصحيحة

عند المسلم ، بحيث يتخلص من جميع أصناف الشرك . ويتوجه بكل طاقته الى ربه ، فيحسن علاقته به ، ويتوكل عليه . ويستمد من عنده المعون والنجاة في الدنيا والآخرة .

* * *

* مواقف وعلاقات إنسانية تربوية :

تطهير البيت والاعداد للحج : والتطهير يعنى : النظافة من الأوثان والأقذار ، حتى يطيب المكان لمن يطوف ويصلى فيه (١١٥) . « هؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله . ويتوجهون بالعبادة الى سواه » (١١٦) .

وإذا كان تطهير البيت نداء وجهه الله سبحانه وتعالى الى ابراهيم عليه السلام فإنه لتشريف وتكريم لمن يتعهد نظافة البيت الحرام ، فيجنبه الأقذار وكل ما يحيل بين المسلم وأداء الطواف والصلاة لله رب العالمين .

وهذا موقف تتجلى فيه المشاعر ، مشاعر المسلم بأنه بعمله هذا يسهم في إتاحة الفرصة لغيره من المسلمين لأداء فريضة الحج ، ويبدل ما في وسعه في سبيل ذلك الهدف ، فتتوطد الروابط الروحية ، وتسمو القيم الانسانية ، بالاضافة الى اجابة نداء الله الذى جاء موجهاً الى ابراهيم عليه السلام .

ثم يعقب تطهير البيت الأمر لابراهيم عليه السلام ، أن يدعو المؤمنين لحج بيت الله الحرام « وأذن في الناس بالحج ياتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (١١٧) . « أى ناد في الناس بالحج داعياً لهم لحج هذا البيت الذى أمرناك ببنائه فذكر أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر وقيل على الصفا ، وقيل على أبى قبيس ، وقال : يا أيها الناس .. ان ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه . فيقال ان الجبال قد تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من فى الأرحام

(١١٥) الامام البيضاوى . انوار التنزيل واسرار التأويل . مرجع

سابق ، ص ٤٤٣

(١١٦) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، ج ١٧ ، مرجع سابق ، ص ٢٤١٨

(١١٧) الحج : ٢٧

والأضالاب ، وأجابه كل سئء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله به ان يحج الى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك» (١١٨) .
وفي هذا المقام يتجلى موقف الرحلة للحج والعمرة ، وما يكتنفهما من مواقف تستدعى الاحتكاك بالآخرين ، وتبادل الخبرات معهم ، وابرار أفضل الصفات والخلال الحميدة في هذا الموقف حتى يستفيد المسلم من ذلك المشهد ، فيطبق المبادئ والقيم النظرية ، فتصبح حية في كيانه ، متجددة في نفسه .

ورحلة الحج في جوهرها استجابة لنداء الله عز وجل ، وهى بلا شك موقف ومشهد ، قلما نجد له نظيرا على وجه الأرض ، يلتحم فيه المسلم بأخيه ، بصرف النظر عن الجنس واللون والمنصب والجاه ... الخ .
كما تظهر نوازع النفس ... وهى بلا شك متعددة ومتنوعة ، غير أن كبح جماحها ، وحسن قيادتها ، مطلب أساسى فى هذه الرحلة على وجه الخصوص ، حتى يستفيد المسلم ويتخلص من داء التمييز والكبر والعجب . وينزل الى المستوى العام ، فيحيا حياته طيبة . كما يستثمر هذا الموقف ، في تحسين علاقاته بأخوانه المسلمين ، متحملا في سبيل ذلك جميع أنواع المشاق والمتاعب .

*** تبادل المنافع :** بالحج يتحقق التبادل المنفعى بين المسلمين ، ففيه جلب للمصالح ، ودفع للمضرات ، وبناء للعلاقات ، وتبادل للمنافع الاجتماعية والانسانية والتربوية ... والحج « موسم ومؤتمر » الحج موسم تجارة وموسم عبادة ، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف . ومؤتمر تنسيق وتعاون وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة ... فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام في كل عام . وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهى تستشعر قربها من الله في بيئته الحرام . وهى تترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وتترف الأطياف من قريب ومن بعيد ...» (١١٩) .

والحج فوق كل ذلك مؤتمر جامع للمسلمين ، يجدون فيه أصلهم

(١١٨) محمد على الصابونى . مختصر تفسير ابن كثير . المجلد الثانى ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٥٣٩ .
(١١٩) سبب تطلب . في ظلال القرآن ، ج ١٧ ، مرجع سابق ، ص ٢٤١٨ ، ٢٤١٩ .

العميق الضارب في أعماق التاريخ منذ ابراهيم الخليل عليه السلام ، كما يجدون محورهم الذي يشدهم جميعا اليه ، ورايتهم التي يفيئون جميعا اليها ، راية العقيدة والتوحيد التي تذب وتثوب وتتوارى في ظلها غوارق الجنس واللون والوطن . وفي هذا المؤتمر تتوحد قوتهم وتترابط جماعتهم ، تلك الجماعات التي تضم الملايين من كل فج وحذب ، لا تستطيع قوة في الأرض أن تقف أمامها لو أحسنت علاقاتها ، وبغاءت الى رايقتها الواحدة ، راية التوحيد .

والحج « مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع ، والمعارف والتجارب ، وتنظيم ذلك العالم الاسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام في ظل الله بالقرب من بيت الله . وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكرات الغائبة والحاضرة . في أنسب مكان وأنسب جو ، وأنسب زمان » (١٢٠) .

وبناء على ذلك ، فمن المؤكد أن تحقيق كل تلك الغايات ، لا ولن يتم دون تبادل للعلاقات الانسانية في صورتها النظيفة الصحيحة ، لأن الاسلام عني ببناء علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقته بالمجتمع ، بحيث ينتظم سلوك الجماعة ، فتستقيم لها الحياة ، بكل مقوماتها الصحيحة .

وهكذا تنعكس صورة الحج على العلاقات الانسانية فتتغير وتصح مسارها ، وكان عبثا أن يلجأ المسلم الى قوانين وضعية تخيمه ، ثم لا يجد الانسان الذي يقتنع بتلك القوانين وينفذها .

يبد أن ترسيخ دعائم المحبة والاخاء والمساواة في ظل الاسلام ، تضمن السلامة والأمن ، بل وتفوق كل القوانين الوضعية ، التي لا تحمي البشر الا خوفا من عقاب ، دون اقتناع دليخل ، وكان لا بد من اللجوء الى الدين ، ففيه تتدعم القيم . . . كالأمانة وحسن الجوار وحسن العلاقات الانسانية . . . وهكذا وجد الانسان أن تلك القيم في ظل الدين أقوى من القوانين في حماية الأفراد من الاعتداء ، وأصبح جزءا مهما من التربية . تلك القيم التي أصبحت بمثابة موجبات لسلوك الأفراد في تبادل منافعهم أولا ، ثم حماية لهم من الغير ثانيا عندما تسود المجتمع تلك القيم وتصبح مادة حية في كيان وتركيب كل انسان في ذلك المجتمع .

* تدعيم الروابط بين الأغنياء والفقراء : ويظهر ذلك جليا حين نلمح أن الآية الكريمة : « ... واذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » (١١١) تعني نحر الذبائح في أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده وتقدم ذكر الله في الآية على الذبح ، لأن الموسم موسم عبادة . ولكن أى الناس أحق بهذا المذبوح ؟ أنهم هم الفقراء : « ... فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ... » (١٢٣) والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للإباحة أو الاستحباب . أما الأمر باطعام البائس الفقير منها فهو أمر للوجوب . ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمه » (١٢٣) .

ومشاركة الفقراء هنا تعنى هدفا اجتماعيا يقوم على أساس : « تأكيد الاعتراف بالمساواة في الاعتبار البشري بين أفراد المجتمع الاسلامي جميعا ... وعلى أن في اطعام الفقراء مما لا يتيسر لهم الا في مناسبات : هو علاج لعقد نفوسهم على الاثرياء وتقريب لهم من هؤلاء ... » (١٢٤) .

وهكذا يستمر درس الحج في بناء الكيان الاجتماعى للمسلمين ، بحيث تتقارب بينهم الفوارق الطبقيّة ، وتختفى من بينهم النزعة العرقية ، كما يظهر حق الفقير في مال الغنى ، وينتظم الجميع في جو سليم من العلاقات الانسانية المتكاملة .

* الاقتلاع عن قول الزور : قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » حنفاء لله غير مشركين به » (١١٥) يقول الامام البيضاوى : « فاجتنبوا الرجس » الذى هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس وهو غاية المبالغة في النهى عن تعظيمها والتنفيز من عبادتها ، « واجتنبوا قول الزور » تعميم بعد تخصيص لأن عبادة الأوثان رأس الزور كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبعه ذلك زدا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والافتراء على الله بأنه حكم

(١٢٢) الحج : ٢٨

(١٢١) الحج : ٢٨

(١٢٣) سيد قطب . في ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

(١٢٤) محمد البهى . منهج القرآن في تطوير المجتمع . مرجع سابق ،

(١٢٥) الحج : ٣٠ ، ٣١

ص ٣٣

بدلك • وقيل شهادة الزور لما روى أنه عليه السلام قال : « عدلت شهادة الزور الاشرار بالله » — ثلاثا ، وتلا هذه الآية » (١٢٦) •
ولا شك أن قول الزور آفة تصيب الفرد يترتب عليها اهدار الحقوق وتفتك العلاقات • غير أن المسلم اذا أدرك أثناء أدائه للحج قيمة الاقلاع عن قول الزور والتمسك بالآداب والقيم ، فلا شك أنه سيصبح فردا صالحا في ذاته وفي الجماعة التي ينتمي اليها •
وفي الصحيحين عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الاسراك بالله وعقوق الوالدين — وكان متكئا فجلس — فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » (١٢٧) •

*** الوحدة والتآخي بين المسلمين :** مناسك الحج جميعها فيها دعوة للاخاء والتعاون ، ومشاركة المسلم لأخيه في الدعوة الى الله ودرء الاعتداء عن المسلمين ، وفي مناسك الحج أيضا ، نلمح الانصهار والتوحد حول العقيدة نلمح ذلك في الطواف بالكعبة ، وفي الوقوف بعرفة ، لأن ذلك يتم كله في وقت واحد ، يلهث المسلمون بالسنتهم بدعاء واحد ، وقول واحد ، ويمثلون لرب واحد « لبيك اللهم لبيك » انه بلا شك مظهر من مظاهر انصهار الفوارق الشخصية بين المسلمين ، والذي من شأنه أن يتحول الى شعور اخاء وعلاقات انسانية دائمة ومتجددة ومتواصلة •

ولا غرو فوحدة القلوب ، ووحدة المدعاء ووحدة المظهر ، والانصهار بين جميع الأجانب والقبائل والأماكن واللغات واللون والثقافات والمكانة الاجتماعية ، كل ذلك هو المصاحب لمناسك الحج جميعا (١٢٨) •
وبهذا يتضح أن الحج درس تربوي عملي ، يرتبط فيه المسلم بربه ودينه وأخوانه ، ويصبح لبنة قوية داخل المجتمع الاسلامي الذي ينتهي اليه •

* * *

(١٢٦) الامام البيضاوي . أنوار التنزيل وأسرار التأويل . مرجع سابق ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤
(١٢٧) محمد علي الصابوني . مختصر تفسير ابن كثير . المجلد الثامن ، مرجع سابق ، ص ٥٤٠
(١٢٨) محمد البهي . الاسلام في حياة المسلم . مرجع سابق ، ص ٤٨ ، ٤٩

(ب) العلاقات الانسانية في الأسرة :

أولا - في الحقوق الزوجية : بنيت العلاقات الانسانية داخل الأسرة . على أساس الرابطة القوية ، التي تربط الآباء بالأبناء ، والأبناء بالآباء . فهي رابطة الأسرة المتلاحقة بأجيالها بعد الرابطة في الله ووحدة الاتجاه . ولما كان الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الآباء والأبناء ، فقد أوصى كلاهما بالآخر ، وقرن تلك الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، لأن الله الذي تكفل بالرزق ، لا يليق بالعبد أن يضيق بالتبعات تجاه الموالدين في كبرهما أو الأولاد في ضعفهم ، فإله سبحانه متكفل برزق الجميع (١٣٩) ، قال تعالى : « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركونا به شيئا ، وبالموالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من أملق ، نحن نرزقكم وإياهم » (١٤٠) .

والأسرة كيانها الزوج والزوجة ، والأبناء والبنات ، والاسلام يهدف من وراء الزواج الى الاطمئنان والسكن والرحمة والمودة . قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (١٣١) .

ولم يكن النمو في العدد هو وحده المقصود كهدف ، وإنما يصاحب ذلك نمو في العلاقة بين أفرادها . وبهذا يتميز الانسان عن النبات والحيوان ، ويصبح هو الكائن المتسم بالحركة والنمو والمجتمع ، لأن المجتمع ليس كثرة عددية تنمو فقط ، وإنما هو علاقات بين الأفراد تقوى بالاطمئنان ، وتنسفو بالمودة والرحمة بين كل اثنين .

وإذا لم يتحقق هذا الهدف من الاطمئنان والسلام والمحبة والمودة والرحمة في العلاقات الزوجية ، فإن الانسان يبقى في نطاق النمو العددي فقط شأنه في ذلك شأن النبات والحيوان .

« ولكي يكون الزوجان : الذكر ، والأنثى ، منهما نواة المجتمع ، كان النكاح بينهما . ولكي يتحقق في علاقتهما هدف المجتمع من الاطمئنان والمودة والرحمة ، كانت الأسرة في حدود معينة ، تعين هذه الحدود على تحقيق الهدف المرجو بين الزوجين » (١٣٢) .

(١٢٩) سيد قطب . في ظلال القرآن ، ج ٨ ، مرجع سابق ، ص ١٢٣

(١٣٠) الانعام : ٥١ (١٣١) الروم : ٢١

(١٣٢) محمد البهي . منهج القرآن في تطوير المجتمع . مرجع سابق ،

ولم يترك الاسلام العلاقة بين الزوجين للصدفة والآهواء ، بل نظمها سواء فيما يتعلق بالمعاشرة الجنسية وموجباتها وما يتبع ازاءها .
قال تعالى: « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم » (١٣٣) كما نظم الاسلام ما كان سائدا في الجاهلية من امتنان للمرأة ، واهدار لكرامتها ، واستغلال لضعف بدنها ، فوضع الطلاق كإطار يلجأ اليه الزوجان وقت احتدام الخلاف ، واستحالة المعاشرة بالمعروف (١٣٤) . قال تعالى: « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » (١٣٥) .

واستمرارا في المحافظة على بقاء الأسرة وصيانتها ، أباح الاسلام المراجعة وبقاء العلاقة الزوجية ، طالما لم تنته فترة العدة ، وطالما بدا للزوجين أنهما سيقيمان حدود الله ويتبعان نهجه المسلم (١٣٦) .
قال تعالى: « فان طلقها فلا جناح عليهما أن يترابعا أن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » (١٣٧) .

ثانيا - العلاقات بين الآباء والأبناء : اذا نظرنا في العلاقات بين الآباء والأبناء ، نجد أن الاسلام أمر بالرفق داخل الأسرة والمعاملة الحسنة للأبناء وأصدقاء النصح لهم ، وتعليمهم وتوجيههم . قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري : « ان الله يحب الرفق في الأمر كله » وفيما رواه أحمد والبيهقي قال صلى الله عليه وسلم : « اذا أراد الله تعالى بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق ، وان الرفق لو كان خلقا لما رأى الناس خلقا أحسن منه ، وان العنف لو كان خلقا لما رأى الناس خلقا أقبح منه » . وروى أبو الشيخ في الثواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله والدا أعان ولده على بره » (١٣٨) .

وليس معنى الرفق بالولد تدليله وتحقيق جميع رغباته المتلاحقة ،

(١٣٣) البقرة : ٢٢٣

(١٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠

(١٣٥) البقرة : ٢٢٩

(١٣٦) المرجع السابق ، ص ٤٤

(١٣٧) البقرة : ٢٣٠

(١٣٨) عبد الله ناصح علوان . تربية الأولاد في الاسلام . ج ١ ،

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع . حلب ، بيروت ، ط ٣ ، (١٤٠١ هـ -

١٩٨١ م) ص ١٢٧

فان ذلك لا ينعين المولد على النجاح في حياته ، بك قد يؤدي في النهاية الى خيبة الأمل وذهاب الرجاء في اصلاح شأن الولد ، ذلك أن الولد المدلل في تربيته لم يعرف من الحياة الا ما حلاله ، ورغب في تحقيقه ، وسعى لدى والديه لانجازه فلم يتدرب على ارتكاب الصعب ومشقاته واجتياز الصعاب ومشاقها (١٣٩) .

ومن هنا كان على الآباء مسئولية كبيرة تجاه أبنائهم وبناتهم ، بحيث تتبج تلك المسئولية من صميم الدين الاسلامي ، وبحيث يؤدي الآباء حق أبنائهم عليهم ، حتى يقتنع الأبناء بواجباتهم نحو والديهم وأسرهم ، فتنتم علاقات متبادلة في ظل من هدى الاسلام وتعاليمه .

« جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو اليه عقوق ابنه . فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين . . أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى . قال : فما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب — أى القرآن — قال الولد : يا أمير المؤمنين ان أبى لم يفعل شيئاً من ذلك ، أما أمى غانها زنجية كانت لجوسى ، وقد سماني جعلا — أى خنفساء — ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً . فالتفت عمر الى الرجل وقال له : جئت الى تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسئ اليك » (١٤٠) .

واذا كانت هذه هي حقوق الأبناء على الآباء في اطار الاسلام ، فان للآباء على أبنائهم حقوقاً وردت كثيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة . قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا الاياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . وأخفص لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » (١٤١) .

يقول الامام المبيضاوى في تفسير تلك الآية : « وقضى ربك وأمر أمراً مقطوعاً به بأن لا تعبدوا الاياه لأن غاية التعظيم لا تحقق الا لمن له غاية العظمة ونهاية الانعام . . . وبالوالدين احساناً وبأن تحسنوا

(١٣٩) محمد البهى . الاسلام في حياة المسلم . مرجع سابق ، ص ٢٦

(١٤٠) عبد الله صالح علوان . تربية الأولاد في الاسلام . ج ١ ،

(١٤١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤

مرجع سابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨

أو وأحسنوا بالوالدين إحصانا لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش .
 أما يبلعن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما . ومعنى عندك أن يكونا في
 كتفه وكفاله . فلا تقل لهما أف ، فلا تتضجر مما يستقذر منهما
 ولا تستنقل من مؤنتهما وهو صوت يدل على تضجر والنهي عن
 ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياسا بطريق الأولى
 ولذلك منع رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة من قتل أبيه وهو في
 صف المشركين . نهى عما يؤذيها بعد الأمر بالاحسان بهما . ولا تنهرهما
 ولا تزرجهما عما لا يعجبك وقتل لهما بدل التأنيب والنهر قولا كريما
 جميلا لا شراسة فيه . واخفض لهما جناح الذل تذل لهما وتواضع
 معهما وأمره بخفضه مبالغة من الرحمة من فرط رحمتك عليهما
 لاغتناقدهما الى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما بالأمس . وقتل رب
 ارحمهما وادع الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية ولا تكتف برحمتك
 الفانية وان كانا كافرين ، لأن من الرحمة أن يهديهما كما ربياني صغيرا
 رحمة مثل رحمتها على وتربيتهما وارشادهما لي في صغري وفاء بوعدك
 للراحمين . روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان
 أبوى بلغا من الكبر أتى ألى منهما ما وليا منى في الصغر ، فهل قضيتهما
 حقهما ؟ قال : لا ، فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت
 تفعل ذلك وتريد موتهما » (١٤٢) .

ولا نظننا بحاجة الى تعليق بعد هذا العرض الكامل المتكامل ،
 الذي جاء خبر هاد للبشرية ، يحدد العلاقات بين الأزواج والزوجات ،
 والآباء والأبناء ، ويرسي معالم الطريق الصحيح ، لاستقرار الأسرة
 المسلمة في ظل التعاليم الاسلامية السنحة .

(ج) العلاقات الانسانية في المجتمع :

لقد كانت عناية الاسلام ، بتدعيم علاقة المسلمين بعضهم ببعض ،
 ذات أهمية خاصة ، أولاها الدين الاسلامي عناية معينة . وملاحظ
 العلاقات الانسانية في المجتمع متعددة ، ويصعب حصرها ، نظرا لأن
 علاقة الفرد بغيره متنوعة ؟ فقد تكون علاقة بالوالدين والأقارب وقد

(١٤٢) الامام البيهقاوى . انوار التنزيل واسرار التأويل . مرجع
 سابق ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

تكون للزوجة وقد تكون للجار القريب والبعيد ، إضافة الى أفراد المجتمع الآخرين الذين يحتك بهم ، مع زميل في عمل ، أو شريك في تجاره .
أو رئيس يرأسه . الخ . هذه الأنواع من العلاقات ، نظمها الاسلام
وبين أحكامها التي يمكن أن تتولد عن هذه العلاقات (١٤٢) .
وقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة الكثير من الملامح
حول تلك العلاقات منها :

١ — الأخوة : هذه الأخوة التي من أجلها ، قاسم المهاجرون
الأنصار ديارهم وأموالهم ، حتى كان البعض يؤثر غيره بالشيء وهو
في حاجة ماسة اليه . قال تعالى : « **انما المؤمنون أخوة** » (١٤٣)
وقال جل شأنه : « **واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين
قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** » (١٤٤) وإذا صح أن المسلمين تربطهم
الأخوة في الله ، فلا يليق بهم أن يتفرقوا ويختلفوا . قال تعالى :
« **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** » (١٤٥) .
٢ — احترام حق الحياة : فالاسلام يصون النفس البشرية .
ويحفظ عليها الحياة ويحرم قتلها بغير حق . قال تعالى : « **ومن يقتل
مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له
عذابا عظيما** » (١٤٦) ويقول صلى الله عليه وسلم : « **لن يزال المؤمن في
فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما** » وقد بلغ من حرص الاسلام
على احترام حق الحياة أن حرم الانتحار بشتى أشكاله وألوانه .
قال صلى الله عليه وسلم : « **من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار
جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحصى سما فقتل نفسه
فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل
نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالدا مخلدا
فيها أبدا** » .

٣ — احترام وصيانة الأعراض : لقد كفلت شريعة الاسلام
ما يحسون الأعراض عن الانتهاك بالزنا أو بالقذف . وقد وضعت بذلك
الحقوق والأحكام ، والعقوبات المتفاوتة وفقا لطبيعة كل فعل .

(١٤٣) محمد رافت عثمان . الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية
في الاسلام . مرجع سابق ، ص ١١٤ (١٤٤) الحجرات : ١٠ .
(١٤٥) آل عمران : ١٠٣ . (١٤٦) آل عمران : ١٠٥ .
(١٤٧) النساء : ٩٣ .

قال تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (١٤٨) .

٤ - المحافظة على المال : أمر الاسلام بحفظ أموال الضعفاء حتى يتسبوا ويكبروا . ولذلك أمر سبحانه بحفظ مال اليتيم قال تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » (١٤٩) كما جعل عقوبة السارق قطع اليد . قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم . الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » (١٥٠) كما أوجب الاسلام رد الأمانات الى أهلها . قال تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » (١٥١) .

٥ - مبدأ الشورى : من سمات الاسلام أن جعل علاقات المسلمين بعضهم ببعض تقوم على مبدأ الشورى . وقد مدح الله هذا المبدأ في سورة مسماة بهذا المبدأ العظيم . قال تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » (١٥٢) .

٦ - الصدق : حث الاسلام على التزام المسلم للصدق في كل أقواله ، فلا يجعل للكذب عليه سبيلا ، وذلك حتى تكون علاقات الناس مبنية على أساس صحيح من الصفاء والنقاء ، لا خداع فيها ولا زيف ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (١٥٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر ، والبر يهدي الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . وإياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » والصدق صفة المؤمن كما أن الكذب صفة المنافق .

(١٤٩) الاسراء : ٣٤

(١٥١) النساء : ٥٨

(١٥٣) التوبة : ١١٩

(١٤٨) النور : ٢

(١٥٠) المائدة : ٣٣ ، ٣٤

(١٥٢) الشورى : ٣٨

٧ - حسن الجوار : اهتم الاسلام ببناء علاقات الجوار. على أسلوب الحب والاخاء والمعاملة الحسنة . قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (١٥٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتدرون ما حق الجار ؟ ان استعان بك أعنته ، وان استغنى عنك نصرته ، وان استقرضك أقرضته ، وان اختلفك عدت عليه ، وان مرض عدته ، وان مات نبعت جنازته . وان أصابه خير هنأته ، وان أصابه مصيبة عزيتته ، ولا تستحيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ، ولا تؤذه ، واذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فان لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك يعيظ بها ولده . ولا تؤذه بقنار قدرك — يعنى رائحة اللحم التى تفوح من القدر — الا أن تعرف له منها » (١٥٥) .

واذا عدنا الى القرآن الكريم لمسجد فيه جماع الأمر كله فى سورة الأنعام . قال تعالى : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من اطلاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١٥٦) .

ومما لا شك فيه أن هذه الآيات جمعت قوام هذا الدين كله ، لأن فيها « قوام حياة الضمير بالتوجيه وقوام حياة الأسرة بأجيالها

(١٥٤) النساء : ٣٦

(١٥٥) لمزيد من التفصيلات يرجع الى ص ١١٤ - ١٢٨ ، محمد رافعت عثمان . الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام . مرجع سابق . (١٥٦) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣

المتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والمطاهرة فيما يجرى من معاملات .
وقوام حياة الانسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة
بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله ... » (١٥٧) .

ويذكر الامام البيضاوى في تفسير تلك الآيات : « قل تعالوا »
أمر من التعالى « أتل » اقرأ « ما حرم ربكم » بمعنى أتل أى شئ
حرمه ربكم « عليكم » ، « ألا تشركوا به » أى لا تشركوا به ...
على تقدير المثلو أن لا تشركوا والمحرم أن تشركوا « شيئاً » ،
« وبإلوالدين احسانا » أى أحسنوا بهما احسانا وضعه موضع النهى
عن الاساءة اليهما للمبالغة للدلالة على أن ترك الاساءة فى شأنهما غير
كاف بخلاف غيرهما « ولا تقتلوا أولادكم من اطلاق » من أجل فقر
ومن خشيية « نحن نرزقكم وإياهم » .. « ولا تقربوا الفواحش »
كبائر الذنوب أو الزنا « ما ظهر منها وما بطن » .. « ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله الا بالحق » .. « ذلكم » اشارة الى ما ذكر مفصلا
« وصاكم به » بحفظه « لعلمكم تعقلون » ترشدون فان كمال العقل
هو الرشـد ، « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن » أى بالفعللة
التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثمينه « حتى يبلغ أشده »
حتى يصير بالغاً .. « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » بالعدل والتنسوية
« لا تكلف نفسا الا وسعها » .. « وإذا قلتم » فى حكومة ونحوها
« فاعدلوا » فيه « ولو كان ذا قربى » ولو كان المقول له
أو عليه من ذوى قرابتكم « وبعهد الله أوفوا » يعنى ما عهد اليكم من
ملائمة العدل وتأدية أحكام الشرع « ذلكم وصاكم به لعلمكم تذكرون »
تتعطون به .. « وأن هذا صراطي مستقيما » الاشارة فيه الى ما ذكر
فى السورة فانها بأسرها فى اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة ..
« ولا تتبعوا السبل » الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى فان
مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات
« فتفرق بكم » فتفرقكم وتزيلكم « عن سبيله » الذى هو اتباع
الوحي .. « ذلكم » الاتباع « وصاكم به لعلمكم تتقون »
الضلال والتفرق عن الحق » (١٥٨) .

(١٥٧) سيد قطب . فى ظلام القرآن . المجلد الثالث الجزء ٨ ،

مرجع سابق ، ص ١٢٢٩

(١٥٨) الامام البيضاوى . انوار التنزيل واسرار التأويل . مرجع

سابق ، ص ١٩٦

ولا نعتقد أن نظاما ما يستطيع أن يكتشف كل هذه القواعد الأساسية الراسخة المرتبطة بحياة البشر * والمنظمة لعلاقاتهم ، لا نعتقد أن نظاما ما استطاع بمثل ما قدمه القرآن بهذا الأسلوب الدقيق ، والمنهج السليم * « هذه القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله » (١٥٩) *

ذلك العهد لله الذي شمل قوله الحق والعنذر ولو كان متعلقا بقريب . ذلك العهد لله الذي يتضمن توفية الكيل والميزان بالقسط ، كما تضمن عدم قرب مال اليتيم الا بالتي هي أحسن ، ومنه كذلك حرمة الاعتداء على النفس الا بالحق ، وقبل ذلك كله عهد بعدم الاشرار بالله رب العالمين * وذلك هو العهد الأكبر الذي أخذ الله على غفرة البشر بحكم خلقها متصلة بمبدعها شاعرة بوجوده في النواميس التي تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها (١٦٠) *

(د) صور العلاقات الانسانية :

وتتضمن هذه الصور العلاقات الانسانية بشتى جوانبها . علاقة الفرد بخالقه . علاقة الفرد بمجريات أحداث الحياة ، علاقة الفرد بأفراد المجتمع . كما تتضمن الاتزان في القول والعدل بين الناس وستحدث عن كل من هذه العلاقات فيما يلي :

أولا — علاقة الفرد بخالقه : وإذا تمت هذه العلاقة في اتزان ، وأدرك الفرد أن الله سبحانه هو وحده المتوكل أمر العباد وعليه المعتمد ، إذا تم هذا فقد تحقق للفرد الاطمئنان والاستقرار في الحياة قال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » (١٦١) *

ثانيا — علاقة الفرد بمجريات أحداث الحياة : كون الفرد ايجابيا مع أحداث الحياة اليومية ، يستجيب لندائها ، فلا استغلال ولا نفعية ، ولا انانية ولا فردية ، وانما تعاون وتبادل في المنفعة وإيثار * وكون الفرد كذلك فسوف يضمن لنفسه الاطمئنان وراحة البال في حياته *

(١٥٩) سيد قطب . في ظلال القرآن . المجلد الثالث ، ج ٨ ، مرجع سابق . ص ١٢٣٤

(١٦٠) المرجع السابق ، ص ١٢٣٣

(١٦١) الرعد : ٢٨

والعكس كذلك صحيح ، فقد استنكر الاسلام النزعة الفردية وخصوصا اذا تعارضت مع مصلحة الجماعة وهدفت فقط الى تحقيق مصلحة شخصية ، استنكر الاسلام هذا الأسلوب • قال تعالى : « وان منكم من ليبطئن فان اصابكم مصيبة قال قد انعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا • ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » (١٦٢) •

ثالثا - علاقة الفرد بأفراد المجتمع : سلوك الفرد ونوعيته هي المحور الذي تركز عليه شخصية الفرد وتقبل الجماعة له • وكلما تهذب سلوك الفرد ، ولم يترتب عليه ايذاء لأحد كلما كان متقبلا من الجماعة متواكبا مع اتجاهاتها • قال تعالى : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرجا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور • واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » (١٦٣) •
وقال جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا » (١٦٤) •
وقال تعالى : « فان آمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أوثمن أمانته » (١٦٥) •

وقال تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » (١٦٦) •
وقال تعالى : « ولن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » (١٦٧) •
رابعا - الاتزان في القول والعدل بين الناس : رتب الاسلام على هذه الركيزة تفادى الخصومة ، فأوجب الاتزان في القول والعدل في المنطق ، فيما يترتب عليه قضاء حق لفرد أو لجماعة ، مهما كانت الدوافع التي تحاول أن تتحرف بالانسان عن العدل والاتزان • قال تعالى : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (١٦٨) •
وقوله سبحانه : « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » (١٦٩) •

(١٦٣) لقمان : ١٨ ، ١٩

(١٦٥) البقرة : ٢٨٣

(١٦٧) الشورى : ٤٣

(١٦٩) الاسراء : ٥٣

(١٦٢) النساء : ٧٢ ، ٧٣

(١٦٤) المجادلة : ١١

(١٦٦) البقرة : ٢٣٧

(١٦٨) الانعام : ١٥٢

من هذا المنطلق يحدد الفرد بتصرفه الشخصى مقومات صالحة لذاته وحسب الجماعه التى يعيش فيها ، ودينه الاسلامى الذى هو فرد منه * ولا شك أن تلك الركائز الأربع كل ما يتصور فى دائرة الفرد من علاقات (١٧٠) *

وأخيرا فالفرد المؤمن المسلم هو ذلك الانسان الذى يبنى أن يكون انسانا مهذبا فى قوله مطمئن النفس والبال فى حياته ، ايجابيا فى الحياة بعمله ، ولكنه لا يقصر ايجابيته تلك على منفعتة وحده *

* * *

* تعقيب :

هذا البحث اشتمل على جوانب متعددة ، وجاء موجزا فى كثير من الجوانب التى تطرق اليها * غير أننا لا نجانب الصواب حين نقول : انه وضع اللبنة الأولى فى كيان البنية الاجتماعية ، اذ كيف يتصور مجتمع بدون علاقات ، أو بدون تبادل منفعة بين أفرادہ *

ولعلنا فى هذا البحث ، قمنا بعرض واجهة العلاقات الانسانية ، فى المدرسة ، كمؤسسة تربوية أقامها المجتمع ، وأنفق عليها ، وعهد اليها ببناء الأجيال للمستقبل القريب والبعيد *

غير أننا أيضا وضعنا للفرد المسلم ، صنوف التبادل المنفعى فى المجتمع ، وممارسة العبادات على تعددها ، وكيف يمكن بناء العلاقات الانسانية الصحيحة على هدى من السلوك السليم فى ظل المبادئ الاسلامية *

ولقد كان الفرد المسلم ، بجميع مقوماته النفسية والاجتماعية والأخلاقية سعيدا حينما ظهر أن العبادات كلها يمكن أن تستثمر كعباءة على الصلة الحسنة بالأفراد داخل المجتمع وخارجه على السواء * والاسلام فى هذا يفوق ما سبقه من ديانات ، وما ظهر من أنظمة وضعية ، لا يمكن أن تضاهى من قريب أو بعيد تلك الأسس والمبادئ التى أقامها الدين الاسلامى ، ووضع لها قواعد سليمة فى ظل الحق والعدل والخير والسلام *

* * *

(١٧٠) محمد البهى . الانسان فى حياة المسلم . مرجع سابق ،

ص ٥٥ - ٥٧

الفصل الخامس

مباحث في التربية الإسلامية

✽ الغزو الثقافي للمجتمع الاسلامي ، وموقف التربية الاسلامية
ازاءه :

لعله بات من المسلم به في عالم اليوم ، تكالب قوى متعددة الأهداف والاتجاهات في الشرق والغرب ، تريد النيل من المسلمين ، وبالتالي الحاق الضرر بالاسلام . والشواهد والمرائي تتواتر على تواجدها الآلاف من الجمعيات التي تعمل ضد الاسلام ، من أجل النيل منه والفتك بمعتقديه .

ولعل السؤال الملح الذي يحتاج الى اجابة واضحة هو :
ما سبب تلك الفجوة الخطيرة بين الاسلام كدين له مقومات —
تضمن لو أحسن تطبيقها — السعادة للأفراد والجماعات ، وبين السلوك
الذي يمارسه المسلمون ، وتبدو فيه مظاهر البعد بنسب متفاوتة عن
تطبيق منهج الاسلام الصحيح ؟ أو بمعنى آخر :
لماذا لا يوجد أثر قوى لما ينادى به المصلحون ورجال الدعوة
والفكر ، بالرغم من الكثرة الكثيرة في الأفراد والمؤسسات التي نيطت
بها هذه المهمة ؟

ولعلنا لا نجانب الصواب حين نؤكد أن التربية بما لها من رصيد
ضخم وهائل في تنمية قدرات الأفراد في جميع المجالات قادرة — لو أحسن
التخطيط لها — على احداث التناسق بين الفرد وبين عقيدته وبين الفرد
ومجتمعه ، وبالتالي يمكن أن يبتنظم المجتمع ، بل ويتوقع أن تختلف منه
— في الغالب — فجوة الخلقة بين الفكر والعمل والنظر والتطبيق كما
هو مشاهد في مجتمعنا الإسلامي اليوم .
ولكن وقبل أن تقوم التربية بهذا الدور ، لابد من كشف النقاب

عن هذا الغزو الثقافي ، لمعرفة طبيعته وأستاليته ومدى تأثيره في المجتمع الاسلامي .

وحتى نقف على ذلك ، فان هناك صعوبات تبدو في الأفق ، وذلك نظرا لتعدد أطراف المشتركين في ممارسة هذا الغزو ، وتنوع الأساليب المستخدمة ، سواء على مستوى الأفراد أو المؤسسات ، فهم يستخدمون أساليب ملتوية ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، ولا يمكن للفرد العادي أن يكتشف مضمون ومحتوى تلك الأساليب فانه يكمن عن جذب قطاع كبير من المثقفين — خصوصا من درسوا في معاهد التعليم بتلك البلاد — إلى تلك الاتجاهات بل والدفاع عنها أحيانا .

وقد يصل الأمر إلى العمل خفية ، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ، لبت هذا الفكر الثقافي الوافد ، والغريب عن البيئة الاسلامية .

ومما يزيد في ضخامة هذه المشكلة ، أن بعض المؤيدين للفكر الوافد ، قد يتذرعون بمبادئ تبدو كمسلمات في كثير من الأحيان .

ومن تلك المبادئ :

١ — أن التبادل الثقافي أمر مطلوب ، وأن الاسلام لم يخجر على الفكر ، بل أطلق للإنسان الحرية في التزود من الثقافة أينما وجدت وحيثما حلت . وفات هؤلاء أن الاسلام يبيع ذلك ، طالما تم تحت رغبتنا وباختيارنا ، وجاء متمشيا مع الاسلام ومتضمنا لقيمه ومبادئه .

٢ — أن الغزو الثقافي يتم في ظل فكر غريب عن البيئة الاسلامية والمجتمع الاسلامي ، وهذا الغزو في حقيقته صدى لآراء مفكرين غير مسلمين ، يحاولون فرض هذا الفكر على المجتمع الاسلامي ، أو بمعنى آخر يحاولون فرض ذلك من جانب واحد على الانسان الغربي المسلم وعلى المجتمع المسلم .

هذا ولم تسلم المؤسسات التربوية والتعليمية ، من هذا الغزو ، بل جاءت على رأس الركائز التي كرست لها تلك الحملات كل جهدها ، ذلك أنها تدرك تماما أن بذور تلك السموم بين البراعم الغضة أمر له أهميته في تطعيم هذا الجيل بفكر ملوث ، يهدف إلى إبادة الفكر ، وذخبة للفرد ، في سبيل قلة ثقته في معتقداته ومقدراته الثقافية والحضارية .

(١٩٨٦)

ومن هنا نتقع على التربية مسئولية خطيرة فى مواجهة هذا الغزو الثقافى وتلك الحملة المسعورة الموجهة ضد المجتمع الاسلامى ، والتي تدعى — ضمن ما تدعى — أن الاسلام دين تواكل ، وأنه لا يواكب الحياة المعاصرة.، الأمر الذى يثير الشبه حول الاسلام ، ويشيع أفكارا مسمومة بالكذب والبهتان .

ناهيك عن تأثير تلك الحملة فى احداث التفرقة بين الدول الاسلامية بترويج النزعة العرقية ، وتفتشى الروح المذهبية ، وتمزق الشخصية الاسلامية .

والواقع أن الاسلام دين له مقومات تتمشى مع الطبيعة الانسانية ، ولا تتعارض معها ، وهو دين يوائم بين صالح الفرد فى دنياه وأخراه ، كما يتيح للفرد أن يعمل فى الدنيا ويجهتد على أن يكون ذلك من أجل الآخرة . قال تعالى : « **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** » (١) .

والثقافة الاسلامية والتراث الاسلامى غنى ومملوء بالكثير مما يعد أصلا صحيحا ومصدرا قويا لبناء الشخصية المسلمة . وكلما كشف هذا التراث واتصحت معالمة ، وأصبح حيا فى ضمير الأفراد كلما استطاع الأفراد أن يتوافقوا مع حياتهم المعيشية .

ولا شك أن الفرد — أى فرد — تتناسب قدرته على المعيشة الناجحة فى جماعته مع القدر الذى يحصله من ثقافته ، والسبب فى هذا أن الجماعة ليست فى حقيقتها — عندما ننظر اليها بمنظار التربية — ليست الأفراد الذين يكونونها ، وليست الأجيال المتعاقبة عن هؤلاء الأفراد ، وإنما تكمن حقيقة الجماعة فى الثقافة التى تتوارثها الأجيال المتعاقبة .

ومن هنا فالأفراد يذوبون فى كل جماعة ، وتبقى الثقافة ، فهى لا تذوب أبدا لأنها واجهة الجماعة ومرآتها . لذلك فإن من وظائف التربية أنها تعد الجماعة ، بنشر ثقافتها بين الأفراد ، فهى تربط الفرد بالجماعة ، وتمكنه من أن يتقن ثقافة هذه الجماعة ويتصرف فى مواقف حياة هذه الجماعة وفقا للقيم والمثل العليا التى تعتنقها تلك الجماعة .

وإذا كانت التربية تولى وجهها شطر الجماعة ، فإنها بلا شك تنصب أيضا على الثقافة ، فالتربية تهدف الى اكساب الثقافة ، وليس لها من معيار للحكم على نجاحها سوى قدرتها على تملك تلك الثقافة للأفراد ، وليس للتربية من وسيلة سوى أن تجعل الثقافة مادة لنشاطها .

من هذا المنطلق وفي تلك المعايير ، استهدف الغزو الثقافي المجتمع الاسلامي ، حين جعل ثقافته مادة يدور حولها نشاطه الفكري والاعلامي والتربوي بغرض التشكيك في صلاحية المنهج الاسلامي كنموذج صالح للمجتمع ، فركز على نشر ثقافته الوافدة عبر الاعلام الهادف ، كما استقطب البعض من المثقفين المسلمين ، واستخدمه كعوامل للمهدم ، واستغل كذلك عناصر الضعف المادية ، كسلاح لجذب الكثير لاعتناق الفكر الواغد ، كما لم يتورع في بث فكره ضمن مناهج التعليم في البلاد الاسلامية .

والغزو الثقافي للمجتمع الاسلامي ينشئ من وراء تلك الحملة اهمال الشريعة الاسلامية في أكثر بلاد الاسلام ، والاكتفاء بها كآطار نظري دون تطبيق عملي لمقوماتها . كما يهدف هذا الغزو الى مسخ الشخصية الاسلامية في أكثر بلاد الاسلام ، كما لم يتورع في اثارة العصبية والعرقية بين شعوب الاسلام ، وأيضا شيوع وانتشار المذاهب المناهضة للدين ، كما يهدف كذلك الى توزيع ولاء الأمة الاسلامية لاي من القوى الكبرى في العالم .

وليس هناك من وسيلة قوية ، لاعتناق الفكر الثقافي الواغد ، أكثر تأثيرا في الأفراد من بث هذه الثقافة في شكل خدمات محسوسة ، يلمسها الأفراد وتشعر بها الجماعات ، لذلك كثرت الارشاليات في أشكالها المختلفة والمتعددة ، مثل المدارس والمستشفيات ، ودور رعاية الأطفال الفقراء ، ومراكز ثقافية متعددة ، ناهيك عن غزو الأسواق بوسائل متعددة خاصة باستقطاب المرأة .

ونظرة فاحصة في فكرنا الاسلامي ترينا أن الاسلام قادر بمقوماته الأصلية ، ومصادره الصحيحة الواضحة في القرآن الكريم والسنة المطهرة وفي الاجماع والاجتهاد ، أقول أن الاسلام قادر بتلك المقومات أن يبنى الفرد المسلم والمجتمع المسلم .

وحين بهتم الاسلام بتربية الفرد المسلم ، فإنه يقيم تلك التربية بما يتيح للفرد من نصوص في العقيدة ومن هدى للنبي صلى الله عليه

وسلم ومن خبرات تحيط به ، يكتسب من خلالها مواقف في الحياة تهديه الى اقوم السبل ، وتساعد على هضم ثقافته الاسلامية ، لأن الفرد لا يستطيع أن ينمو نموا حقيقيا ، الا اذا استطاع أن يواجه بيئته الطبيعية والاجتماعية وإن يتفاعل معها في ظل تلك الثقافة الاسلامية التي اهتدى اليها .

والفرد المسلم يستفيد من الخبرات التي تواجهه في مواقف الحياة اليومية على الأرض وبين الناس ، لأن الثقافة لأية جماعة ما هي الا خبرات تراكمية .

وعموما فان تربية الفرد وتحقيق نموه لن يكون الا بأدوات الثقافة التي تفرها وتعتز بها عقيدة تلك الجماعة .

ومن هنا فالتربية الاسلامية تتحمل مسؤولية تمكين الانسان المسلم من ثقافة اسلامية صحيحة ، لأن الفرد المسلم اذا تعرض للتربية لم تعطه كل ثقافة مجتمعه ، أو أعطته صورة خاطئة من هذه الثقافة ، أو تعرض لأن يتربى وينمو بوسيلة ثقافية لجماعة أخرى ، فان ذلك ينعكس على الفرد وعلى الجماعة وعلى التربية في المقام الأول .

وحينئذ فالفرد لا يتمكن من مواكبة المعيشة في حياته ، بالقدر الذي انخرقت به مادة التربية عن مادة ثقافة مجتمعه ، فحيثما نظرنا الى التربية من ناحية الفرد أو من ناحية الجماعة ، فاننا نجد الصلة المباشرة القوية بين التربية وبين الثقافة .

وكشف هذه الصلة ، وايضاح مفاهيم الثقافة ، هو بلا شك من الوسائل المعينة على مواجهة الغزو الثقافي للمجتمع الاسلامي .

وحتى يبرز هذا الايضاح ، فلابد من قيام المؤسسات التربوية بأداء دورها في هذا المجال .

ولا شك أن الأسرة والمدرسة ووسائل الاعلام كلها مؤسسات لها قدرتها في بث الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية في نفوس المجتمعات الاسلامية .



الأسرة المسلمة .. ودورها التربوي في مواجهة الغزو الثقافي

تعد الأسرة المسلمة اللبنة الأولى في تربية الفرد المسلم ، فالطفل يفتح عينيه على الأسرة منذ اللحظة الأولى لميلاده ، وتأثيرها عليه يلعب دورا كبيرا في توجيهه وتكوينه ، وبالقدر الذي تقدمه الأسرة للطفل من مميزات تربوية بقدر ما يتكون ويواجه المجتمع .

ولا شك أن استعداد الأبوين لبذل الجهد التربوي ، واضفاء القدر المناسب لتنمية الطفل له أبلغ الأثر في تشكيله وتنميته ، فالأب والأم هما حجر الزاوية ، الذي عليه يمكن أن نعيد صرح التربية الأسرية بالمنهج الصحيح ، بمعنى أن الطفل من صنع والديه ، ونبت تربيتهما . وإذا أحسن الغرس ، حسن الثمر ، وكانت النتيجة فردا صحيحا نفسيا وخلقيا واجتماعيا وروحيا وجماليا .. الخ . قال تعالى :
« والبلد الطيب يخرج نباته بأذن ربه ، والذي خبث لا يخرج
الانكدا » (١) .

ولا ننكر أن دور الأسرة ، يواجه بكثير من المثيرات التي تعرقل السير في المنهج الصحيح للتربية الإسلامية ، ويندو ذلك في اقتحام أجهزة الاعلام من مكتوبة ومسموعة ومرئية للطفل ، مما يشككه في كثير من القيم التي ترسخت لديه ، وتكونت عنده ، الأمر الذي يجعله يتذبذب بين قيم وتقاليد استقاها من الأسرة ، وبين ثقافة جديدة ، اقتحمت عليه فكره وعقله لا يحسن أى الطرق يسلك ، ولا أى المناهج يعتنق .

من هنا بدت المسؤولية الملقاة على عاتق الأسرة ، وغدا الطفل في أمس الحاجة الى وضوح في الرؤيا ، وتحديد لمعالم الطريق ، حتى يتخلص من هذا الغزو الفكرى المشبوه ، والملوث بالتيارات الهدامة ، والفكر المختلط .

وحتى تحسن الأسرة مقاومة التيارات ، فان عليها أن تعيد النظر في أساليبها التربوية ، وتتعرف على حاجيات الطفل النفسية والاجتماعية ، فلا تترك الفكر الملوث ينخر في قلبه وعقله ، بل عليها ان توفق بين قيمها الدينية وأساليب التنشئة الحديثة ، بحيث لا يقع الطفل بين شقى الرحى ويتوه في الطريق ، ويتبعثر جهد الاسرة ، ويصبح المستقبل للطفل رهنا للمصادفات والأهواء .

وإذا كانت الأسرة يتحتم عليها دائما وأبدا أن تضع مقومات تصون بها الطفل من الوقوع فريسة لتيارات هدامة ، اذا كان ذلك واجبا ، فانه يصبح اوجب اذا بات وشيكا توحيه البرامج التليفزيونية مباشرة من البلاد المتقدمة الى شتى أنحاء العالم ، ويغدو الطفل هدفا لتلك البرامج خصوصا اذا لم تكن هناك معاناة في الاستقبال والمشاهدة سوى فتح الأجهزة لأى بث موجه من أية دولة شرقية كانت أم غربية ، ووقتها يكون التليفزيون — مثل أجهزة الراديو — ينقل الفكر ، ويغزو العقول في كل أرض وفي كل مكان وفي كل منزل^(٢) .

حينئذ سيواجه الآباء بمشاكل لا أول لها ولا آخر ، ويصبحون غير قادرين على مواجهة تلك المشاكل أو الحد منها .

ويكمن خطر الغزو الثقافي على أطفالنا في الأمور التالية :

١ — التعرض للامحدود لهذا الغزو بالكلمة المكتوبة ، والآراء المسموعة ، والفكرة المصورة ، والتقاليد الفاضحة المقوتة ، وذلك أن كثيرا من الروايات المسمومة تملأ الأسواق العالمية وتتسلل خفية في الظلام الى مجتمعاتنا الاسلامية وهى مليئة بالقصص البوليسية والعاطفية والعذوانية .. الخ . وطالما لا يجد الطفل المسلم ما يملأ فراغ وقته بالمفيد وال جذاب والمبدع ، طالما لا يتوغل بين يديه ذلك ، فهو نهب شئنا أم أبينا لذلك الفكر .

أما الآراء المسموعة ، فلا مناص من الاعتراف أن البث الاذاعي من بقاع الأرض ، يسلط كثيرا من برامج — ليس فقط بلغته الأجنبية — بل في كثير من الأحيان بلغتنا العربية خلال موجاته الموجهة . وكثير من تلك البرامج مملوء بالسموم التي يقع الأطفال ضحية لها ، حيث تهتز

(٢) محاضرة معالى وزير الاعلام الدكتور محمد عبده بهانى عن « أقطار الفضاء : غزو ثقافى واستعمار جديد » بتاريخ ٢ صفر سنة ١٤٠٣ هـ في قاعة المحاضرات بجامعة أم القرى — مكة المكرمة .

ثيمهم وتتنوهم أمامهم الحقائق حول كثير من القضايا ، خصوصاً إذا فقدوا برامج محلية بديله ، تشبع عندهم هذا الطلع ، وتصحح لهم كثيراً من المفاهيم المخالطة ، ناهيك عن شرائط التسجيل المجانية والمملوءة غناء وطرباً وموسيقى بها هوس وجنون ، ينبهر بها الفتيان والفتيات ويقعون غريسة لها وضحية لتدنيها .

أما الفكر المصور ، فبالرغم من حاجة الطفل إليه في تفتيق ذهنه وتوقد قريحته ، إلا أننا ما زلنا في حاجة إلى تنقية كثير منه ، من الخيالات اللامحدودة ، وعدم العقلانية في كثير من مواقفه ، الأمر الذي يربك الأطفال ويضعه أمام تساؤلات عدة لا يجد لها أجابه سافيه ، ويتارجح بين المعقولات والمحسوسات بل وربما يزداد ثقته في مدرسه الإنسان إلى أبعد مما تحتمله قدراته البشرية .

أما التقاليد الفاضحة ، فتتركز في سفور المرأة في بعض المجتمعات ووسائل زينتها التي فاقت الوصف في الخروج عن آداب الإسلام وتعاليم الدين ، الأمر الذي يهون على الفتاة المسلمة قيمة الحجاب ، ويجعلها تنرد إلى مجارة المدنيه الملبخه بدماء الرذيلة والفساد .

ولا يقتصر التقليد على ذلك فهو ماثل أمامنا في مضامين حياتية يومية ، نلحمه في حفلاتنا ، نلحمه في جلساتنا ، نلحمه في علاقاتنا ، نلحمه في تصرفاتنا ، مما يترك بصماته المؤكدة في ذهن الشباب والأطفال وينعكس ذلك على الحياة المستقبلية للفتيان والفتيات .

٢ — عدم الملاحظة أو المراقبة على قراءة أو سماع أو مشاهدة هذا الفكر الواغد ، وعدم الحجر أو التوجيه أزاء ذلك التقليد الأعمى ، أو بمعنى آخر تخلت أسر كثيرة عن مسؤوليتها لمواجهة هذا الغزو الثقافي ، فتكرت الحبل على الغارب آملاً في التمشي مع ظاهر تلك الحضارة الغربية ، وما هي كذلك في قليل أو كثير ، كما انشغلت أسر كثيرة بشئون أخرى قد تكون مادية أو غيرها ، وترك الأبناء والبنات نهبا لهذا الداء الدفين الخبيث الذي يسرى في الجسم سرعان الدم الملوث في دم الكائن البشري .

٣ — غدا الأطفال وقد فقدوا في الأسرة أسلوب الصدق في القول والاخلاص في العمل والقُدوة الصالحة بالمثل . ولم يعد للصدق من قيمة عند الطفل إلا ألفاظاً جوفاء يحفظها من كتاب ، كما بات الاخلاص في العمل قصة تحكى وأصحت القدوة الصالحة تراثاً يتلى .

من هنا جاء الانفصال بين النظر والتطبيق ، والفكر والعمل ، بينما

يقرن رب العزة جل وعلا في كثير من آيات القرآن الكريم الإيمان بالعمل • قال تعالى : « أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (٣) •

وقال سبحانه وتعالى : « أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » (٤) •

وبناء على ذلك انتهم أعداء الإسلام ، ذلك الموقف وبدأوا يتسككون في كفاءة الإسلام على مواكبة الحياة العصرية ، مما جرف الكثير من الشباب والفتيات — على أقل تقدير — في اهتزاز فكرهم وتبعثر قيمهم الأصيلة •

٤ — كما يكمن خطر الغزو أيضا ، في عدم وجود البدائل التي تنطلق من منطلقات إسلامية ، لتعوض الطفل هذا الفكر الوافد •

ولو وعينا ذلك وابتكرنا الأساليب السليمة في ممارسة الرياضة بأنواعها المختلفة ، والثقافة بقنواتها المتعددة بحيث نواكب الفكر الحديث بمنهج إسلامي • لو وعينا ذلك لقضينا على الكثير مما نعانى في عالم اليوم ، ولاستطاعت الأسرة أن تأمن عاقبة هذه الفجوة الخطيرة في أساليب التربية •

ومن هنا يمكن أن نقول : إن المشكلة قائمة ، والتيار جارف ، والأمر خطير ، يحتاج إلى العلاج الأمثل الذي يقتلع الداء من جذوره •• وفي نفس الوقت علينا أن لا ننظر واهمين أننا نستطيع أن نغلق على الطفل نوافذ الثقافة دون وجود بدائل عنها ، أو نوجه الأسرة لتتخذ مواقف أكثر شدة وقسوة وغلظة وخشونة إزاء معاملة الطفل ، دون أن نضع لها التقييم الصحيح لكيفية إشباع حاجيات الطفل النفسية والاجتماعية والروحية والبدنية ، خصوصا في هذا العصر الذي تراجعت فيه مناخ الثقافة ، وصار عبثا محاولة التعمية على الطفل إزاء هذه الثقافات ، اللهم الا في ظل البدائل المبدعة التي توجه الطفل من منطلقات إسلامية •

(٤) الكهف : ١٠٧

(٣) الكهف : ٣٠

* أما أساليب العلاج ، فيمكن أن نوجزها في الأمور التالية :

١ - الاعتصام بالدين صمام الأمان في مواجهة هذا الغزو :

ذلك أن الأسره اذا نجحت في تربيته الطفل بمنهج اسلامي ، واذا احتضن الطفل الاسلام قولاً وعملاً ، فصار دماً يسرى في عروقه ، وروحاً ترتشفه نفسيته ، حينئذ يمكن القول : انه لا خوف على الطفل المسلم ، حتى ولو ملئت فجاج الارض مخراً محتلماً وأهدأها هدامه وقيماً ملوثة ، طالما حققنا كلمه الله في الارض ، ونفذنا الهدف الصحيح من استحلافه ايانا ، بالمنهج المستقيم والاسلوب السليم .

ولا غرابه في ذلك ، فالتربيه في مراحل التكوين الأولى من حياة الطفل تنعبد دوراً هاماً رئيسياً في توجيهه ، وقد نندهتس حين نلمح أن أسراً عديده ، عاشت وتعيش ، وسط البلاد العربيه ، ومع ذلك غانها نجحت — الى حد ما — في مقاومه هذا الغزو ، غلظت فكره ورفضته ، لا لشيء سوى أنه اضحى مبذلاً وممقوتاً في نظر الآباء وانسحب ذلك على الابناء فصار مهيناً في نظرهم ، مكروها لدى فكرهم .

وكثير ممن تلقوا تعليمهم داخل أروقه الجامعات الغربيه ، صاروا من أكثر خصوم الفكر الغربى ، والمهاجمين لأساليبه الهدامة . ولا شك أن الاعتصام بالدين الاسلامي وتقاليده الساميه هو صمام الأمان لهذا الاتجاه المحمود ، خصوصاً اذا تكون في السنوات الأولى من حياة الطفل .

٢ - التطبيق السليم للتربية :

ذلك أن الاسلام بكل مقوماته كفيل — اذا أحسن تطبيقه — أن يحمي الطفل من كل تلك الأفكار الهدامة ، غير أنه قد يطلو للبعض الادعاء أن طفل المجتمعات المتقدمة ، ونظم تربيه الأسرة الغربيه ، تنتج طفلاً أكثر تحرراً ، وأكمل صحة ، وأغزر إنتاجاً . وربما تبدو تلك حقيقه تلوح في الأفق ، ولكنها في واقع الأمر سراب يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئا . ذلك أن المرائى تكشف نقيض ذلك في كثير من الأحيان ، فظواهر العدوان والغدر والتمرد واللامبالاة ، والهروب من الواقع كلها سمات اتصف بها كثير من الأطفال في البلاد المتقدمة ، وما ذلك إلا دليل على اخفاق تلك الأساليب التربويه الحديثه ، وعجزها عن انتاج الشخصية المتزنه المتناسقه ، بصرف النظر عن مظاهر

الترف والبهرجة وأساليب الحياة العصرية ، لأن ذلك كله يذوب أمام الفساد الذي استشرى ، والقيم الروحية التي اهتزت أو كادت ، والتقاليد التي امتهنت . هذا مع اعترافنا في نفس الوقت بوجود هذه الطفرة الهائلة من التقدم الاقتصادي والصناعي .

ولا نجانب الصواب حينما نؤكد أن في الاسلام مبادئ لو استخدمت بالشكل المناسب لحمت الطفل المسلم من تلك المزالق ، ولكفته الوقوع في الهاوية ، ولحصنته من تلك التيارات الهدامة والفكر الملوث .

٣ - البناء الصحيح للأسرة المسلمة :

حيث حث الاسلام آباء المستقبل أن يتخيروا الزوجة السليمة من الأمراض الخلقية والنفسية والاجتماعية على أن تكون ذات خلق ودين ، وأن تكون ولودا ودودا ، أن ينظر إليها زوجها سرته ، وأن أمرها أطاعته ، وأن غاب عنها حفظته .

وحين يطلب الاسلام ذلك في بناء الأسرة ، فإنه يؤكد أن : العقل السليم في الجسم السليم . روى ابن ماجه والديلمي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » وروى ابن ماجه والدارقطني والحاكم ، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : « تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء » .

ولم يكن هناك من معيار لاختيار الزوجة سوى المنبت الحسن والخلق الحسن . روى الدارقطني والعسكري ، وابن عدي عن أبي سعيد الخدري مرفوعا : « اياكم وخضراء الدمن » قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء » . وانطلاقا من هذا المبدأ أوصى عثمان بن أبي العاصي الثقفي أولاده في تخير النطف ، وتجنب عرق السوء ، حيث قال لهم : « يا بني . . الناكح مغترس ، فليُنظر امرؤ حيث يضع غرسه ، والعرق في السوء قلما ينبج فتخيروا ولو بعد حين » (٥) . ولا غرو فإن الأطفال هم ثمرة يعود أصلها إلى طبيعة الآباء والأمهات ، والتكوين السليم من البداية ، يتبعه بالضرورة نبت حسن وخلق حسن .

(٥) عبد الله علوان . تربية الأولاد في الاسلام . دار السلام للطباعة والنشر والنوزيع ، حلب ، بيروت ، ج ١ ، ص ٣٧ ، ٣٨

روى الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنه فى الأرض وفساد كبير » .

وأى فتنه أعظم على الدين والتربية والأخلاق من أن تقع الفتاة المؤمنة بين براثن خاطب متحلل أو زوج ملحد لا يراقب الله تعالى ، ولا يمتثل بأوامره ، ولا يقيم للشرف ولا للغيرة وزنا . وأى فتنه أكبر من فتاة تصبح زوجة لرجل فاسق يجبرها على السفور والاختلاط وارتكاب المحرمات من شرب للخمر ... الخ^(٦) .

وكم يصبح مؤسفاً أن ينشأ أطفالنا — رجال المستقبل — وسط هذه البيئة المتحللة الماجنة الآثمة . فماذا نتوقع من أطفالنا والحال كذلك ؟

٤ — أثر الكلمة فى الأسرة :

لكلمة قيمة أساسية فى الأسرة ، فبها ومنها التوجيه الصحيح « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون »^(٧) . بالكلمة تستطيع الأسرة أن تبني الضمير الخلقى لدى الطفل ، الضمير الذى لا يحيد ولا ينحرف ، ولا يهين ولا يلين أمام قوى البغى والفساد .

بالكلمة تستطيع الأسرة أن تجرد الفكر الواغد من أوهام الحقيقة ، وتعريه من مظهرية الصواب .

بالكلمة تستطيع الأسرة أن تراقب وتلاحظ تحركات الأطفال فتعدل سلوكهم اذا انحرفوا ، وتوجههم اذا ضلوا الصواب أو حادوا عن الجادة .

بالكلمة نحقق منهج الاسلام فى أساليب عقاب الطفل المذنب واثابة المطيع المجد .

ولا شك أن بالكلمة ، يمكن أن نفتت الصخر ، ونلين القلوب القاسية وكلما منح الآباء حكمة فى القول ، وسدادا فى رأى ، وتطبيقا سليما فى العمل ، كلما توقعنا أطفالا ناجحين ، على المحن صابرين ، لكيد الأعداء صامدين ، وللخطر الملوذ نابذين ورافضين .

(٧) ابراهيم : ٢٤ ، ٢٥

(٦) المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦

المسجد .. ودوره التربوى فى العصر الحديث

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية ، أن يستندوا الى التربية فى توجيه حياتهم ، بحيث تصبح هذه التربية طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية ، ترتبط بمشكلات الفرد والجماعة ، ويرى المجتمع فيها نفسه ويؤكد فيها ذاته .

والتربية الحقيقية هى التى تؤدى دورها فى بناء المجتمع ، ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ، تنطلق فيه طاقات الأفراد ، وتستثمر فيه قدراتهم ، ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد بيئية الى طاقات تكون فى خدمة الانسان .

واذا صح أن أول مدرسة اسلامية ظهرت فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى — كما يشير الى ذلك د. سعيد اسماعيل فى كتابه « معاهد التعليم الاسلامى » وان كان لم يحدد أية المدارس أسبق فى الظهور ، هل المدرسة الصادرية (٣٩١ هـ) فى دمشق ، أم مدرسة ابن غورك (٤٠٦ هـ) . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فالمهم أن الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى شهد ميلاد أول مدرسة اسلامية ، وان كان بعض المؤرخين قد روج لفكرة تقول : ان نظام الملك الوزير السلجوقى هو أول من بنى المدارس فى العصور الاسلامية ، فقد أنشأ المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٥٧ هـ ، وان كان الكثير من الكتابات يؤكد أنها ظهرت فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى كما ذكر ذلك د. سعيد اسماعيل فى كتابه سالف الذكر .

أقول فإذا صح ذلك فمؤداه أن المسجد حتى هذا التاريخ كان هو المؤسسة التربوية الوحيدة ، الذى نيطت به مسئولية التربية الكاملة بجميع جوانبها العقلية والبدنية والاجتماعية والروحية والأخلاقية . وان كان هذا لا يعنى أنه بعد هذا التاريخ وحتى الآن ، قد نقص دور المسجد وإنما ما نعنيه هو أن المسجد فى تلك الفترة — قبل انشاء المدرسة — قد حقق الأهداف التربوية المنشودة ، وأدى دوره بنجاح فى غيبة المدرسة وقبل نشأتها .

المسجد .. ودوره التربوي في العصر الحديث

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية ، أن يستندوا الى التربية في توجيه حياتهم ، بحيث تصبح هذه التربية طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية ، ترتبط بمشكلات الفرد والجماعة ، ويرى المجتمع فيها نفسه ويؤكد فيها ذاته .

والتربية الحقيقية هي التي تؤدي دورها في بناء المجتمع ، ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ، تنطلق فيه طاقات الأفراد ، وتستثمر فيه قدراتهم ، ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد بيئية الى ظاهات تكون في خدمة الانسان .

واذا صح أن أول مدرسة اسلامية ظهرت في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري — كما يشير الى ذلك د. سعيد اسماعيل في كتابه « معاهد التعليم الاسلامي » وان كان لم يحدد أية المدارس أسبق في الظهور ، هل المدرسة الصادرة (٣٩١ هـ) في دمشق ، أم مدرسة ابن غورك (٤٠٦ هـ) . وسواء أكان هذا أم ذلك ، فالمهم أن الربع الأخير من القرن الرابع الهجري شهد ميلاد أول مدرسة اسلامية ، وان كان بعض المؤرخين قد روج لفكرة تقول : ان نظام الملك الوزير السلجوقي هو أول من بنى المدارس في العصور الاسلامية ، فقد أنشأ المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٥٧ هـ ، وان كان الكثير من الكتابات يؤكد أنها ظهرت في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري كما ذكر ذلك د. سعيد اسماعيل في كتابه سالف الذكر .

أقول فإذا صح ذلك فمؤداه أن المسجد حتى هذا التاريخ كان هو المؤسسة التربوية الوحيدة ، الذي نيطت به مسؤولية التربية الكاملة بجميع جوانبها العقلية والبدنية والاجتماعية والروحية والأخلاقية . وان كان هذا لا يعني أنه بعد هذا التاريخ وحتى الآن ، قد نقص دور المسجد وإنما ما نعنيه هو أن المسجد في تلك الفترة — قبل انشاء المدرسة — قد حقق الأهداف التربوية المنشودة ، وأدى دوره بنجاح في غيبة المدرسة وقبل نشأتها .

ومع التطور الزمنى والمحن التى اجتاحت العالم الاسلامى ، استحدثت معوقات حدث من أداء المسجد لدوره التربوى ، مما استدعى بالضرورة تحسس أساليب وأنماط تربوية للمسجد تتناسب مع متغيرات العصر الحديث وتستمد من قيم الاسلام ومقوماته .

وستتناول ثلاث نقاط رئيسية فى هذا الموضوع :

- ١ — المنظور التاريخى للدور التربوى للمسجد .
- ٢ — المسجد وظروفه الراهنة .
- ٣ — نمط الدور التربوى للمسجد فى العصر الحديث .

أولا — المنظور التاريخى :

* انتشار بناء المساجد :

يعتبر المسجد الحرام بمكة أول بيت وضع للناس ، قال تعالى : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » (١) .

ويليه فى المنزلة المسجد الأقصى ، قال تعالى : « سبحانه الذى أسرى بعبد ليله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » (٢) .

كما يعد مسجد قباء أول ما بنى من المساجد فى الاسلام ويحتل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة مكانة عالية ، فاليه تشد الرحال .

وتوالى بعد ذلك الانشاءات للمساجد فى كل مدينة ، وفى كل بقعة من أرض الاسلام والتى تشرفت بأن تنتشر فيها الاسلام ، ففى مصر بنى الجامع الأزهر عام ٣٥٨ هـ ، كما كان قد أنشئ مسجد أحمد ابن طولون بالقاهرة (الفسطاط) عام ٢٦٥ هـ ، وفى دمشق أنشئ الجامع الأموى وتم بناؤه عام ٩٦ هـ ، وفى بغداد أنشأ الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور جامع المنصور عام ١٤٥ هـ . وفى عام ٥٠ هـ بنى عقبة بن نافع جامع القيروان . وفى تونس أنشئ جامع الزيتونة عام ١١٤ هـ ، وكان قد بناه عبيد الله بن الحبحاب ، وفى قرطبة أنشئ جامع قرطبة عام ١٧٠ هـ ، بناه عبد الرحمن الداخل . وغير ذلك من المساجد التى عمت المشرق والمغرب ، وكانت مضرب الأمثال فى الاثراء العلمى والفكرى والتربوى ، فقد أنيط بترك المساجد مهام جسام شملت كثيرا

(١) آل عمران : ٩٦

(٢) الاسراء : ١

من مقومات الحياة الحرة الكريمة • فلم تكن تلك المساجد قاصرة فقط على الجانب الروحي ، بل اتسعت لتشمل التربية والتعليم ، غفى المسجد الحرام بمكة تخرج فطاحل الفقهاء والمحدثين منهم الامام الشافعي الذي تعلم وأفتى وجلس للتدريس بالحرم المكي ثم ارتحل الى العراق وكتب فيها مذهبه ثم ارتحل مرة أخرى الى مصر وكتب فيها مذهبه الجديد • وكان هذا العلم الغزير للشافعي نتيجة للدور الذي أداه المسجد الحرام في التكوين العلمي للشافعي •

✽ اتساع دور المسجد في الاسلام :

ولم يقتصر دور المسجد الحرام على علوم الفقه والشريعة بل اتسع ليشمل علوم الحديث واللغة من نحو وصرف وبلاغة • ولن ننسى الدور الذي قام به فحول العلماء بالمسجد الحرام حينما تمكنوا — على مدى التاريخ الطويل — من القيام بالاجابة عن الكثير من الأسئلة التي كانت تفد من كل صوب وحذب تستفسر عن الكثير من أحكام الدين والشريعة الاسلامية •

وفي مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة جلس النبي صلى الله عليه وسلم معلما أصحابه أمور الدين ، وشارحا قواعد الاسلام بأسلوب النبي المعلم ، بالاضافة الى أن هذا المسجد كان مكانا لاستقبال الوفود واستنفار الجيوش ، وعقد المعاهدات ، وجمع الزكاة ، الأمر الذي جعل من المسجد مجمعا لجميع مصالح المسلمين بالاضافة الى الهدف الأسمى للمسجد وهو العبادة وبناء الجانب الروحي للفرد المسلم • وفي هذا المسجد تخرج جهاذة الفكر وعظماء المسلمين ومنهم عروة بن الزبير بن العوام وسعيد بن المسيب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وغيرهم كثير وكثير •

وفي الجامع الأزهر كثرت حلقات الدرس ، وشملت علوم الدين واللغة والتي تطورت فيما بعد حتى أصبح هذا المسجد نواة لأعرق جامعة اسلامية •

وفي المسجد الأموي بدمشق التقى الكثير من طلاب العلم من بلاد الشام ينهلون من الفقهاء والذين جلسوا للتدريس بهذا الجامع الشهير كما أن الامام الغزالي كان قد اعتكف في إحدى صوامع هذا المسجد وعرف مكانه هذا بالغزالية وما زال بهذه التسمية حتى الآن ، ولقد شمل التعليم بهذا المسجد علوم التفسير والحديث واللغة ، وكان ابن مالك أحد فطاحل علماء اللغة الذين كانت لهم حلقة بهذا المسجد •

كما اشتهر مسجد المنصور ببغداد بكثرة طلابه الذين تواغدوا من أجل طلب العلم على فطاحل العلماء ومنهم الكسائي الذي يقرأ علوم اللغة .

✽ دور مساجد شمال أفريقيا الرائد :

ولم يكن حظ مساجد القيروان والزيتونة وقرطبة وغيرها بأقل حظاً من غيرها ، فلقد أدت المساجد دوراً رئيسياً في الحفاظ على التراث الاسلامي ، وبناء الأجيال المؤمنة التي استطاعت بايمان الرجال وعزم المسلم الذي لا يلين أن تتسيد صرح الاسلام وأن تقيم الدولة الاسلامية قوية عزيزة ، مهيبة الجانب يخشاها أعداؤها ، ويرهبها كل من يحاول النيل منها . ولم تكن تلك الأجيال قد تخرجت في جامعة ، بل كانت الجامعة والتربية والبناء كله داخل بيت الله ، داخل المسجد الذي كان ملتقى للفكر ومكانا للدرس ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « **انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** » (٣) .

وقال تعالى : « **قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون** » (٤) .

وكأننا بهذه الآيات أمام هدف أسمى للمسجد هو التوحيد والوحدة ، وتوحيد الله ، والوحدة اليمانية التي تنعكس على المسلمين ، وهم على قلب رجل واحد ، يتجهون الى الله في وقت واحد ، وصف واحد ، وموقف واحد ، أمام رب واحد ، الكل أمامه واحد ، لا فضل لأحد على أحد فالدين عام وشامل ، والرب حاكم وعادل .

وهكذا تلمح المصبغة الروحية التي يكتنفها المسجد ، ويتنسم رحيقها المسلم كل يوم خمس مرات .

ولا شك أن هذا الزاد الروحي ، حين يلقي نسماته على المسلم يزيح من وجهه كل كوابيس الأرض ، وينزع عنه لباس الخوف والفرع ، ويصبح المسلم في مأمن لأنه مع الله « **فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** » (٥) .

(٣) النوبة : ١٨ — وانظر : د. سعيد اسماعيل على ، معاهد التعليم الاسلامي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٩٦ — ١٢٢
(٤) الاعراف : ٢٩ . (٥) غافر : ١٤ .

هذه اللمسات الروحية ، بالاضافة الى الجوانب التربوية الأخرى التي سبق الحديث عنها ، تقلصت أو كادت مع مرور الزمن ومع ظهور يدائل أو وسائط تربوية جديدة ، أدت الى ظهور معوقات حدثت من أداء المسجد لدوره التربوي .

* * *

ثانياً — المسجد وظروفه الراهنة :

* أسباب تقلص دور المسجد الرائد :

ربما كان من أسباب تقلص دور المسجد التربوي ، ظهور المدرسة الإسلامية التي تمكنت من دراسة العلوم التجريبية والتي تحتاج الى معامل خاصة ونظام معين قد لا يتسع له المسجد . وتألفت الوسائط التربوية بمؤسساتها المختلفة ، والتي تمثلت في المدرسة والجامعة ووسائل الاعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز ، الأمر الذي أوجد الكثير من نوافذ المعرفة ، والتي أطلت على الانسانية بكثير من الفكر المستورد ، والتيارات المنحرفة والتي لا تتناسب مع مفاهيم الفكر الإسلامي والتربية الإسلامية في كثير منها ، ومن هذا المنطلق ، وعن طريق تلك الوسائط التربوية الحديثة والتي جاءت في معظمها على نهج غير إسلامي ، سادها التقليد السافر للفكر الغربي فيما يتعلق بالكثير من الأنماط التربوية وبنينا وأصبحنا وقد اختفى الكثير من القيم الإسلامية الخلاقة ، والأسس التربوية السلمية في المنزل والشارع وأماكن العمل ، وازمحط بالتالي الدور التربوي للمسجد ، خصوصاً في ظل الاعداد المتواضع للدعاة والخطباء في المساجد ، الأمر الذي ترتب عليه أنصراف الكثير من المسلمين عن المسجد ، أو بالأحرى عدم تعليق الكثير من الآمال التربوية على المسجد .

* آثار انحسار دور المسجد القيادي :

وبهذا الشكل اقتصرت وظيفة المسجد الآن في كثير من بلاد الاسلام على تأدية الصلوات ، واعطاء بعض دروس الوعظ التي تأتي في الكثير متناثرة وغير هادفة أو مترابطة ، وكان من ثمرة ذلك أن انتشرت كثير من العادات السيئة ، والمستجلبة من وسائل الاعلام الحديثة ، فانطمست قيم أخلاقية كثيرة ، وسادت صفات أخرى ذميمة وممقوتة ، ولا شك أن هناك صيحة تعلو الآن تنادي بأن يعود للمسجد الدور القيادي

التربوي ، وقد تنجح هذه الاجتهادات أحيانا ، خصوصا مع توفر
الامكانيات وصدق النية لله رب العالمين ، ولكن لا يخلو الامر من الحاجة
لبذل المزيد من الجهد للتعرف على كيفية استعادة المسجد لدوره
التربوي في العصر الحديث .



ثالثا — أسلوب ونمط الدور التربوي للمسجد في العصر الحديث :
حتى يعود للمسجد دوره الرائد :

تسعى التربية دائما الى تحقيق النمو الكامل والمستمر للفرد ،
ليتمثل الجوانب البدني والاجتماعي والخلقي والثقافي ، وحتى يستعيد
المسجد دوره ازاء هذه الغايات فلا بد من توفر العناصر التالية :

وضوح الأهداف التربوية للمسجد في فكر الأئمة والخطباء
للمساجد وهذه الأهداف لابد أن تنطلق من منطلقات اسلامية ، وتعتمد
على فكر اسلامي مستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله
عليه وسلم ، قال تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه
يسبح الله فيها بالغدو والآصال » رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن
ذكر الله واقام الصلاة وابتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب
والأبصار » تيجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله
يرزق من يشاء بغير حساب » (٦) . وتتلخص أهداف المسجد التربوية في :

(أ) : اعداد الفرد المسلم الصحيح البدن الجيد الخلق السليم
القلب المثقف بالفكر الاسلامي الخالص والمتسم بالكمال الانساني .

(ب) : بنية المسجد ورسمه وتخطيطه يجب أن تنهج منهاجا جديدا ،
يعطي احتياجات بناء الفرد المسلم ومن هنا يجب أن يعد المسجد في
صورته الجديدة ليكون مؤسسة اسلامية تضم قاعة كبيرة للمطالعة ،
مزودة بالكثير من الكتب الاسلامية والاجتماعية والثقافية لتغطي الكثير
من احتياجات الفرد المسلم . كما تضم تلك المؤسسة قاعة كبيرة تمارس
فيها الأنشطة الرياضية للشباب على اختلاف أنواعها بحيث يمكن بناء
المسلم الصحيح البدن ، في ظل الرعاية السليمة الموجهة .

وبهذا نضمن اقبال الشباب على المؤسسة الاسلامية — المسجد —
وقضاء معظم الوقت بداخلها ، مما يؤدي الى وجود خط موازي للوسائل

التربوية الأخرى . والتي بها الكثير من الخلط والتشويش على عقول الشباب .

وبالتابع فالمؤسسة — المسجد — يجب أن تتم فيها اللقاءات والندوات التربوية والاجتماعية في المناسبات المختلفة .

(ج) التمويل الكافي للمسجد في صورته الجديدة ، وذلك حتى يمكن تحقيق الأهداف سالفة الذكر ، ويا حبذا لو وضعت له ميزانية خاصة لها عدة مصادر للتمويل سواء على المستوى الرسمي أم المستوى الاجتماعي والشعبي .

(د) وأخيرا الاعداد الجيد للقادة التربويين من الأئمة والخطباء ، ليكونوا طاقات تربوية موجهة .

ولن يكون ذلك الا حينما تتوفر خطة متكاملة داخل كل دولة اسلامية على حدة ، وداخل كل مجموعة من الدول الاسلامية تتضح فيها الأهداف وتبرز فيها الغايات من وراء رسالة المسجد التربوية في ظل اعداد جيد يقوم عليه أئمة متخصصون .

ولعل من دعائم ضمان الاعداد الجيد للأئمة ، أن تؤسس معاهد خاصة تستقبل حفظة كتاب الله وتقدم لهم تلك المعاهد دراسات دينية ، يمكنهم بعدها مواصلة دراساتهم بنجاح في أقسام الاعداد المختلفة للأئمة والخطباء .

بعد هذا يمكن أن يحقق الدور الذي نيط به ويتمكن من أن يستعيد مكانته الأولى في الأزمان السالفة .

ويصبح المسجد مؤسسة تساهم في البناء الصحيح للفرد المسلم وتتولى علاج المشكلات الاجتماعية والأسرية ومشكلات الشباب خلال الحياة اليومية بالإضافة الى الهدف الأسمى وهو التربية الروحية .

ونحن متفائلون بأن تحقيق هذا سيكون قريبا ان شاء الله تعالى ، فالغيرة متوفرة ، والنية صادقة ، وبعض المؤسسات الاسلامية تبني جاهدة في سبيل هذا ، والله سبحانه من وراء القصد وهو الهادي الى سواء السبيل ، والله متم نوره ولو كره المشركون .



الاعلام ... ودوره التربوى فى مواجهة الغزو الثقافى

لا يستطيع انسان — مهما أوتى من ثقافة — أن ينكر الدور الكبير الذى يقوم به الاعلام فى عالم اليوم كما لا يستطيع أن يتخلص من القراءة أو المشاهدة أو الاستماع الى وسائل الاعلام المختلفة ، فهو تساء أم أبى يتعامل مع هذه الوسائل ، ويحتك بتلك الركائز الثقافية المتعددة •

ومع هذا التطور الهائل ، والتقدم التكنولوجى الرهيب ، تيسر للانسان التعرف على كل ما يدور فوق الأرض ، من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها ، فلم تعد المسافات الشاسعة عقبة فى تسيير الخبر الى أقصى أرجاء المعمورة ، وانما كل ما يمارسه الفرد لا يتعدى ادارة مفتاح صغير ، به ينفتح على كل ما يدور فوق هذا الكوكب من تفاعلات وأحداث وأنباء •

من هنا فلا مناص من الاعتراف بالدور الجوهري الذى يلعبه الاعلام فى حياتنا ، بل هو بحق الصورة التى تعكس كل أوجه الثقافة المتعددة ، والمعارف الكثيرة داخل وخارج المجتمع •

والمجتمع — أى مجتمع — يمكن الحكم على تطوره أو تخلفه ، تقدمه أو تقهقره من خلال ما تقدمه وسائل الاعلام فى ذلك المجتمع ، بمعنى أنه كلما اتسعت برامج الاعلام فيه بالجدية والموضوعية والمسؤولية كلما دل هذا على تقدم المجتمع وتطوره ، والعكس صحيح • وإذا كان هذا المعنى يصدق على الاعلام المحلى داخل المجتمع ، فإن وعي الأفراد ، وتسلحهم بالوسائل العلمية الصادقة ، والثقافة الإسلامية الصحيحة خير موجه لهم ، لتقبل الصحيح من الاعلام الموجه عبر البث الاذاعى الخارجى الذى يأتى عن طريق برامج الاذاعات الموجهة الى عالمنا العربى والإسلامى •

ومما لا شك فيه أن تداول أجهزة الاعلام ، بهذا الكم الضخم ، وتلك الأعداد الهائلة ، واختراقها الى منازلنا وبيوتنا ، سهل أسلوب التعامل مع هذه الأجهزة ، الأمر الذى تطلب الحرص والتوعية خلال التعامل مع تلك الوسائل الاعلامية •

والواقع المر أننا لا نستطيع السيطرة أو التحكم في تلك الأجهزة ،
مما أكد علينا ضرورة التوجيه المبائر وغير المبائر لعقول الشباب
والأطفال ، وتوعيتهم أثناء استماعهم للبرامج من خلال تلك الأجهزة .

ولا نك أن الدين عندما يصبح متعمقا في نفوس الجماهير .
وأحيلا في كيان الشباب والأطفال ، كلما توغل ذلك ، كلما استطعنا أن نأمن
مخاطر البرامج الموجهة الى عالمنا العربي والاسلامى .

ومن الملاحظ أن الاعلام أصبح يشكل قوة فعالة في جميع المجتمعات
غنيها وفقيرها ، عظيمها وحقييرها ، متقدمها ومتخلفها ، كما أنه يتضمن
جميع التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وربما
بتفاوت التأثير والتأثر من جانب الى جانب آخر ، ومع ذلك فيبقى أن
وسائل الاعلام ما زالت وستظل تمثل قطاعا كبيرا وضخما ، يسير جنبا
الى جنب مع وسائر المؤسسات التربوية الأخرى داخل المجتمع .

من هنا بات لزاما علينا اعطاء درجة عالية من الاهتمام بوسائل
الاعلام كاحدى وسائط التربية ، التي تحتاج الى توجيه والى تبصير
وتوعية ، خصوصا مع ما نشاهده في عالم اليوم من القصور الذى
أحاط بالمؤسسات التربوية ، ومنها المدرسة والأسرة وغيرها .. وأيضا
مع ما نلاحظه من أن الاعلام يخاطب الملايين ببرامجه ، مهما كانت طبيعة
هذه الملايين ، مثقفة أو غير ذلك ، واعية بقيمة وفهم الكلمة أم لا ..
ولا شك أن الغزو الثقافى يحاول بثتى الوسائل استخدام الاعلام
في بذر سمومه بين البراعم الغضة من الأطفال والشباب حتى يتمكن
من بليلة الفكر ، وذبذبة الفرد في سبيل قلة ثقته في معتقداته ، ومقدراته
الثقافية والحضارية والدينية .

وهذا الغزو الثقافى يهدف في حقيقته الى فرض فكر غير اسلامى
لمفكرين غير مسلمين ، وذلك عبر نشاطه الاعلامى والتربوى الموجه ،
من أجل التشكيك في صلاحية المنهج الإسلامى كنموذج صالح للمجتمع
عبر برامج اعلامية موجهة هادفة .

والاعلام الإسلامى بما له من رصيد ضخمة وهائل ، قادر على
تنمية قدرات الأفراد في جميع المجالات ، وقادر كذلك على التناسق بين
الفرد وبين عقيدته ، بين الفرد ومجتمعه ، بحيث ينتظم المجتمع ،
وتختفى منه فجوة الخلقة بين الفكر والعمل ، بين النظر والتطبيق.

طالباً يستمد الاعلام مادته ونصوصه من الثقافة الاسلامية ، ومن الفكر الاسلامى •

« ولا تسك أن الفرد — أى فرد — تتناسب قدرته على المعيشة الناجحة فى جماعته مع القدر الذى يحصله من ثقافته • والسبب فى هذا أن الجماعة ليست فى حقيقتها — عندما ننظر اليها بمنظار التربية — ليست الأفراد الذين يكونونها ، وليست الأجيال المتعاقبة عن هؤلاء الأفراد وانما حقيقة الجماعة فى الثقافة التى تتوارثها الأجيال المتعاقبة •

ومن هنا فالأفراد يذوبون فى كل جماعة ، وتبقى الثقافة ، فهى لا تذوب أبداً ، لأنها واجهة الجماعة ومرآتها » •

وبناء على ذلك فان تربية الفرد فى ظل العقيدة الصحيحة المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أمر حتمى يقع على الاعلام المسئولية الكبرى من بناء الفرد المسلم ونموه فى ظل تلك المبادئ السامية ، حتى يستطيع أن يواجه مجتمعه المحلى ، والمجتمع الدولى وأن يتفاعل معهما بما استفاده من ثقافته الاسلامية التى أهدى اليها •

من هنا فالاعلام يتحمل « مسئولية تمكين الانسان المسلم من ثقافة اسلامية صحيحة ، لأن الفرد المسلم اذا تعرض لتربية لم تعطه كل ثقافة مجتمعه أو أعطته صورة خاطئة من هذه الثقافة ، أو تعرض لأن يتربى وينمو بوسيلة ثقافية لجماعة أخرى ، فان ذلك ينعكس على الفرد وعلى الجماعة وعلى التربية فى المقام الأول » •

مصطلحات ومفاهيم

أولا — الاعلام العام :

ويقصد به تزويد الجماهير بأكبر قدر ممكن من المعلومات الموضوعية الصحيحة والواضحة ، وكلمة الاعلام فى حد ذاتها مصاغة من أعلمه بالشيء ، فهو يقوم على مبدأ التفاهم القائم على تنظيم التفاعل بين الناس وتجاوبهم وتعاطفهم فى الآراء فيما بينهم ، والاعلام بهذا يعتبر من الظواهر التى طورتها الحضارة الحديثة وأمدتها بالمواد والامكانيات الهائلة ، بحيث أصبحت تمثل قوة لا يمكن الاستغناء عنها فى عالم اليوم على المستويين الشعبى والحكومى على السواء •

ثانيا - الاعلام الاسلامى :

ويقصد به تكوين رأى عام صائب يدرك الحقائق الدينية ويتفهمها ويتأثر بها فى معتقداته وعباداته ومعاملاته ، بشرط أن تتوفر فيمن يتعرض لهذا الميدان الصفات الدينية والخلقية المتعمقة والواسعة فى الموضوع الذى يتناوله بالكلمة المكتوبة أو المسموعة أو المشاهدة .

وبصفة عامة ، فالاعلام الاسلامى يهدف الى تزويد الجماهير بحقائق الدين الاسلامى المستمد من الكتاب والسنة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من خلال وسيلة اعلامية دينية متخصصة أو عامة .

* * *

* الموقف الحالى للاعلام :

بنظرة متأنية فاحصة لصور الاعلام المتعددة الحالية نلمح أنه يعثر بها القصور وينتابها الخلل فى كثير مما تقدمه ، وما تتعرض له من قضايا وموضوعات ، على جميع الأشكال والتخصصات سواء ما كان منها بالكلمة المكتوبة أو المسموعة أو البرامج المشاهدة .

(١) الكلمة المكتوبة : ويلاحظ أن الكلمة المكتوبة لم تنف ولم تشبع حاجات ومتطلبات مختلف القطاعات من الجماهير ، خصوصا من الشباب والأطفال .

ويظهر هذا بوضوح عندما نلمح أنه لا تنوع فى الأبواب المكتوبة بل هى ثابتة ، لا تلوين فيها ولا تجديد ، بل ربما لا تتاح الفرصة للجيل الصاعد من الشباب أن يدلى بدلوه ، وأن يدخل ميدان الكتابة بنمط جديد ، بهدف التكامل فى البنية الثقافية بين التراث الحضارى ، وبين المكتشفات المعاصرة ، فالأصالة والتجديد ملحان ملحان نحتاج اليهما فى عالم اليوم .

والمشاهد أيضا أن فن الإخراج للكلمة المكتوبة سواء بالصحف اليومية أو المجلات أو الكتب الثقافية ، يحتاج الى إعادة نظر ، فغالبا ما ينحصر الإخراج فى أشكال محدودة لا ينفك عنها ولا يتجاوزها بحال من الأحوال ، الأمر الذى يجبر القارئ على أن يستقى المعلومات من صحف أخرى ، قد تكون خارجية وأجنبية وغريبة عن بيئتنا وغير مستمدة من قيمنا ومبادئنا الاسلامية ، وحينئذ يقع شبابنا فريسة لفكر وافد علينا ، يقتحم دارنا بارادتنا ، أو بالرغم منا ، ظالمنا لم نخرج الصحيفة .

أو المجلة بالشكل الذى يستقطب الجمهور ، ويسيطر على اتجاه الأفراد نحو القراءة .

والملاحظ كذلك أن متطلبات الجماهير لا تجد لها صدى بصورة كاملة خلال الكلمة المكتوبة ، فالشأن فى الكلمة المكتوبة أن تستجيب لحدس ومشاعر الجماهير على جميع المستويات الثقافية لا أن تفرض نوعا معينا ولونا خاصا من ألوان الثقافة .

ومما تجدر الإشارة اليه اختفاء ظاهرة توزيع الأدوار الثقافية بين الصحف والمجلات والكتب ، فلا نلمح بشكل جدى وفعال أبوابا من صحيفه أو أجزاء من مجلة خصصت للشباب أو الأطفال تبحث فى مشاكلهم ، وتتعرف على احتياجاتهم بصورة متكاملة ، تتحرى فيها صدق التعبير ، وتراعى فيها المبادئ والقيم المستمدة من الكتاب والسنة .

(ب) الكلمة المسموعة : بالرغم من المحاولات المبذولة لبث برامج دينية متخصصة فى قضايا الدين عبر اذاعات معينة الا أننا نلمح القصور فى أمور تتركز فى : الازدواجية بين البث الاذاعى للبرنامج العام والبث الاذاعى لأمر الدين ، الأمر الذى ترتب عليه ازدواج وبعثرة للجهود ، وغدت المسألة وكأنها مجرد ساعات تخصص لبرامج دينية فى اذاعة خاصة ، قد لا يتنبه لها قطاع كبير من الجماهير ، فاهيك عن اجتذاب البرامج المنبثة من البرنامج العام والتي تستقطب اتجاه الكثير من الشباب والأطفال . وبهذا خلا البث الاذاعى للبرامج الدينية — من المحطات الخاصة — من تحقيق هدفه بالشكل المأمول ، وهو التوعية الثقافية لأمر الدين والعقيدة الاسلامية للسواد الأعظم من الجماهير المسلمة ، اللهم فيما سوى البعض من الكبار فى السن ، ممن أهلوا أصلا فى أمور الدين .

ومن هنا بات المواطن تستهويه البرامج الترفيهية ، وتسيطر عليه ، مما لا يجده متسعا لاستماع البرامج الدينية المتخصصة .

— لا موازنة بين البرامج الاذاعية ، وبين احتياجات الجماهير والمشكلات اليومية التى تعيشها . فالمواطن فى حاجة الى ما يمس جوهري حياته مباشرة ، سواء فيما يتصل بالجانب النفسى والروحي أو الجانب الخلقى أو العقلى أو البدنى . . الخ .

— ما زال نصيب الشباب والأطفال من البرامج فى حاجة الى جهد وتدريب للتأكيد على دور الشباب من أجل تحقيق النمو الاجتماعى والاقتصادى والحضارى والثقافى .

— البرامج الموجهة الى عالمنا العربى والاسلامى تصاحبها سموم مدسوسة ، بهدف النيل من اسلامنا ومن حضارتنا ومن مقدراتنا ، وبرامجنا الاذاعية لا تعير اهتماما خاصا وبشكل فعال لمواجهة هذه المغالطات ، والرد على تلك الافتراءات والباطيل ، وتشويه الحقائق ، الأمر الذى يربك المواطن العادى ، وقد يقع غريسة لتلك البرامج تحتوويه . وتستولى على فكره ، فيتشكك فى مقدرات أمتة وحضارة بلاده ، ولم يكن ذلك سوى التقصير فى ترك الجبل على الغارب لهذه البرامج المدسوسة والدخيلة على بلادنا .

— ما زالت هناك مجالات كثيرة ، تحتاج الى برامج جديدة تساير الحضارة التى نعيشها ، وتتوازى مع التقدم الصناعى والاقتصادى الذى تعيشه أمتنا الاسلامية ، حتى تستجيب تلك البرامج بشكل مباشر وغير مباشر لحياة المسلم فى عالم اليوم ، وحتى تستقطب جميع الأفراد على جميع المستويات الثقافية والنوعية .

(ج) **البرامج المرئية :** ولا مندوحة من التسليم أن هناك محاولات تبذل من أجل تطوير هذه الوسيلة الاعلامية الحديثة ، التى استقطبت معظم الجماهير من مثقفين وغير مثقفين ، لدرجة باتت الكلمة المكتوبة تعاني من ذرة قرائتها ومن سبر أغوارها . ولا شك أن الجماهير تستهويها الراحة ، فطالما تصل اليها المعلومات بشكل أيسر ، فلا حاجة بها الى بذل الجهد المادى والبدنى فى شراء الكتاب وفى قراءته .

وما دام الحال والشأن كذلك فإن « التليفزيون » يلعب دورا تربويا خطيرا فى العصر الحالى ، ومع ذلك لا يختلف اثنان على أن هناك قصورا يتركز فى أن البرامج التليفزيونية خالية من الكثير من اعطاء النساب القدر المناسب من مناقشة مشاكلهم ، ومن تعرف على ظروفهم خلال المتغيرات الجديدة ، سواء منها ما يرتبط بالأسرة أو العلاقات الزوجية ، أو مشكلات الزواج وما الى ذلك مما لا يمكن فصله عن حياة المواطن . كما نلاحظ أن مشكلات الناس لا بد أن تتضح من خلال برامج تناقش مشكلات الجماهير ، وتستجيب لطرائق حلها بما يتفق ومبادئنا الدينية السمحة . ومما تجدر الإشارة اليه أن بعض برامج « الكرتون للأطفال » خصوصا الأجنبية منها ما زالت تعتبرها شبهات ، وينتابها الخط فيما يتصل بالخيالات غير المعقولة ، الأمر الذى يحتاج الى بدائل متخصصة تتم بمادة علمية صادقة وبصورة كريمة بعيدة عن الايقاع فى الشبهات

أو الانبهار بأمور خرافية تربك الطفل وتوقعه في تشكيك وتنسويش
لا أساس له من دين *

* * *

* طرق العلاج :

وتتركز طرق العلاج في :

أولا : التنسيق بين دور الصحف والمجلات والكتب الثقافية بما
يضمن تحقيق الأهداف المنشودة في بناء المواطن المتكامل علميا وثقافيا
وخلقيا ودينيا * الخ *

ثانيا : تلاشي الازدواجية - بقدر الامكان - بين برامج البث
الاذاعي من البرنامج العام ، وبين البث الاذاعي من المحطات المتخصصة
في البرامج الدينية * وهذا يتيح الفرصة لتوحيد برامج دينية كثيرة
بحيث يمكن ضمان الاستماع اليها لقطاع كبير من المستمعين *

ثالثا : استحداث بدائل لبرامج الأطفال ، بحيث تظهر البطولات
الاسلامية كمادة علمية في قصص مبسطة ، تركز على التراث الاسلامي ،
وتساهم في بناء الشخصية السوية الواعية بالفكر الاسلامي الاصيل *

رابعا : يجب أن تتزامن البرامج المسموعة والمرئية مع الأوقات
التي يستجيب فيها الجمهور للرؤية أو الاستماع ، خصوصا فيما يتصل
بالبرامج المرتبطة بمشكلات الناس ، حتى تتلاشى بعثرة الجهد المبذول
في تلك المادة العلمية المسموعة أو المرئية *

خامسا : ملاحقة الأفكار التي تبثها البرامج الموجهة الى عالمنا
العربي والاسلامي والعمل على تعريضها من الصحة والصواب أولا بأول *

سادسا : النزول الى الشارع وثبني مشكلات الناس وملاحقة
العمل على حلها وعلى علاجها *

سابعا : اشراك الأعلام الجديدة ، والأفكار الجديدة بالكلمة المكتوبة
والمسموعة والمرئية *

* * *

• المدرسة ... ودورها التربوي في مواجهة الغزو الثقافي

المدرسة والمجتمع متلازمان رقيقا وتخلفا ، تتقدما وتأخرا ، تطورا وجمودا . فحيثما يكون مستوى المجتمع يكون مستوى المدرسة ، وحيثما يكون مستوى المدرسة يكون مستوى المجتمع ، فمن وظائف المدرسة أنها تعمل على زيادة كفاية المجتمع وفاعليته ، في معركة الصراع والتنافس الثقافي ، الذي بلغ ذروته في عصرنا الراهن ، وبات مؤكدا أن كل صراع بين الجماعات البشرية ، إنما هو صراع بين ثقافات ، وحضارات وطرق حياة •

وإذا كانت معظم العلاقات الدولية ، والعلاقات الخارجية بين المجتمعات ، لا تخلو من لون التنافس والصراع الثقافي ، فإن واجب المدرسة تزويد الجيل الناشئ بأدوات هذا الصراع ، سواء منها الزراعية أو الصناعية أو الأيديولوجية أو الجغرافية ، وقبل هذا وبعده الدينية •

هذا وإذا تأكد لدينا أن المؤسسات التربوية والتعليمية ، وعلى رأسها المدرسة ، لم تسلم من هذا الغزو الثقافي ، بل كرس هذا الغزو حملاته وجهوده ، لعذر تلك السموم بين البراعم الغضة ، حتى يمكن تطعيم هذا الجيل بفكر ملوث ، يهدف إلى بلبلة الفكر ، وذبذبة الفرد من أجل زعزعة ثقته ، في معتقداته ومقدراته الثقافية والحضارية •

أقول : إذا كان ذلك كذلك ، فما هو واقع المدرسة الحالية في المجتمع الاسلامي ؟ ثم كيف تسلك هذا الغزو الثقافي الى المدرسة في المجتمع الاسلامي ؟ وهل المدرسة في المجتمع الاسلامي قادرة على مواكبة روح العصر في ميادين العلم المختلفة ؟

ثم هل المنهج في صورته الحالية ، يتيح الفرصة لبناء العقلية الابتكارية المبدعة ، القادرة على الصمود في وجه التيارات الالحادية الهدامة ؟ وهل المعلم في المدرسة مهيا نفسيا وعلميا وتربويا وخلقيا ودينيا لتحمل مسؤوليته في بناء الفرد المسلم ، المتسلح بمفومات الثقافة الاسلامية ، القادرة على مواجهة التيارات الالحادية الهدامة ، والغزو الثقافي الخطير ؟

ثم هل تلميذ المدرسة الحالي قابل ومهيأ لتحمل دوره في المستقبل ،
سواء في جانب الفكر والنظر ، أو الابداع والابتكار ؟
لا شك أن المدرسة في مجتمعاتنا الاسلامية ، وفي صورتها الراهنة
تحتاج الى مراجعة للبرامج والمناهج ، وطرق التدريس ، حتى يمكنها
أن تواكب العصر وتسير التقدم .

* * *

أولاً - وصف عام لطبيعة المدرسة وأهدافها في العصر الحالي :

يغلب على طبيعة المدرسة في عصرنا الحالي أسلوب التلقين ،
الذي يعنى فرض وجهة نظر معينة على التلاميذ ، دون السماح لهم في
غالب الأحيان بمناقشة وجهات نظر أخرى ، كما يعنى التلقين أيضاً محاولة
التركيز على نقل المعارف والتراث ، كما هو من أجل المحافظة عليه
والبقاء له على مر الأجيال والدهور .

من هنا فلم يكن هناك من هدف للمدرسة الحالية ، سوى أنها
مكان لتلقى مجموعة من العلوم والمعارف ، وتحفيظ المتعلمين لها ، دون
الاهتمام بالجانب الابتكارى أو الابداعى ، اللهم فيما عدا العلوم العلمية
التي تحتاج الى جهد جهيد من أجل الوصول بها الى تحقيق أهدافها
البحوثية .

وعموماً فلقد باتت أجل اهتمام المدرسة ، وخصوصاً في المرحلة
الابتدائية منصبا على التخلص من الأمية ، للسواد الأعظم ، في بلاد
المجتمعات الاسلامية ، وخصوصاً الفقيرة منها . وإذا صح أن بعض
تلك المدارس تولي وجهتها لسطر المواد الدراسية الأساسية ، فإنها لا تعدو
أن تكون لمبادئ أولية في الحساب ، ومختارات معينة من القرآن الكريم
والشريعة النبوية ، والأحاديث ، وبعض الدراسات في الأخلاق الاسلامية ،
والتواريخ والمخاضات السياسية .

وحتى في المدارس الدينية - المعاهد المتخصصة - نجد منهاجها
قد تقلصت ، لتعتمد محصورة في علوم الدين : من فقه ، وتفسير ،
وعقيدة ، وعلوم اللغة العربية ، دون ما ارتبط كبير بالمواد العلمية ،
المرتبطة بالمفاهيم العصرية ، والنظريات العلمية الحديثة ، الأمر الذي
ترتب عليه عزل خريجى هذه المدارس عن الفكر المعاصر ، وبالتالي
حصرتهم داخل نطاق محدود ، سواء في دور العبادة أو المؤسسات
الدينية الضيقة .

من هنا بات التباين واضحاً بين نمطين من التعليم : التعليم الدينى والتعليم المدنى وغدا معظم طلاب العلم ، وأولياء الأمور ، يجنحون الى الدفع بأبنائهم وينسأتهم الى التعليم المدنى ، حتى يتخلصوا من هذا الحصار المضروب عليهم .

ولا شك أن هذه النتيجة كانت النمرة ، التى تمخضت عن الغزو الثقافى للمجتمعات الاسلاميه . وهذا مما يلقي بالتبعية علينا ، من أجل تبين كيفية تسلل ذلك الغزو الثقافى الى مدارسنا ، فى المجتمعات الاسلاميه ، وكيف أنه لعب هذا الدور الخطير ، فى ارساء دعائم التعليم ، بصورة ازدواجية : دينية من جهة ومدنية من جهة أخرى ، فى حين لم يسلم كلا النظامين من قصور فى الأهداف ، والمناهج ، وطرق اعداد المعلم ، ونوعية التلميذ .

وإذا كنا قد ألمحنا الى ذلك فى التعليم الدينى ، فإن التعليم المدنى لم يكن أكثر حظاً من التعليم الدينى ، حيث خلا فى كثير من مناهجه ، من الجانب الروحى ، والعقائدى والفكرى ، بل وحتى الابتكارى والابداعى ، وما جاء مشتملاً على ذلك فلا يتعدى القشور التى لا تستقر فى ذهن المتعلم ولا تستنكن فى قرارة نفسه .

وإذا جاز لنا أن نقول : ان بعضاً من بلاد العالم الاسلامى ، خصوصاً التى انجلي عنها الاستعمار ، قد سعت وجدت فى تطوير مناهجها ، واضفاء مزيد من التعديلات والتتقيحات على تلك المناهج ، حتى تغدو متلائمة مع البيئته المسلمة ، إلا أنه وحتى الآن ما زالت هناك ثغرات بتلك المناهج ، خصوصاً ما يرتبط منها بالجانب الروحى والدينى والعقائدى وينحصر ذلك فيما يلى :

(ا) ضيق المعرفة التحصيلية ، حيث أن ما يقدم خلال المراحل الدراسية ، لا يحقق الهدف المنشود ، مما ينتج أفراداً قليلي المعرفة خصوصاً فى الجانب الدينى .

(ب) اعتماد كثير من المدرسين على أسلوب التلقين ، وهو أسلوب لا يؤثر كثيراً فى نفوس التلاميذ ، ولا يجذبهم الى الدرس .

(ج) قصور بعض المناهج الدينية عن دراسة الشخصيات الاسلامية المشتمة بالأخلاق الحميدة .

(د) اقصام معلمين غير أكفاء لتدريس المواد الدينية .

(هـ) ضيق الوقت المخصص لتدريس المواد الدينية المرتبطة بالعقيدة ، فهو لا يتعدى ساعة أو ساعتين أسبوعياً ، بينما يبقى الامتحان فيها زهيناً بالتأرجح بين الالغاء والابقاء ، وأن أجيز الامتحان فلا تضاعف درجته الى المجموع ، هذا في الوقت الذي يستغل فيه أحياناً وقت التربية الدينية لاستكمال تدريس مواد أخرى^(١) .

وهذا أمر يثرثب عليه انصراف الكثير من التلاميذ عن هضم تلك المواد التي هي الركيزة الأساسية في بناء الفرد المسلم ، لان الاسلام حينما يهتم بتربية الفرد ، فانه يعتمد في ذلك على ما يتيح للفرد من نصوص في العقيدة ، ومن هدى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خبرات تحيط به ، يكتسب من خلالها مواقف في الحياة تهديه الى اقوم السبل ، وتساعد على أن يهضم ثقافته الاسلامية .

والفرد لا يتمكن من النمو نمووا حقيقيا الا اذا استطاع أن يواجه البيئة الطبيعية والاجتماعية وأن يتفاعل معها في ظل من ثقافته الاسلامية التي اهتدى اليها .

ثانياً - كيف تسلك هذا الغزو الثقافي الى المدرسة في المجتمع الاسلامي ؟

١ - **المنظور التاريخي :** ويرجع ذلك الى الاستعمار الغربي ، الذي احتل كثيراً من بلاد العالم الاسلامي ، وما تعرضت له تلك البلاد من الحروب والغزوات العسكرية .

ومع تخلص الكثير من تلك البلاد من هذا الغزو العسكري ، الا أنها لم تسلم من الخضوع لغزو أعظم وأشد ، وهو الغزو الفكري ، الذي جاء من أبواب متفرقة ، وبأساليب مختلفة ، والذي ساد معظم بلاد المجتمع الاسلامي .

ولما كانت المدرسة هي أخصب مرتع لنشر ذلك الفكر الوافد ، فان المناهج قد شحنت وأدخل عليها ، أفكار وآراء ، وتيارات ملوثة لبثها بين الطلاب والطالبات .

ولقد بدا ذلك واضحاً في كثير من البلاد الاسلامية ، ومنها سوريا ومصر وغيرهما ، يقول ساطع الحصري في تقريره عن مناهج التعليم

(١) محمد عبد القادر أحمد ، طرق تعلم التربية الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

في سوريا : « ان النظم المعديدة التي وضعت في سوريا في عهد الانتداب الفرنسي انما وضعت تنفيذا لسياسة مرسومة بوضوح واتقان .
 ويستطيع أن نقول ان غاية هذه السياسة ، كانت تأمين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية ، على معارف البلاد سيطرة مطلقة ، من غير التفات الى ما تتطلبه التربية السليمة والعلم الصحيح » (١) .
 ولم تكن مصر بأفضل حالا من سوريا ، فلقد كرس الاستعمار البريطاني حملته الهائجة ضد مناهج التعليم فيها ، بل ان الاستعمار البريطاني عمد الى اخراج « القسيسين » لتلويب « من مجاله الديني الكهنوتي ليصبح مستشارا لمناهج التعليم ، حتى يتمكن من تجريد الثقافة والمناهج التعليمية من كل شيء يسمى بالاسلام أو التربية الاسلامية » (٢) .

وفي هذا الاطار ظلم الدور الذي قام به الاستعمار ، من العبث في مناهج التربية في بلاد العالم الاسلامي ، متمثلة في تنحية القرآن الكريم والتاريخ الاسلامي من مناهج المدرسة الابتدائية ومن هنا تخرجت أجيال مضطربة ، مادية الأغراض ، مزعزة العقيدة (٣) .

٢ — اتحام مفاهيم جديدة على الاسلام : وذلك بادخال أفكار وثقافات بعيدة عن العلوم المسادية البحتة ، لأنها علوم تخضع للتجربة المسادية . وفرصة التزييف فيها معرضة للفشل ، بالاضافة الى أنها لا تمس المفهوم الاسلامي الصحيح .

من هنا لم يجد الاستعمار الفكري مناصا من بذر أفكار وثقافات تمس المفاهيم الاسلامية ، بحيث تنهيا الظروف الملائمة ، والوسائل الكفيلة بمزاحمة المفاهيم الاسلامية لتحل محلها .

وعلى هذا برزت علوم تتصل بحكمة الوجود ونشأته ، ومضير الحياة ومضير الانسان بعد هذه الحياة . وكلها علوم بعيدة عن التجربة .

(٢) محمد امين المصري ، المجتمع الاسلامي ، دار الارزقم ، الكويت ، ط (١) ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
 (٣) محمد محمود الصواف ، المخططات الاستعمارية لكافة الاسلام ، دار الاعتصام القاهرة .
 (٤) محمد منير مرسى ، التربية الاسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

ويمكن بطريقة أو بأخرى أن تمس العقيدة الإسلامية والمفاهيم الإسلامية التي تدور في هذا الإطار ..

ووفق هذا الاتجاه دخلت جملة من العلوم : كعلم النفس وعلم الاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وعلم الاقتصاد ، وعلم السياسة .. ومن شأن هذه العلوم أنها قادرة على بليلة فكر الشباب المسلم ، وغزو عقله ، خصوصا بما استحدثته تلك العلوم ، من بعض الحقائق الظاهرة ، التي تخضع للتجربة والملاحظة ، والتي ليس بمقدور الإنسان أن يحرفها عن موضعها الذي وصلت إليه بالبرهان والدليل .

هذا ولم يتورع الغزو الثقافي من إثارة الشبهات حول مفاهيم الإسلام ، بل الأدهى وأمر من ذلك أنه شكك في بعض النصوص المشتبهة في مضمونها على هذه المبادئ وتلك المفاهيم (٥) .

٣ - الترويج بأن الثقافة الإسلامية عاجزة عن مسايرة ومواكبة العصر :

وهدف هذه الوسيلة ، تنفير الجيل المسلم الناشئ من العلوم والثقافة الإسلامية ، بدعوى أنها عقيمة غير منتجة ، وبالتالي غير صالحة لمسايرة معارف العصر ومواكبة الثقافة الغازية .

ومن هنا غلقد ناهض هذا الغزو الثقافي المعارف الإسلامية ، وأدخل فيها الشبهات ، وأثار حولها التعقيدات ، في سبيل محاربة الأنشطة التعليمية الإسلامية ، والتي تهدف الى مواجهة كل أنواع الغزو الثقافي الملوث .

وفي هذا الإطار روج الغزو الثقافي ، لتفريغ العقول المسلمة من الفهم الإسلامي الصحيح ، بغية تقبل ما تمليه تلك الفئة الباغية من فكر واغد ، وثقافة ملوثة ، تستطيع فرضها على عقول المسلمين .

كما نلمح أن هذا الغزو ، بالغ كثيرا في الاستهانة والنقد لتاريخ المسلمين ، من أجل تثبيت عنصر استهانة الأجيال المسلمة بحضارتها ، وفقدان ثقافتها في تاريخها (٦) .

٤ - المنح الدراسية : وذلك باستقطاب أعداد كبيرة من المثقفين ، عن طريق المنح الدراسية ، للحصول على الشهادات الجامعية ، وغزو

(٥) عبد الرحمن حسن حنبكة ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها ، ط (٢) ، دار القلم ، دمشق - بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٦) المرجع السابق ، ص ٦١٩ ، ٦٢٠ .

الجامعية ، وهذا بدوره يتيح الفرصة أمام الفكر الغازي ، حتى يصير
دما يسرى في عروق السواد الأعظم من هؤلاء الدارسين ، الذين يتوقع
أن يكون البعض منهم أبواقا لهذا الغزو ، خصوصا عند من سيدير
منهم دفعة التعليم في بلادهم الاسلامية ، أو يمتنن التدريس بالمدارس
في تلك المجتمعات .

٥ — اغراق المكتبة الاسلامية عامة ، ومكتبات المدارس خاصة
بالقصص الأجنبية المترجمة .

وهذا أمر مشاهد في كثير من الكتب القصصية ، التي جاءت في
كثير منها خيالية وبعيدة عن الواقع ، أو بالأحرى عن الدين ، وهذا أمر
بقوى لدى الطلاب الارتباط بالماديات وإهمال الروحانيات تماما .
هذا ولقد اتسمت تلك القصص في معظمها بالخيال ، والبعد عن
الواقعية ، وتلك نماذج من مسميات تلك القصص مثل قصة : الأمير
والضفدع — وقصة جعيدان — وقصة القدر السحرية — وقصة ليلى
الحمراء والذئب . ومنها أيضا قصة بياض الثلج والأقزام السبعة ،
وهذا أمر يندى له الجبين ، وترتعش منه الأبدان ، وينفطر منه القلب ،
اذ كيف يمكن أن نقنع الطفل بأن هذه قصص خيالية ، وأنها لا صلة
لها بالواقع . . !! وهكذا يقع أطفالنا وشبابنا ضحية هذه المجموعات
الكبيرة من القصص الخيالية .

وتلك القصص جاءت ضمن سلسلة « ليديرد بوك ليمتد » وهي
سلسلة انجليزية ، ترجمت الى العربية ، دون أدنى مراجعة أو فحص ،
لاستبعاد الغث منها ، وما لا يتناسب مع القيم الاسلامية ، أو المبادئ
التربوية ، خصوصا مع تلك البراعم الغضة ، والعقول البسيطة ، التي
يؤثر فيها مثل هذا الاتجاه ، ومثل تلك الألوان من الفكر الخيالي ، الأمر
الذي يترتب عليه الانبهار بالخيالات ، والثقة في الجمادات ، وعدم
الارتباط بالقيم والروحانيات ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لتأثير مثل تلك
القصص المهدامة .

٦ — الانبهار بالتعليم الأجنبي : وذلك بجذب قطاع كبير من
الشباب المسلم الى التعليم في مدارس أجنبية ، نيمنا باعتلاء أرقى
الوظائف ، وتباهيا بالتعليم ضمن بنية التعليم الأجنبية بفلسفتها ونظمها
وأيديولوجيتها .

* * *

ثالثاً - طرق العلاج :

إذا كانت التربية في البلاد المتقدمة تكون شخصيات مبدعة ومبتكرة فانها بلا شك خالية من الروح التي توجه تلك القدرات المبدعة ، وتجعلها تلتزم بالابتكارات والاختراعات التي تفيد الانسانية من أجل الخير (٧) . ومع ذلك فان التربية الاسلامية قادرة على الخروج من دائرة التهمة : بأنها تكون رجالا وشخصيات قادرة على الاختراع والابداع والابتكار . كما أنها قادرة كذلك على تكوين رجال قادرين على الاتيان بجديد ، لديهم روح الابداع والابتكار والاختراع ، ولا يقتصرون على الالتزام بالمأضى وبما هو موجود .

كما أن التربية الاسلامية قادرة كذلك على تنمية الطبيعة الانسانية وتربيتها وتوجيهها ، حتى توجد نوعا من التناسق والترابط بين مكونات الشخصية الاسلامية بصفة متميزة ومتكاملة وقادرة على الابداع والاختراع ، تستطيع صد التيارات الهدامة والغزو الثقافي الموجه . وهذا بلا شك سيحمي الأجيال المسلمة ، من إقتفاء أثر الغزو الثقافي والسير خلفه شبرا بشبر في جميع المبتكرات والاختراعات التي تغزو بلادنا بشرها وخيرها ، وحابلها ونابلها دون تمييز أو حماية للمجتمعات الاسلامية (٨) .

ووقتها يمكن للعقول المسلمة أن تفتنح بأن الاسلام هو دين علم وتقدم وحضارة ، بالإضافة الى أنه دين أخلاق وعقيدة .

هذا ويمكننا أن نحدد أساليب العلاج في الأمور التالية :

- ١ - إضافة مواد علمية جديدة ، تكون أداة من أدوات الدولة الحديثة في المجتمعات الاسلامية ، وأساسا يقوم عليه امتداد العملية التربوية لتشمل الفكر والمهارات والخبرات المختلفة والمتباينة . وهذا يعني تدعيم برامج التعليم بمواد ابتكارية وابداعية وتكنولوجية من أجل تكوين الفرد المسلم الحر المبتكر المبدع .
- ٢ - استخدام أحدث الطرق التربوية في التدريس ، والتخلص من الأنماط التقليدية في العملية التعليمية .

(٧) مقدار بالجن ، التربية الابداعية في ضوء التربية الاسلامية ، الفصيل - مجلة ثقافية شهرية - العدد ٦٨ (صفر سنة ١٤٠٣ هـ - ديسمبر سنة ١٩٨٢ م) .
(٨) المرجع السابق .

٣ — الاعداد الجيد للمعلم علميا ومهنيا ، ونفسيا وخلقيا ودينيا .
واتركيز على طرق انتقاء المعلمين ، الذين تتوفر لديهم الرغبة الذاتية
الأكيدة للعمل في مهنة التدريس .

٤ — اثاحة الفرصة أمام الطلاب والطالبات ، وذلك باعطائهم
مجالات علمية واسعة ، حتى يستطيعوا أن ينتقوا منها الاتجاهات التي
يفضلونها ، وتناسب مع قدراتهم وميولهم ورغباتهم .

٥ — وضع المناهج وبرامج التعليم ، بشكل يضمن الاستغناء عما
هو سائد في مدارس التعليم بالخارج وخصوصا ما يتعلق منها بالفلسفات
والأنظمة والايديولوجيات ، وهذا حتى نأمن الانبهار بتلك الاتجاهات
أو مسابقتها .

٦ — تكثيف الجهود الفردية والجماعية ، عن طريق المؤسسات
التعليمية ، ومراكز البحوث العلمية ، من أجل كتابة مجموعات ومسلسلات
من الكتب والقصص الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ،
بحيث تكون مشوقة وجذابة تنبثق من إطار الاسلام ، وترتبط به من
جهة ، كما ترتبط بروح العصر ومقدراته من جهة أخرى .

ووقتئها نستطيع أن نقول : انه لا خوف على شبابنا أو فتياتنا
من الغزو الثقافي حتى ولو ملئت فجاج الأرض أفكارا مختلطة أو ثقافة
ملوثة . ووقتئها تكون المدرسة قد أدت دورها في مواجهة هذا الغزو
الثقافي للمجتمع الاسلامي « ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى
عزيز » (١) .

* * *

الصدق .. وأثره التربوي في المجتمع المدرسي

مما لا شك فيه أن بناء المدارس ، وتشبيد المؤسسات التربوية يستتعي مراحلها المختلفة هدف رئيسي ، تسعى كل المجتمعات — على وجه التقريب — إلى تحقيقه .

والهدف الأسمى من بناء تلك المدارس ، ليس هو البنية الظاهرية ، المكونة للعملية التعليمية ، بل يكمن الهدف الرئيسي والأساسي في تحقيق المساهمة الفعالة نحو ترسيخ وتدعيم القيم التربوية .

وتقاس استجابة الدول لعوامل التطور والتقدم الحضاري والتكنولوجي بمدى قدرتها على تحقيق الرخاء وبناء الانسان المتكامل نفسيا واجتماعيا وثقافيا وروحيا ، ومدى قدرة المدرسة على تطبيق وتحقيق هذا الهدف .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا :

كيف يمكن أن نحكم على نجاح العملية التربوية والتعليمية ؟

ثم ما هو المعيار الصادق لتحقيق هذا النجاح ؟

وأيضاً هل يمكن النجاح التربوي في تخريج أفواج ضخمة من المتعلمين يصرف النظر عن تكوينهم الخلقى الكافي ؟

هذه التساؤلات التي ينبغي أن يدعى أن يجاب عنها سوف يكثف الاجابة عن كل هذه التساؤلات !! فهي دقيقة وعميقة وواسعة ، حيث ان المبادئ التربوية تحتوى على الكثير مما لا يتسع له المجال هنا ، فهناك الصدق ، والأمانة ، والاعتدال في الانفاق ، والحيثية ، والمحافظة على المرافق .. وغير ذلك الكثير العزيز الذي اتسعت له المبادئ التربوية في الاسلام .

غير أننا سوف نركز هنا على مبدأ واحد ، هو الصدق حيث انه يمثل من وجهة نظرنا حجر الزاوية في العملية التربوية ، بل في بناء المجتمع ككل .

هذا وسنتناول معالجة هذه القضية على النحو التالي :

أولاً : مفهوم الصدق .

ثانياً : الصدق في القرآن والسنة .

ثالثاً : الصدق في الوسط المدرسي .

- رابعا : صور من آثار الكذب المدرسى
- خامسا : أساليب العلاج

* * *

أولا — مفهوم الصدق :

يعرف الصدق على أنه : « قول الحق ، وبأنه القول المطابق للواقع والحقيقة »^(١) كما يعرف على أنه « التعبير للحقيقة أيا كان لون التعبير » بالقول أو بالحركة أو بالإشارة أو بتأليف الكتب ، وما الى ذلك . فإذا كان التعبير عن الذات ، وجب أن يكون مطابقا لما يدور في النفس ، وإن كان التعبير عن أمر خارجي ، وجب أن يكون مطابقا له دون زيادة أو نقصان ، لأن المبالغة والزيادة كذب ، والنقصان اجفاف وبخس وهو كذب أيضا^(٢) .

وأي مجتمع من المجتمعات لن يكفل له الاستقرار والاطمئنان ، إلا اذا ساد الصدق بين أفرادها ، وانتشرت معدلات الاخلاص والثقة ، فتصاعدت انتاجية المجتمع ، ناهيك عن الثقة العالمية والدولية .

ثانيا — الصدق في القرآن الكريم والسنة :

جاء الصدق ومشتقاته في القرآن الكريم ، في أكثر من مائة وخمسين موضعا . جاء بصيغة الفعل قال تعالى : « قل صدق الله ، فأتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين »^(٣) . كما جاء بصيغة اسم الفاعل قال تعالى : « واذكر في الكتاب اسماعيل ، انه كان صادقا للوعد وكان رسولا نبيا »^(٤) وجاء أيضا بصيغة المبالغة ، قال تعالى : « وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام »^(٥) . كما جاء أيضا بصيغة الاستفهام ، قال تعالى : « قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين »^(٦) .

هذا وقد جاء وصف الأنبياء بالصدق في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، فقد جاء في شأن ابراهيم عليه السلام قوله تعالى :

-
- (١) عبد الرحمن الميداني ، الأخلاق الإسلامية وأسسها ، دار القلم ، بيروت - دمشق ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ج ١ ، ص ٤٧٩ .
- (٢) مقداد يالجن ، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ص ٢٨٠ .
- (٣) آل عمران : ٩٥
- (٤) مريم : ٥٤
- (٥) المائدة : ٧٥
- (٦) النمل : ٢٧

« واذكر في الكتاب إبراهيم ، أنه كان صديقاً نبياً » (٧٧) وجاء في سأن ادريس عليه السلام قوله تعالى : « واذكر في الكتاب ادريس ، أنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً » (٧٨) * وغير ذلك كثير في آيات القرآن الكريم .

وهذا وقد وردت أحاديث كثيرة تحت على التمسك بالصدق وتدعو اليه ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » متفق عليه * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » متفق عليه * وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تحروا الصدق وان رأيتم الهلكة فيه ، فان فيه النجاة » * وأحاديث كثيرة أخرى لا يتسع لها المجال هنا .

ثالثا — الصدق في الوسط المدرسي :

لا شك أن توفر الصدق في جو المدرسة سوف يكون حافزا ايجابيا للعمل ، فمدير المدرسة الذي يتوفر لديه الصدق ، سوف يقبل على العمل بروح طيبة ينعكس أثرها على أسرة المدرسة بكل من فيها من العاملين سواء منهم المدرسين أو التلاميذ أو الموظفين والاداريين * وعكس ذلك حينما يسود جو المدرسة الكذب ، فان هذا ينعكس على عزوف الكثيرين عن العمل ، وانعدام الرغبة أو الميل اليه * هذا ، واذا صح أن المعلم هو حجر الزاوية في العملية التعليمية ، فان عليه تقع تبعه انتشار الصدق في ربوع المدرسة * وبمقدار ما يتمتع به المعلم من الصدق ، بمقدار الفائدة التي تعود على التلميذ من جهة ، وعلى المجتمع ككل من جهة أخرى * من هنا بات الصدق من أهم الصفات التي يجب توفرها في المعلم الجيد والتلميذ يقلد أستاذه ، ويرى فيه نفسه ، ويؤكد فيه ذاته ، وكلما اعتمد أسلوب المعلم مع طلابه على الصدق ، كلما استطاع غرس تلك الصفة في الطلاب حتى تصبح خلقا فيهم *

رابعاً — صور من آثار الكذب في المدرسة :

توجد مجموعة من الآثار السلبية للكذب ، تنتشر في الوسط المدرسي ، ويترتب عليها الكثير من تفشى الصفات السيئة وتعمقها في نفوس الطلاب ، من هذه الآثار :

(أ) الهروب من المواجهة ، فالطالب حينما يكلف بإجابات مدرسية أو أعمال غنية لصالح المدرسة سواء داخل الفصل أو خارجه ، أو حتى أثناء القيام بالرحلات المدرسية ، فانه يميل الى الهروب من المواجهة ولا يستطيع أداء الواجب لذاته ، فيلتمس الأعذار بثتى السبل والوسائل مما يغرس فيه الاتكالية والهروب ، وأثر هذا في تكوين الشخصية سييء وممقوت خصوصا حينما يشب الفرد المتعلم فيجد نفسه سلبيا في جميع المواقف ، ويصبح شخصية تابعة ، بل ممتهنة لا يعتمد عليها ولا يوثق بها .

ولم يكن ذلك بهذا الشكل الا نظرا لممارسته الكذب حتى صار صفة متمكنة في كيانه .

(ب) الاهمال في أداء العبادات سواء منها الصلاة أو الصيام أو غيرهما ، صفة سيئة أخرى يمكن أن تنمخض عن الكذب ، فإذا سئل الطالب عن أدائه للعبادات أجاب بالاثبات وهو كاذب في دعواه . وهذه بلا شك من الصفات الممقوتة التي تحقق البركة من حياة الفرد ، ويترتب عليها تفشى صفة الرياء قال تعالى : « **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** » (٩) . وما لا شك فيه أن هذا الاهمال للعبادة يترتب عليه استمراء الطالب لارتكاب كثير من المخالفات ، وقد يجره هذا الى ارتكاب الكثير من المعاصي نظرا لأنها قد أصبحت مألوفا لديه ، مستساغة من وجهة نظره وهكذا .

(ج) الغياب : وهذا هو بيت الداء يل هو حجر الزاوية في تفشى صفة الكذب ، حيث ان الطالب يكذب على الأسرة حينما يوهمها بالذهاب الى المدرسة ، ويكذب على المدرسة حينما يتلمس الأعذار عن أسباب الغياب ، وليس الغياب في حد ذاته هو المشكلة ، بل ما يترتب عليه من ممارسات تجر الى مالا تحمد عقباه .

(٩) النساء : ١٤٢

والظواهر التي ترتبت على الغياب تكمن في :

ترب الدخان مع جماعة الرفاق ، وبطبيعة الحال يصحب ذلك الكثير من المخالفات الأخرى ، منها لعب الميسر .. وهكذا تنفتق تلك الأوزار بين جماعة الرفاق حتى تصبح غير قابلة للعلاج .
والمدرسة التي لا تلتزم أولياء الأمور بضرورة الحضور الى المدرسة وإبداء المرنّيات حول سلوكيات أبنائهم ، انما تكون بذلك قد حادت عن الجادة وقد قصرت تماما نحو تربية أبنائها ، وبالتالي نحو المجتمع الذي توجد فيه .

(د) اهمال الواجبات المدرسية : تشيع هذه الصفة بين الطلاب ، ويكذبون على المعلمين ، ويدعون الكثير من المعاذير ، وطالما هم كذلك ، فانهم يملأون فراغهم داخل الفصل بأمر آخر تضر بالصالح العام لمصلحة الطلاب جميعا ، من ذلك مثلا : فقد احترام المعلم ، وعدم الاكتراث بما يأمرهم به من واجبات ، والتهاون في أدائها ، وأيضا يفقد المعلم السيطرة على الطلاب داخل الفصل ، بل ربما تنفثى ظاهرة الاهمال حينما يلمح الطلاب تهاون المعلم مع الطلاب المهملين الذين يستخدمون الكذب لهم مخرجا من المواقف الحرجة خصوصا ما يتعلق بالواجبات المدرسية ، وهذا في حد ذاته يؤدي الى التهاون في التعليم ، والتقليل من شأنه في الوسط الطلابي .

(هـ) . الحقد على المجتمع : مما لا شك فيه أن صفة الكذب ، تؤدي بالمفرد في النهاية الى الحقد على المجتمع ، لأن النتيجة النهائية للطلاب الكاذب الفشل في التعليم ، وبالتالي الفشل في الحياة ، ويخرج الى الوسط الاجتماعي مملوءا بالحقد والعدوان والميل الى ارتكاب المخالفات .

خامسا - أساليب العلاج :

تكمن أساليب العلاج في معلم المدرسة ، وكيف يمكن أن يتحلى بالصدق حتى يكون خلقا فيه ملازما له .. وأتقان المعلم لدرسه وضبطه وسيطرته على الفصل ، وحزمه مع التلاميذ وعدم التهاون في أداء الواجبات ومعرفة بعلم نفس الطقولة والمراهقة ، كل هذه جميعا من متطلبات ترسيخ الصدق عند التلاميذ .

ولا شك أن انتقاء المعلمين وحسن اختيارهم ، والقدوة الحسنة التي يتمتعون بها ، انما يترتب عليها تقليد الطلاب لهم وجعلهم المثل

الأعلى لسلوكهم خصوصا أثناء النشاطات التي يقوم بها المعلمون ،
والعلاقات الانسانية الصادقة التي تتسم بها الروح الجماعية ، فلا يتميز
طالب على آخر ، الكل أمام المعلم سواء في المعاملة .. وهكذا .
ولا ندعى أن المعلم وحده هو المسئول عن انتشار صفة الصدق ..
وان كان هو الأساس بل يشاركه مدير المدرسة والعاملون بها .
ولا يمكن أن ننسى الدور الهام للآباء ، فهم بلا شك مشاركون في
هذه العملية ، وعليهم العبء الأكبر لتربية أبنائهم داخل الأسرة .
من هنا فمسئولية المدرسة والأسرة غدت رئيسية حتى تتمكن من
تأصيل الصدق في نفوس الأطفال والشباب ، فيصبح خلقا لهم يتمسكون
به مهما كانت النتائج .
ومدارسنا اليوم في أمس الحاجة أن تتحرى هذا الخلق ، وأن ينتشر
بين ربوعها الفسيحة ، وأن يختفى الكذب من بين شبابها . حينئذ تكون
المدرسة حقا قد قامت بدورها في بناء الفرد المسلم الذي تتوفر لديه
مقومات خلقية قوية .
واذا استطاعت المدرسة أن تؤدي هذا الدور فهي بلا شك ستسهم
في بناء المجتمع ، كما أنها ستخلصه من النفاق والمنافقين ، الذين استمروا
الكذب حتى صار خلقا فيهم ، لأنه يحقق لهم أهدافهم من أيسر وأقصر
الطرق ، مهما كان هناك من مخالفة ومهما كان هناك من تعارض مع المبادئ
والقيم الاسلامية .
والكذب مهما جلب من ثمرة قد تكون سريعة ، فان مصيرها في
النهاية الفشل سواء في الدنيا أو في الآخرة ، ويبقى الصدق دائما صفة
المؤمنين الصادقين . يقول الله تبارك وتعالى : « فمن أظلم ممن كذب
على الله وكذب بالصدق اذا جاءه ، أليس في جهنم مثوى للكافرين .
والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند
ربهم ، ذلك جزاء المحسنين » (١٠) .

* * *

الصيام .. وأهدافه التربوية

* من الأهداف التربوية :

لا جدال في أن الاسلام استهدف سعادة الانسان في الدنيا والآخرة . ولقد كان القرآن الكريم بمحتوياته الدستور الذي تضمن كل ما يسعد البشرية ، ذلك الكتاب الذي فيه من المبادئ والقيم التربوية ما تقف أمامه العقول حائرة ، والأقلام عاجزة عن التصوير . ولا غرو أن نقنطف بعض المبادئ التربوية ، حتى نلمح الى أى مدى كانت العبادات — ومنها الصيام — في الاسلام تسعى الى تنمية تلك المبادئ وصقلها ، كما تسعى الى تثبيتها وتدعيمها .



* التربية الروحية والنفسية :

يسعى الاسلام بتعاليمه الى أن يرتفع بالنفس البشرية فوق الصغائر ، وينأى بها عن الموبقات والشهوات ، ذلك أن النفس لا تذلل لشيء ذلها لشهواتها ، واستجابتها للانغماس في المنكرات والموبقات . من هنا كان حرص الاسلام على أن يبين للفرد المسلم نتيجة حب تلك الشهوات ، وأنها مهلكة ، بينما الاستجابة لداعى الايمان وتقوى الله فيها الخير والنجاة . ويبين الاسلام أن الدنيا في حد ذاتها وسيلة وليست غاية . ولا يليق بالمسلم أن يتمادى في الاستجابة لشهواته فتزل قدمه وينحرف عن الصراط المستقيم . قال تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أُوْنِبْتُكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ويصون من الله ، والله بصير بالعباد » (٢) .

واستمرارا في تهذيب الروح والنفس البشرية ، استهدفت العبادات وعلى رأسها الصيام ، استهدفت صقل النفس وتربية الروح حتى تشف

ونسمو وتعلو فوق الاستجابة للمعاصي والموبقات • قال تعالى :
**« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم
 لعلكم تتقون • أياما معدودات »** (٢) •

وقال تعالى : **« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس
 وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه »** (٣) •

وقال تعالى : **« وإذا سألك عبادي عنى فانى قريب ، أجيب
 دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »** (٤) •
 وتتفق هذه الآيات فى مجملها على أن التقوى والهداية وطلب الرشد
 ملمح رئيسى ، وهدف أسمى من وراء عبادة الصيام • وطالما تحققت
 التقوى والرشد والهداية ، فان النفس البشرية والروح الانسانية ،
 تصبح فى مأمن من الوقوع فى مزالق العصيان •

يقول الامام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : **« يا أيها الذين
 آمنوا كتب عليكم الصيام »** الآية •

« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » يعنى الأنبياء
 والأئمة من لدن آدم عليه السلام ، وفيه تأكيد للحكم وترغيب على الفعل ،
 وتطبيب على النفس • والصوم فى اللغة الامساك عما تنازع اليه النفس
 وفى الشرع الامساك عن المفطرات بياض النهار فانها معظم ما تستهيه
 الأنفس • لعلكم تتقون المعاصى ، فان الصوم يكسر الشهوة التى هى
 مبدؤها (٥) •

وفى قوله تعالى : **« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن »**
 الآية ، يذكر الامام البيضاوى أن المراد بالشهر أنه « من الشهرة ،
 ورمضان مصدر رمض أى احترق فأضيف اليه الشهر • • وإنما سموا
 بذلك اما لارتماضهم من حر الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب فيه
 أو لوقوعه أيام رمد الحر **« الذي أنزل فيه القرآن »** أى ابتداء انزاله
 وكان ذلك ليلة القدر • • هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ،
 حالان من القرآن ، أى أنزل وهو هداية للناس بأعجازه ، وآيات

(٣) البقرة : ١٨٣ ، ١٨٤ (٤) البقرة : ١٨٥

(٥) البقرة : ١٨٦

(٦) الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازى ، انوار
 التنزيل وأسرار التأويل — المسمى تفسير البيضاوى — دار الفكر للطباعة
 والنشر والتوزيع — بدون تاريخ — ص ٣٨

واضحات مما يهـدى الى الحق ، ويفرق بينه وبين الباطل ، بما فيه من الحكم والأحكام ، « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافرا فليصم فيه ، والأصل فمن شهد فيه فليصم * . وفي قوله تعالى : « واذا سألك عبادى عني فانى قريب » الآية * يذكر أيضا البيضاوى : « واذا سألك عبادى عني فانى قريب » : أى فقل لهم انى قريب * وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم * . روى أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أقرب ربنا فبناجيه أم بعيد فبناديه ؟ فنزلت : « أجيب دعوة الداع اذا دعان » تقرير للقرب ووعد للداعى بالاجابة ، « فليستجيبوا لى » اذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم اذا دعونى لمهماتهم ، « وليؤمنوا بى » أمر بالثبات والداومة عليه ، « لتعلمهم يرشدون » ، راجين اصابة الرشد ، وهو اصابة الحق * . واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة ، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجازيهم على أعمالهم ، تأكيد له وحثا عليه « (٧) » .

واذا كانت تلك الآيات تؤكد على التقوى وطلب الهداية والرشد من أجل تربية النفس وصقلها ، اذا كان ذلك كذلك فاننا نلمح أن الأجداد النبوية بينت هذا ووضحته كذلك ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة — أى وقاية من النار أو المعاصى — فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فان ساببه أحد أو قاتله ، فليقل : انى امرؤ صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك * للصائم فرحتان يفرحهما : اذا فطر فرح بفطره ، واذا لقى ربه فرح بصومه » متفق عليه .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان فى الجنة بابا يقال له : الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال أين الصائمون ؟ فيقومون ،

لا يدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد »
متفق عليه • ولا شك أن تلك المنزلة وتلك المكانة في الدار الآخرة ، التي
تتم للصائمين لم تكن لتتحقق لولا أن زكت أنفسهم وتطهرت أرواحهم
بالصوم •

* التربية الجسمية والبدنية :

من المبادئ التربوية التي يسعى الاسلام الى تحقيقها : المحافظة
على الجسم وصيانة البدن من كل ما يوقعه فريسة للأمراض ، فضلا
عن التهلكة • والاسلام حين يقرر ذلك ، يهدف أن يتمكن الفرد المسلم
من تأدية رسالته في هذه الحياة ، وحتى حينما يمارس المسلم عبادة
الصيام ، يسقط الله سبحانه عنه اثباتها وقت المرض ، حتى يتم برؤه ،
ويقوى بدنه • قال تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » يقول البيضاوي في تفسير تلك الآية : « فَمَنْ كَانَ
مِنْكُمْ مَرِيضًا » يضره الصوم ويعسر معه ، « أَوْ عَلَى سَفَرٍ » أو راكب سفر
« فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » أى فعلية صوم عدة أيام المرض ، أو السفر من
أيام آخر إذا أفطر ^(٨) • وفي قوله تعالى : « يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ
وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » أى يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر ، فلذلك
أباح الفطر في السفر والمرض ^(٩) •

من هنا فلم يكن الاسلام ديناً يستهدف تعذيب الانسان وارهاق
بدنه لم يكلفه الا في حدود ما تمكنه امكانياته وقدراته • قال تعالى :
« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » ^(١٠) ونهى الاسلام عن
المبالغة في العبادة لدرجة يهزل معها الجسم ويضعف معها البدن ، فلا
تفريط ولا إفراط ، وإنما وسط واعتدال ، وقصد وتنظيم •

من هنا أباح الاسلام للفرد المسلم أن يتناول من الطعام والشراب
من وقت المغرب حتى يظهر بياض النهار من سواد الليل • وهذا في حد
ذاته اقرار للمسلم أن يتناول من الطعام ما يحفظ عليه بدنه ويصون
له ذاته • بيد أن هذا يتم في ضوء النظام الحقيقي الحكم ، ووفق مواعيد
ثابتة ، لا يحيد عنها المسلم ، فيها تعليم وتهذيب ، ودروس تربوية عملية ،

(٩) المرجع السابق ، ص ٣٩

(٨) المرجع السابق ، ص ٣٨

(١٠) النساء : ١٤٧

يتمرس عليها المسلم حتى تصبح لصيقة به ، يعيتمها ويعاينها ، يمارسها في أيامه العادية من العام ولا تنزلق قدمه ، فيأكل ويشرب بدون وعى وبدون حساب • وأيضا عليه أن يتذكر بالجوع التسعور نحو بنى جنسه من البشر ومن المسلمين ، حتى يساهم بما يسعدهم ويحفظ عليهم حياتهم • يقول الامام البيضاوى في تفسير قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » :
 شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل ، بخيطين أبيض وأسود ، واكتفى ببيان الخيط الأسود لدلالته عليه •• (١١) •

وإذا كان القرآن بهذه الدقة الكاملة الشاملة ، يصون للمسلم ذاته وكيانه ، فإن السنة النبوية أيضا أكدت وفصلت الكثير حول هذا ، وأشار النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث الى أن المبالغة في العبادة ، ومحاولة تطويع أعضاء البدن لغير ما أعدت له ، إنما فيه قهر للطبيعة الإنسانية ، وتنطع في الدين ياباه الاسلام ، لأنه خروج على مفهوم مكونات الانسان ، ومفهوم الوظائف البدنية • عن أنس رضى الله عنه قال : جاء ثلاث رهط الى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها — عدوها قليلة — وقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر • قال أجدهم : أما أنا فأطلى الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا • فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » متفق عليه •

وعن أنس رضى الله عنه قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا جبل ممدود بين الساريتين — عمودين — فقال : « ما هذا الجبل » ؟ قالوا : هذا جبل لزينة ، فإذا فطرت — كسلت عن القيام للصلاة — تعلقت به • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « حلوه » ، ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا فطر فليرقد » متفق عليه •

وهكذا يتضح أن انقياد الإنسان للعبادة طاعة لله ، محمول على التنسيق بين تحقيق العبودية لله رب العالمين ، واتزان الجسم ونشاطه ، حتى يقوى على معاودة العبادة والتزامها .

* * *

* التربية الخلقية :

وبلا أدنى شك ، فالصيام يهذب الخلق ، ويبعث في النفس حب الانفاق ، والعطف على الفقراء والمعوزين . ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم جوادا وكان أجود ما يكون في رمضان . عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء الى سعد بن عبادة رضي الله عنه ، فجاء بخبز وزيت فأكل ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة » رواه أبو داود باسناد صحيح . وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من فطر صائما كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وتدريب النفس على الانفاق ، وتعودها عليه ، يصبح بعد فترة خلقا للإنسان وسمة من سماته ، يلتزم بها ويحافظ عليها ، خصوصا اذا ذاق حلاوة الانفاق في سبيل الله وأدرك قيمته في الدنيا وعاقبته في الآخرة . قال تعالى : « الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١٢) .

* * *

* التطبيق التربوي :

المصوم ينفرد من بين سائر العبادات ، بتساميه عن تحديد وتقدير جزائه عند الله رب العالمين ، وعبادة هذا شأنها ، وتلك منزلتها ، لا شك أنها الوحيدة التي يبرز فيها الصراع والكفاح من الإنسان الى شيء متعلق بذات الإنسان ، لأن الصائم يجاهد ويكافح الهوى والشهوة ، لينتصر لإيمانه بربه ، وليكبح جماح الالف والعادة التي تلازمه في

(١٢) البقرة : ٢٦٢

حياته اليومية ، فينتصر بارادته ، ويحيى ضميره ، ويخضع رغبات بدنه وروحه ، فيصير صاحب الأمر عليها ، بدلا من أن يكون مستسلما ذليلا لها .

والمسلم تتنازعه قوتان : دعوة الشهوة ، ودعوة الرحمن ، فبينما الأولى تستهويه ليلبي نداءها ، ويستجيب لمطالبها ، فإن الثانية تناديه أن يكف عن تلبية رغبات النفس وشهوات الجسم ، ويطيع الله رب العالمين ، فيدع طعامه وشرابه وشهوته طاعة لله ، عندئذ يصبح خليقا باكرام الله له مستحقا لمنوبته وجزائه العظيم . بعد أن أتى بهذا العمل التساق ، وانتصر لنفسه من ذاته وسيطر عليها ، وأيقظ فيها الضمير ، فيصبح انسانا مراقبا لأعماله ، متمسكا بقيمه ومبادئه ، مجتنباً لليأس والافاق عند المحن والكروب ، كاظما غيظه حينما يكون كظم الغيظ حكمة ، صابرا ومتحملا في سبيل تحصيل رزقه ضاربا بأخلاقه المثل الأعلى في محبة اخوانه ، لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده ، انما هو مرتبط بمجتمع ومرتبب بآخرين يشاركونه الحياة والعمل والمنافسة ، فلا مندوحة له من استثمار درس الصيام ، وما خرج به منه من تعلم للصبر ورقابة على النفس وحسن العلاقات مع الآخرين .

وبهذا تؤهل نفس المسلم وتصبح مستعدة لقبول ما تفرضه الحياة من حرمان ، وما تحدثه من أزمات . كما أن نفس الغنى تصبح مقبلة على مساعدة المحروم ، والأخذ بيد المريض والعاجز . وبهذا يلتئم صدع المجتمع ، بحيث يتميز عن غيره من المجتمعات غير المسلمة ، لأن الصيام قد أعاد للمجتمع تماسكه ، ولأفراد تربطهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصيام لا ينبغي أن يكون سببا لنفرة الأفراد بعضهم من بعض ، أو محركا للخلاف والشقاق ، أو داعيا لاهمال العمل أو التراخي فيه ، أو التستر خلفه دفعا للوم أو تبريرا لاهمال ، أو توكلا عن عمل فالصيام فيه وحدة القلوب والمشاعر ، ولا مكان فيه لتبرير مهمل ، أو اعتذار مقصر ، أو تمزيق لألفة ، بل عكس ذلك يكون ، تلاق وتضاف ، وتماسك وترابط تحت مظلة التوحيد وتلبية لنداء الله رب العالمين .

ولا شك أن المجتمع المتمسك بإداء الصوم ، هو المجتمع الذي يمثل أوامر الله ، ويلبي دعوته ونداءه ، هو المجتمع الذي يشيع فيه العدل والسلام والأخوة والتعاون فيتسامى الى مستوى أرفع في

الانسانية ، وهو المستوى المذهب الصافي الطاهر البعيد عن الحقد والايذاء ، والفرد الصائم هو الانسان الصالح الذي يؤثر انسانيته على ما فيه من حيوانيته ، فيدفع بصومه قوة اعتدائه على نفسه وينتهي لعدم الاستسلام للشتر أيا كان مصدره ، لأنه طالما امتثل لله ، فهو لا يرضخ لما عداه من قوى الطغيان والفساد (١٣) .

وعلى وجه العموم ، فإن الانسجام في الطابع العام للمجتمع ، ووحدته الشعور والروابط والاتجاه هي سمات المجتمع المسلم الصائم ، الذي استطاع السيطرة على رغبات النفس ، وتحكم فيها بالقدر الذي يجد من متطلباتها وأغراضها . ومجتمع هذا شأنه ليس في حاجة الى أن يراقب بعض أفراد بعضه الآخر في أداء الواجب ، كما أنه ليس في حاجة الى الشحنة والمخاضة والتقاضى ، لأنه يفعل بوحى من ضميره ووحى ضميره هو ما يخشى فيه الله سبحانه وتعالى ، كما أنه أمر من الله ، قال تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١٤) .

بهذه الصفات التربوية ، نصل الى أن عبادة الصوم ، تكمن فيها الرحمة والبر والتكافل الاجتماعى بين جميع أفراد المجتمع ، يشملهم جميعا العدل السماوى ، والتنظيم المحكم الدقيق الذى يتسم بالمحبة والخير والسلام .



(١٣) د. محمد على محمد المرصنى ، من المبادئ التربوية فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٣١ — ١٣٤
(١٤) الانعام : ١٥٣

رؤية تربوية في شهر الصيام

تشهد التربية في عالمنا العربي والاسلامي في الآونة الأخيرة اضطراباً منقطع النظير ، حيث بات اهتمام التعليم يقتصر على حشو ذهن المتعلمين بكم ضخمة من المعلومات في سائر مجالات العلوم والفنون ، وغدت التربية بمفهومها الصحيح غير واضحة • وتتضح هذه الصورة حينما نلمح أن المغزى التربوي لبناء الفرد في جميع النواحي الجسمية والعقلية والخلقية والنفسية والجمالية غير محقق بالشكل المأمول •

وان كنا لن نتناول في هذا المقام أسباب هذه الظاهرة ، الا أننا نسير في عجلة سريعة الى ملامح يكاد يكون ظاهراً لكل ذي بصيرة ، ذلك أن التربية في كثير من بلاد المسلمين اعتمدت في بنائها على كثير من الفكر الوافد ، برز أثره واضحاً في عدم وفاء التعليم لتحقيق الكثير من أهدافه ، خصوصاً اذا أدركنا أن تلك الأهداف لا تتوافق — في غالبيتها — مع المنهج الاسلامي •

من هنا فلا مناص من وقوع المتعلمين في ذبذبات بين واقع يعيشونه في المدرسة وبين قيم اسلامية تعتمد على الفكر الاسلامي والمنهج الاسلامي ينشد المجتمع تحقيقها فيهم ، ولا جدال أنه لو صلح المنطلق الذي تستند منه التربية بنيتها لصلح التطبيق التربوي ، ولاستقام بالتالي النظام التعليمي • واذا اتضح لدينا أن منطلق التعليم الحالي يشنق — في كثير منه — من فكر سياسي أو اقتصادي أو ثقافي أو كلها مجتمعة ، اذا اتضح ذلك ، فقد بدت النتائج التربوية المنشودة متحطمة فوق صخرة التقليد ، وتحت مظلة الأنظمة الجامدة في التعليم •

والفرد المسلم في عصرنا بات لا هم له سوى الشكليات دون العمق ، والمظهر دون المخبر ، خصوصاً وأن بنية تكوينه اعتمدت فقط على منهج يحفظ ، وكلمة تكتب ، ضارباً عرض الحائط بالقيم الأخلاقية الصحيحة ، والمغزى التربوي للعبادات المكلف بها من لدن رب العباد سبحانه وتعالى •

بيد أننا لو عدنا الى الاسلام ، فسوف نلمح أن سائر العبادات — ومنها الصيام — تعتمد على ركيزة واضحة ، هي عدم الشرك بالله رب العالمين •

ولكن كيف كان ذلك ؟ •• إذا نقى الضمير عند الفرد معلما أو متعلما ، إذا نقى من أو شأب الشرك في جميع صوره ، وإذا تطهر القلب من أو شأب الخرافة ، وإذا تخلص المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وإذا تطهرت الحياة من عبودية العباد للعباد ، إذا توفر ذلك ، حينئذ يكون ارتباط الفرد المسلم بربه وعلاقته به على بصيرة •

ثم تأتي علاقة الجماعات والأفراد ، مقاسة بهذا المعيار الثابت — عدم الاشتراك بالله — الذي نرجع اليه في كافة الروابط ، ومقاسة كذلك بالقيم الإسلامية التي شأنها أنها تحكم الحياة البشرية ، فلا تظل نهبا لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التي تتراوح مع النزوات والشهوات (١) •

هذا وإذا كنا في مجتمعنا الإسلامي ننشد الإصلاح والإصلاح ، وإذا تخلصنا من المشككية والمظهر في الممارسات الدينية ، وخصوصا التي ترتبط ارتباطا مباشرا بقياس قدرات الفرد النفسية والخلقية ، إذا استطعنا ذلك ، فلا مراء في أننا نكون قد ترجمنا المبادئ الدينية إلى واقع تربوي نحسه ونلمسه ، في جميع الجوانب والاتجاهات •

وعادة الصيام تنفرد من بين مبادئ العبادات بكونها كفاحا وجهادا موجها من الذات ضد الذات ، وموجها من نفس الإنسان ضد رغبات جنسه وبدنه • عن أبي هريرة رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : الا الصوم فانه لى وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي » (٢) •

وربما لا نجانب الصواب حينما نقرر بداية ، أن غريضة للصيام تحقق رؤية تربوية ، لا تتوفر في أى منهج وضعى ، مهما سمت مكانته ، ومهما اتسع مداه ، ذلك أن الصيام بشكله ومضمونه ، يرشدنا إلى مجموعة من الأسس التربوية التي سوف نجليها على الوجه التالي :

أولا : التربية الصحية •

ثانيا : التربية النفسية •

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، ط (١٠) ، ١٩٨١ ،

ج ٣ ، ص ١٢٢٩ ، ١٢٣٠

(٢) د. محمد على المصطفى ، من المبادئ التربوية في الإسلام ،

عالم المعرفة ، جدة ، ١٤٠٣ هـ ، ص ١٣١

- ثالثا : التربية الخلقية *
- رابعا : التربية الروحية *

* * *

أولا - التربية الصحية :

الصوم في الاسلام فيه جهد مثمر ومنظم ، لترقية الطبيعة البشرية وتطويرها ، في حدود غطرتها وطاقتها وطبيعتها تكوينها ، أو بمعنى آخر يعتبر الصوم منهجا اسلاميا للتربية ، فيه من النماء ما يتوافق وحاجة الانسان ، خصوصا وأن هذا المنهج مصدره خالق السموات والأرض : **« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »** (٣) وتتضح هذه الصورة في أن آيات الصيام ، تقرر للمؤمنين وتحل لهم مباشرة النساء في ليلة الصوم ما بين المغرب والفجر ، وتحل لهم الطعام في نفس الوقت كما تبين حكم المباشرة في فترة الاعتكاف في المساجد * قال تعالى : **« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تخفون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، الآن ياشروهن وابتنوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أنموا الصيام الى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون »** (٤) *

وقد نزلت هذه الآية ، بعد أن شق على المسلمين أن يلتزموا التطبيق العملي للصوم في شكل أحكامه الأولى ، التي كانت تحتّم على المسلم إذا نام بعد اغطاره أن يمتنع عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، حتى ولو استيقظ قبل الفجر ، كما شق على المسلمين ذلك ، فدلهم الله الى اليسر ، ليثشعروا بقيمته ، ومدى الرحمة والاستجابة *

وتيسيرا على الفرد المسلم ، واعترافا ببشريته وطبيعته الانسانية ، في عدم كبت حاجاته وشهواته ، واستجلابا لتنشيطه حتى يقوى على العبادة ، استجلابا لكل ذلك أباح الاسلام المباشرة للنساء ، ما بين المغرب والفجر : **« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم »** والرفث قد يكون مقدمات المباشرة ، أو المباشرة نفسها ، وكلاهما مقصود

(٤) البقرة : ١٨٧

(٣) الملك : ١٤

هنا ومباح ، غير أن تلك العلاقة الزوجية ، دافعها الرقيق والرحمة :
 « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » فالصلة بين الزوجين تستر كلا
 منهما وتقويه ، فالاسلام ينظر للفرد المسلم بشكل شمولي ، من ظاهره
 وباطنه ، ولا يكبت له رغبة ، ولا يحبط له ارادة طالما كان دافعها
 صيانة الفرج وحفظه بالحلال المشروع .

ويتضح منهج الاسلام في النظر الى الانسان بشكل شمولي ، في
 كونه يتحسس الرغبات المكبوتة ، خصوصا عندما نعلم انه قد ورد أن
 بعض المسلمين قد وقع فيه ، على مفهوم الصيام في سورته الاولى ،
 حيث ورد أن بعضهم قد نام بعد الافطار ، أو نامت امرأته ، ثم وجد
 في نفسه دفعه للمباشرة ففعل ، وبلغ أمره الى النبي صلى الله عليه
 وسلم ، وبدت المشقة في أخذ المسلمين بهذا التكليف ، فردهم الله الى
 اليسر . . . ونزلت هذه الآية : « أحل لكم ليلة الصيام » . بعد أن ظهر
 الضعف وبدت ظواهره : « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب
 عليكم وعفا عنكم » ، فالآن باثروهن وابتغوا ما كتب الله لكم .
 ابتغوا هذا الذي كتبه الله لكم من المتعة بالنساء ، ومن المتعة بالذرية
 — ثمرة المباشرة — فكلتاها من أمر الله ، ومن المتاع الذي أعطاكم
 إياه ، ومن اباحتها واتاحتها بياح لكم طلبها وابتغاؤها ، وهي موصولة
 بالله فهي من عطاياه ، ومن ورائها حكمة ، ولها في حسابه غاية ، فليست
 اذن مجرد اندفاع حيواني موصول بالجسد ، منفصل عن ذلك الأفق
 الأعلى الذي يتجه اليه كل نشاط .

بهذا ترتبط المباشرة بين الزوجين بغاية أكبر منهما ، وأفق أرفع
 من الأرض ومن لحظة اللذة بينهما ، وبهذا تنظف هذه العلاقة وترقى
 وترقى . . . » (٥) .

وليس بعد هذا تكريم لانسان ، وتربية صحية له ، تراعى فيها
 الحاجات ، وتنشط الهمم ، وتسقط دوافع الاحباط ، فلا رهبانية في
 الاسلام ، ولا كبت فيه لحاجة فيها صلاح للبدن وتنشيط للعبادة ،
 وتربية للفرد المسلم .

ومما تجدر الإشارة اليه أن الاسلام وهو يتيح للمسلم هذه
 الامكانيات يراعى مصلحة الفرد ويضعه فوق كل اعتبار .

(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٧٤ ، ١٧٥

وتبدو هذه الصورة واضحة في مجموعة من الاجراءات :

* النهى عن الكلفة والمشقة :

حيث نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال في الصيام ، رحمة بالمسلم واشفاقا عليه . عن ابي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والوصال » قالوا : فانك تتواصل يا رسول الله ، قال : « انى لست كأحدكم ، انى أبيت يطعمنى ربى ويسقيني ، فاكفوا من الأعمال ما تطيقون » (٦) .

* اباحة الفطر لذوى الأعذار :

وتتضح هذه الصورة حينما يباح للمريض والمرضع والحامل . . الاططار شريطة أن يؤدوا الصيام بدلا من الأيام التي أفطروا فيها .

* تحقيق التوازن بالصيام :

يتضح ذلك حين نعلم أن المسلم له أن يتناول طعامه وشرابه باعتزان ، قال تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » (٧) .

* * *

ثانيا - التربية النفسية :

لما كان الصيام قد تبدو في ظاهره المشقة والقهر للشبهوات والحاجات ، كان لابد للفرد المسلم من عوض كامل عن مشقة الصوم ، قد بدا ذلك في استجابة الله لدعائه ، قال تعالى : « واذا سألك عبادى عني فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (٨) . وقد أجاب الله عز وجل عباده عن سؤالهم ، حيث قال تعالى مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم : « انى قريب » ولم يقل ربنا سبحانه وتعالى : أسمع الدعاء ، وانما عجل باجابة الدعاء : « أجيب دعوة الداع اذا دعان » في ظل هذا الأنس وهذا القرب ، يوجه الله عباده الى الاستجابة له ، والايمان به ، لعل هذا أن يقودهم

(٦) صحيح مسلم شرح النووي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ج ٧ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٧) الاعراف : ٣١ .
(٨) البقرة : ١٨٦ .

الى الرشد والهداية والصلاح : « فليستجيبوا لى وليرشدا بى اعلمهم يرشدون » ونفيد الايه ان الثمرة الاخيره من الاستجابة والايمان هى لهم حدك * وهى الرشد والهدى والصلاح ، قاله عنى عن العالمين * واستجابته الله للعباد مرجوة حين يستجيبون له وهم يرشدون » (١٧) *
 من هذا المنطلق فلا غرابه ان يأتى ذكر الدعاء فى ثنايا الحديث عن الصيام ، حتى تستنار الهمم وتنشط العزائم ، وان كانت العبادة فى شأنها قائمة ففى من الأمور التعبدية * قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثه لا ترد دعوتهم : الامام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » *

ولما كان مفهوم التربية النفسية ، يعتمد فى أساسه على تحقيق المتوازن لبناء الشخصية السوية التى تتوافق بداخلها الأهداف ، فلا يطغى أحدها على الآخر ، لما كان ذلك كذلك ، اتضح لدينا أن الصيام يقوم بأداء هذه التربية بصورة كاملة متكاملة ، حيث ان الفرد المسلم — وهو يؤدى غريضة الصوم — يوقن تمام اليقين أن ربه الذى كلفه وحرص عليه الصوم ، ينسب من أزره ، ويأخذ بيده ، ويحقق له أهدافه طالما أنها فى غير معصية * وفى صحيح مسلم ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » ، قيل : يا رسول الله * وما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أر يستجاب لى ، فينحسر عند ذلك ويدع الدعاء » (١٨) *



ثالثا — التربية الخلقية :

ترتبط الأخلاق فى الجانب الأكبر منها ، ارتباطاً جوهرياً بالدين وبمبادئه ، وبالقيم والفضائل التى قنام عليها الدين . واستند إليها ، ونادى بها * من هنا يمكن القول بأن القيم والقواعد والفضائل الخلقية ، فى مجتمع متدين ، هى قيم وقواعد وفضائل دينية ، حتى حينما يكون مصدر الأخلاق أحياناً التجربة الشخصية وتوقعات المجتمع وتأثيراته

(٩) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ج ١ ص ١٧٣

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ١٧٤

وسلطة القانون والعرف والتقاليد ، فانه لا يعتد بهذه الأخلاق الا اذا كانت متمشية مع الدين ، مما يجعل المصدر النهائي في الحكم على السلوك البشرى سواء بالخيرية أو الشرية هو الدين •

وحينما يصبح الدين مصدرا للأخلاق ، فان هذا يكسبها شيئا من الاحترام والتقدير والموضوعية والثبات النسبي ، وأمر طبيعي أن لا يتوغل هذا في الأخلاق التي مصدرها القوانين الوضعية (١١) •

هذا ولما كان من شروط الأخلاق الصالحة : الشمول والتوازن والاعتدال والواقعية واليسر والربط بين الاعتقاد والعمل ، وبين القول والفعل ، وبين النظرية والتطبيق ، لما كان الأمر كذلك ، فلا غرابة أن تحتل التربية الأخلاقية مساحة لا بأس بها في فريضة الصيام نلمح هذا في الآتي :

✽ الالتزام بالطاعة وعدم الاعتداء أو سب المسلمين :

يتضح هذا حيث ان الصائم عليه أن يلتزم الطاعة وقت صومه ، فلا يسب احدا من المسلمين • فقد قال صلى الله عليه وسلم : « اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فان سابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم » •

✽ تطويع النفس لممارسة الخلق الحسن :

ويمكن تحقيق هذا الهدف حينما تتمرس النفس على كسر الشهوات ، ففتنصاع فيحصل لها اعتياد والى اللاتيان بالجميل ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » •

✽ التزام صفة الكرم :

ولا شك أن هذه الصفة ، اذا سادت المجتمع ، فان غنة الفقراء والمساكين ، تحصل على ما تحتاجه ، وتنال ما ترجوه من العيش دون ما تمسكن أو مسألة • ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كريما جوادا وكان كرمه يزداد في شهر الصيام •

(١١) محمد على المزنفى ، حسن عبد العال ، في أصول التربية ، مطبعة التقدم ، طنطا ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٨

رابعاً - التربية الروحية :

اقتترنت فريضة الصيام في مفتتح الآيات التي تتحدث عنها بالتقوى ، كما اختتمت أيضا بالتقوى * وهذا يؤكد ويدلّل أن رجاء التقوى من العباد هدف روحى ، ومغزى جوهرى ، تسعى العبادات كلها الى تحقيقه ومنها الصيام ، فاذا تهذبت الروح ، واذا تحققت التقوى ، فقد امتلك المسلم زمام تصرفاته وأصبح على بصيرة من أمره * قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم يتقون » (١٢) *

وقوله تعالى : « ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » (١٣) * « فالتقوى هي التي تستيقظ في القلوب وهي تؤدي هذه الفريضة ، طاعة لله ، وإيثارا لرضاه * والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من افساد الصوم بالمعصية ، ولو تلك التي تهجس في البال ، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها في ميزانه * فهي غاية تتطلع اليها ارواحهم * وهذا الصوم أداة من أدواتها ، وطريق موصل اليها * ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون اليه عن طريق الصيام » (١٤) * وكما بدئت آيات الصيام بالتقوى اختتمت بالتقوى : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » وبهذا يبين أن التقوى غاية ، يبين الله آياته للناس ليلغوها ، وهي غاية كبيرة يدرك قيمتها الذين آمنوا وهم المخاطبون بهذا القرآن في كل حين (١٥) *

* خلاصة :

من العرض السابق يتضح أن الصيام في هذا العصر ، وفي كل عصر ، ضرورة ملحة ، بل ومعسكر ترويض ، يخرج منه الفرد المسلم وقد سمت نفسه ، وشفت روحه ، واستقامت صحته ، وانتظمت أخلاقه ، فلا افراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تهاون ، بل وسط واعتدال وتناسق

(١٣) البقرة : ١٨٧

(١٢) البقرة : ١٨٣

(١٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ج ١ ص ١٦٨

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٧٦

واتزان في جميع المجالات ، ما يرتبط منها بالدين . « وما يرتبط منها
بالسلوك ، ما يرتبط منها بالنظر وما يرتبط منها بالعمل : « وفي ذلك
فليتنافس المتنافسون » (١٦) ، « وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله
والمؤمنون » (١٧) .

* * *

(١٦) المطففين : ٢٦

(١٧) التوبة : ١٠٥

أهم المراجع

* المراجع العربية :

- ١ — القرآن الكريم
- ٢ — أبو حامد الغزالي ، احياء علوم الدين ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٣ — ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ .
- ٤ — ابن الخطيب ، أوضح التفاسير .
- ٥ — أحمد جمال طاهر ، نظريات في العلاقات العامة ، دار الشروق ، جدة ، ط ١ ، ١٩٧٨ .
- ٦ — البيضاوي (الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي) ، انوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوي ، دار الفكر للطباعة والتوزيع ، بدون تاريخ .
- ٧ — جليل شكري عجمان ، مشكلات الطفولة في المجتمع المدرسي : تطبيقات تربوية ، مطبعة النجاح ، دمنهور ، بدون تاريخ .
- ٨ — جميل م . منيمنة ، مشكلة الحرية في الاسلام : المشكلة الاجتماعية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ .
- ٩ — جميل م . منيمنة ، مشكلة الحرية في الاسلام : المشكلة الفلسطينية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ .
- ١٠ — جورج موكو ، التربية الوجدانية والمزاجية للطفل ، ترجمة : منير العصرة ونظمى لوقا ، الجمعية المصرية لنشر الثقافة والمعرفة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- ١١ — جيمس س . دوس ، الأسس العامة لنظريات التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ١٢ — حسن مصطفى وآخرون ، اتجاهات جديدة في الادارة المدرسية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٢ .

- ١٣ — ر. ف. ديردن ، فلسفة التعليم الابتدائي ، ترجمة سعد مرسى أحمد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩
- ١٤ — زكى راغب غوثة ، العلاقات العامة فى الادارة المعاصرة ، الأردن ، عمان ، ١٩٨١
- ١٥ — سعد مرسى أحمد ، التربية والتقدم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩
- ١٦ — سعيد اسماعيل على ، أصول التربية الاسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨
- ١٧ — سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤
- ١٨ — سعيد اسماعيل على ، معاهد التعليم الاسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨
- ١٩ — سيد صبحى ، الانسان وسلوكه الاجتماعى ، دار مرجان للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٩
- ٢٠ — السيد سابق ، عناصر القوة فى الاسلام ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٨
- ٢١ — سيد قطب ، العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٤
- ٢٢ — سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة - بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٨١
- ٢٣ — سيد قطب ، معركة الاسلام والرأسمالية ، دار الشروق ، القاهرة - بيروت ، ط ٦ ، ١٩٧٩
- ٢٤ — صادق سمعان ، الفلسفة والتربية : محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢
- ٢٥ — الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى) ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٤
- ٢٦ — عباس محمود العقاد ، الانسان فى القرآن الكريم ، دار الهلال ، القاهرة ، بدون تاريخ
- ٢٧ — عبد الرحمن بن حماد آل عمر ، دين الحق ، مطابع الرياض ، ١٣٩٥ هـ

- ٢٨ — عبد الرحمن حسن حنيفة ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها ، دار القلم ، دمشق — بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠
- ٢٩ — عبد الرحمن عبد الباقي عمر ، العلاقات الانسانية ، مكتبة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٨٠
- ٣٠ — عبد الرحمن الميداني ، الأخلاق الاسلامية وأسسها ، دار القلم ، بيروت — دمشق ، ١٩٧٩
- ٣١ — عبد الله شحاتة ، علوم القرآن والتفسير ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٠
- ٣٢ — عبد الله ناصح علوان ، تربية الأولاد في الاسلام ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب — بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨١
- ٣٣ — عبد الله كنون ، اسلام رائد ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٧٩
- ٣٤ — فيليب هـ. فينكس ، فلسفة التربية ، ترجمة : محمد نجيب النجيجي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥
- ٣٥ — محمد أمين المصري ، المجتمع الاسلامي ، دار الأرقم ، الكويت ، ١٩٨٠
- ٣٦ — محمد البهي ، الاسلام في حياة المسلم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٧٧
- ٣٧ — منهج القرآن في تطوير المجتمع ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٩
- ٣٨ — محمد رأفت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الاسلام ، مطبعة السعادة ، ط ٢ ، ١٩٧٧
- ٣٩ — محمد عبد القادر أحمد ، طرق تعلم التربية الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨١
- ٤٠ — محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق في القرآن : دراسة مقارنة للأخلاق النظرية ، تحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٧٣
- ٤١ — محمد عطية الأبراشي ، التربية الاسلامية وفلاسفتها ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٥
- ٤٢ — محمد علي المصابوني ، مختصر تفسير ابن كثير ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط ٧ ، ١٩٨١
- ٤٣ — محمد علي المرصفي وحسن عبد العال ، في أصول التربية ، مطبعة التقدم ، طنطا ، ١٩٨٥

- ٤٤ — محمد على المرصفي ، من المبادئ التربوية في الاسلام ، عالم المعرفة ، جدة ، ١٤٠٣ هـ .
- ٤٥ — محمد على المرصفي ، نظرة عامة حول التربية الاسلامية ، مجلة كلية التربية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، العدد الثامن ، المحرم ١٤٠٣ هـ .
- ٤٦ — محمد المبارك ، دراسة أدبية لنصوص القرآن ، دار الفكر ، ط ٤ ، ١٩٧٣
- ٤٧ — محمد محمود الصواف ، المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة .
- ٤٨ — محمد معروف الدواليبي ، المدخل الى علم أصول الفقه ، دار الكتاب الجديد ، ط ٥ ، ١٩٦٥
- ٤٩ — محمد منير مرسى ، الادارة التعليمية : أصولها وتطبيقاتها ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٧
- ٥٠ — محمد منير مرسى ، التربية الاسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧
- ٥١ — مصطفى الراغبي ، الاسلام انطلاق لا جمود ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩
- ٥٢ — مقداد يالجن ، الاتجاه الأخلاقي في الاسلام ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٧
- ٥٣ — مقداد يالجن ، التربية الابداعية في ضوء التربية الاسلامية ، الفيصل — مجلة ثقافية شهرية — العدد ٦٨ (صفر ١٤٠٣ هـ — ديسمبر ١٩٨٢) .
- ٥٤ — المنذرى ، مختصر سنن أبى داود ، تحقيق محمد حامد الفتى ، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٤٩
- ٥٥ — النووى ، صحيح مسلم بشرح النووى ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨١
- ٥٦ — يوسف القرضاوى ، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ، مؤسسة الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٠

* المراجع الأجنبية :

1 — Olive Banks, The Sociology of Education. B. T. Patsford Ltd. Third edition. London. 1976.

محتويات الكتاب

الصفحة

المقدمة	٥
الفصل الأول : نظرة عامة حول التربية الاسلامية	٧
الفصل الثاني : قيم تربوية في القصص القرآني	٢٦
الفصل الثالث : الحرية والتربية في الاسلام	٥٥
الفصل الرابع : العلاقات الانسانية والتربية	٩٣
الفصل الخامس : مباحث في التربية الاسلامية	١٦٠
الغزو الثقافي للمجتمع الاسلامي ، وموقف التربية الاسلامية ازاءه	١٦٠
الأسره المسلمة ، ودورها التربوي في مواجهة الغزو الثقافي	١٦٥
المسجد ، ودوره التربوي في العصر الحديث	١٧٣
الاعلام ، ودوره التربوي في مواجهة الغزو الثقافي	١٨٠
المدرسة ، ودورها التربوي في مواجهة الغزو الثقافي	١٨٧
الصدق وأثره التربوي في المجتمع المدرسي	١٩٦
الصيام وأهدافه التربوية	٢٠٢
رؤية تربوية في شهر الصيام	٢١٠
أهم المراجع	٢١٩
محتويات الكتاب	٢٢٣

* * *

رقم الايداع ٧٢٣١ / ١٩٨٦
الترقيم الدولي ٢ - ٠٨٣ - ٣٠٧ - ٩٧٧

مطابع
دار التراث العربي
ت ٩٣٦١٤٥

هذا الكتاب

- تسمر المجتمعات الإسلامية في الظروف الراهنة، بفترة حرجة ترتبط إرتباطاً وثيقاً بسطبيعة وكيفية تربية الفرد المسلم، وغدت التربية الإسلامية بمفاهيمها الأصيلة ضرورة ملحة في هذا العصر، لتواكب المتغيرات السياسية والثقافية والإقتصادية والإجتماعية.. وتواجه الحملات الشرسة — على جميع المستويات — التي تحاول النيل من الإسلام — وتعويق مسيرة بناء الفرد المسلم ..
- إن التربية الإسلامية هي التي تؤدي دورها في بناء المجتمع، لتنتقل فيه الطافات، وتُرسخ فيه العقيدة والقيم والحرية والسلوك المنضبط ..
- وهذا الكتاب « في التربية الإسلامية .. بحوث ودراسات » .. يوضح « نظرة عامة حول التربية الإسلامية » ثم يلقي الضوء على « قيم تربوية في القصص القرآني » .. ومفهوم « الحرية والتربية في الإسلام » .. وكيف تكون « العلاقات الإنسانية والتربية » .. مع « مباحث في التربية الإسلامية » .. وموقفها إزاء « الغزو الثقافي للمجتمع الإسلامي » .. ثم يضع الأسس التي يجب أن تكون عليها « الأسرة المسلمة » ويضع نماذج للسلوك مثل « الصدق وأثره التربوي » .. « والصيام وأهدافه التربوية » .. الخ .
- ومؤلف الكتاب : أستاذ متخصص — حاصل على درجة الدكتوراة — ويعمل أستاذاً لأصول التربية — بكلية التربية — جامعة طنطا — وله العديد من المؤلفات في مجال التربية .. يسكب لنا علمه وخبرته ..
- ويسر مكتبة وهبة : أن تقوم بنشر هذا الكتاب ليكون شمعة تنير الطريق في مجال « التربية الإسلامية » .. وبالله التوفيق .

مكتبة وهبة